العامل الصهيوني

في أحداث القرن العشرين

تأليف : ايڤــور بنســون

تعريب : محمد جميل قصاص



الطبعة الأولى : 2004

رقم: 76129 - تاريخ: 2004/3/17

رقم الإصدار: 904





دمشق : منطقة المزة (3) - حي الجلاء (5) شارع كعب بن مالك
(طلعة الإسكان سابقاً) بناء رقم (2) ـ ص.ب : 16035
هاتف: 6618013 - 6618961 تلفاكس: 6618820 - برقياً : طلاسدار
Website:www.dartlass.com E-mail:info@dartlass.com

مكتبة دار طلاس - برج دمشق - مقابل وزارة الداخلية - هاتف: 2319558

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء و بنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

THE ZIONIST FACTOR

The Jewish Impact on Twentieth Century History

IVOR BENSON

تم نشر الترجمة العربية بإذن خطي
من الدار الناشرة باللغة الإنكليزية.



إيفور بنسون

العامل الصهيوني

في أحداث القرن العشرين

تعريب: محمد جميل قصاص

المحتويات

تمهيـــد

يعتبر هذا الكتاب، الذي نشر لأول مرة عام 1986، ذروة أعمال إيڤور بنسون، في تحليل أحداث القرن العشرين. إنه استكشاف دقيق صادق في أعماق المسائل الصعبة التي أقضت مضاجع جميع مفكري الغرب، سواء أقروا بذلك أم أنكروه، مثل: العلاقة السرية الغامضة بين المسيحيين واليهود، وبين الرأسمالية والاشتراكية، التي لا شيء يعلوها في الأهمية.

إن اعتبار الكتاب معلماً خالداً من معالم التذكير بالتاريخ، لا يرجع فقط لمؤلفه المتميز، بل لأهمية موضوعه، بغض النظر عن صعوبة التصدي له أو الإهمال والتجاهل الذي لقيه.

مما يثير السخرية والخوف في آن معاً، أنه كلما زادت أهمية الموضوع، زاد الحوار العام حوله صعوبة، واشتد الميل إلى تحريم الكلام فيه.

فلكتابة كتاب من هذا النوع، يعالج الموضوع بأمانة، على المؤلف ألا يكون جاداً وصادقاً فقط، بل يجب أن يتحلى أيضاً بشجاعة غير عادية. ولهذا، فإن قلة من جيوش الكتّاب والمؤلفين الذين تصدوا لهذا الموضوع، بقيت صامتة تماماً لافتقار مشاهير الصحفيين والمؤرخين للجدية والصدق والشجاعة.

ولد إيڤور بنسون عام 1907 في بيت لحم، جنوب أفريقيا، من أبوين سويديين، وبدأ الكتابة في سن السادسة عشرة كمحرر صحفي في جريدة ناتال ميركوري. اهتم إيڤور في شبابه بالأدب، والإجراءات القضائية، والكيمياء، والطب، إضافة إلى عشق قيادة الدراجات النارية بشكل جنوني متهور. عمل في النجارة ورصف الآجر، فاكتسب بذلك خبرة لا يشاركه فيها معظم المفكرين.

بين عامي 1926 و 1940، عمل إيڤور في مختلف صحف جنوبي أفريقيا وإنكلترا، وحاز شهرة ككاتب مبدع، أوصلته إلى منصب رئيس التحرير.

بعد أن أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، ورمت بالعالم في حرب ثانية شاملة لا معنى لها، تطوع إيفور للقتال، وتم تعيينه بناء على طلب اللجنة الصحفية جندياً في سلاح الدبابات والمدرعات، ترقى بعدها ليصبح ضابطاً. وكان لمشاركته في المعارك الحربية بجنوب أفريقيا وإيطاليا أثر بالغ عليه كفيلسوف، أكسبه خبرة عميقة بالحياة. فحين يعيش المرء طويلاً تحت تهديد الموت المفاجئ العنيف، تبدو الحياة والحقيقة أمامه بصورة مختلفة.

وبانتهاء فظائع الحرب، تم تعيين إيفور للعمل في برامج ثقافية لصالح القوات البريطانية المتواجدة في إيطاليا بانتظار إعادتها إلى الوطن. فتنامت في هذا العمل مهارات إيفور ــ كمحاضر ــ جعلت منه فيما بعد خطيباً ليس في جنوب أفريقيا وحسب، بل في الولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا، وبريطانيا أيضاً.

في عامي 1963 و 1964، قامت إدارة البث الإذاعي في جنوب أفريقيا بتعيين إيفور للعمل لديها كمعلق على الأخبار، فلاقت تحليلاته النفاذة لمسألة «إشكالات الصحافة المقيدة» استحساناً شعبياً عاماً، جرَّ عليه عداء أصحاب النفوذ في العالم، الذين كانت مخططاتهم لجنوب أفريقيا ــ شأن مخططاتهم لكل دول الغرب ــ تتعارض عمودياً مع قيم إيفور بنسون العالمية ومثله العليا الشعبية.

كانت المهمة الأساسية للإعلام في الدول «**البيضاء**» هي إضعاف وإفساد الجانب الأخلاقي العام، من خلال معالجة الأخبار، بما في ذلك افتراؤها أو طمسها بما يلائم المخطط العام. فبدأت الأدلة على فساد الصحافة ومكرها تتكدس وتظهر على يد أفراد، ولاسيما على صفحات جريدة سبوت لايت الأسبوعية في مدينة واشنطن، التي ما فتئت تنشر المقالات والتحقيقات حول الأحداث الهامة التي تمس وتؤثر على جميع الغربيين، وتشوهها أو تخفيها جميع الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى.

في عام 1964، عرضت حكومة روديسيا المحاصرة على إيفور أن يصبح «**مستشاراً للمعلوماتية**» في الحكومة. وإحساساً منه بخطورة الموقف الروديسي ــ شأن قلة قليلة أخرى ــ فقد ترك عمله في جنوب أفريقيا وانتقل إلى روديسيا.

وسرعان ما تعرض لهجوم ضار شنه عليه أحد أعضاء البرلمان الروديسي، آ.ي. أبراهامسون الصهيوني البارز، وأمطره بالبيانات الكاذبة الواضحة التزييف محتمياً بحصانته البرلمانية. وانطلاقاً من هذه الافتراءات، بدأت حملة صحفية لتشويه السمعة اضطر إيفور معها إلى مقاضاة صحف بعينها من جنوب أفريقيا بتهمة التشهير. وفي النهاية، صدر حكم حاسم عن المحكمة العليا في جنوب أفريقيا ببراءته ونظافة اسمه، ينسب الكذب إلى أبراهامسون وإلى الماكينة الصهيونية لصنع الأكاذيب، إلا أن النتيجة الهامة لكل ذلك تجسدت في الإشارات المقتضبة للقضية إلى حدها الأدنى في الصحافة وأجهزة الإعلام.

كان إيفور من مؤيدي تقوية النظام القبلي في روديسيا، كموقف طبيعي معارض في وجه الإرهاب الماركسي، ومن مؤيدي التعددية الثقافية التي كانت لعنة على الصهاينة وحلفائهم الأغنياء المتنفذين، وعلى الصحافة الموجهة، وعلى الساسة الذين يعتمدون عليهم ويأتمرون بأمرهم.

بعد أن فهم إيفور تماماً نية رئيس الوزراء إيان سميث السرية بالموافقة على «**اتفاقية التسوية**» التي تطالب بها الولايات المتحدة وبريطانيا، وأدركها بشكل واضح دقيق، استقال من حكومة سميث.

قام إيفور لاحقاً بكتابة عدد من التحليلات المبدئية للخيانة التي ارتكبتها القيادة الروديسية بحق روديسيا، بما فيها أربعة فصول في كتابه «**حقيقة أفريقيا الحائرة المجهولة**» المنشور عام 1995 بطبعة منقحة.

في عام 1966، أفرج إيفورعن كتابه «**صنّاع الرأي**»، الذي كرّسه بالطبع للصحافة المقيدة الموجهة، ولاقى استحساناً حاراً. ثم بدأ في عام 1969 بإصدار نشرة إخبارية بعنوان «**ما وراء الأخبار**»، تهتم بالتحليلات السياسية لفهمها في إطار قومي أصيل جعلها تنتشر في كل أنحاء العالم.

في عام 1968، قرر إيفور وزوجته ترك جنوب أفريقيا، بعد أن أدرك نية القيادة السياسية الخائنة في دفع البلاد للسير على نموذج إيان سميث الذي طواه النسيان. في البداية ذهب إلى السويد، موطن أبويه، ثم إلى إنكلترا، حيث تابع كتاباته التي عكست بكل دقة حقائق عصرنا. ومات أخيراً في عام 1993.

ومثل نجار آخر عاش منذ ألفي عام، تعلم إيفور أن العالم اعتاد أن يضحي بمخلصيه. لكن أعماله اليوم ما زالت حية، إلى أن يأتي من يملك حظاً من الحكمة تكفيه ليتعلم من تجارب الآخرين.

و. آ. كارتو

سان دييغو ــ 2000

مقدمة

كتبت الأستاذة حنه آريندت تقول: «**الحاجة إلى معالجة صادقة نزيهة للتاريخ اليهودي أصبحت مؤخراً أكبر من قبل**». وتتابع قائلة: «**فالتطورات السياسية للقرن العشرين دفعت بالشعب اليهودي إلى مركز الأحداث العاصفة... فلقد أصبحت المسألة اليهودية ومعاداة السامية العامل المحرك لقيام الحركة النازية ولتشكيل الجانب التنظيمي للرايخ الثالث... ثم لاندلاع حرب فريدة في ضراوتها**»[1].

ولكن رغم كبر هذه الحاجة، إلا أن الأثر اليهودي على أحداث القرن العشرين ودراسته بشكل معمق، تم تجنبه من قبل الأكاديميين المعاصرين، للسبب الذي ورد في تعليقات أستاذ يهودي آخر للتاريخ «**الوجود اليهودي... الذي يقاوم ويعارض مزاعم وافتراضات الدراسات الحديثة**».[2] بتعبير ملتو آخر، يمكن القول إن الموضوع بالنسبة للمؤرخين كان أسخن من أن يتصدوا له.

ومن نافلة القول، أنه ما كان بالإمكان إجراء بحث تحقيقي حول دوافع وأفعال أولئك الموجودين «**في مركز الأحداث العاصفة**»، إلا في إطار عام لفهم معمق موحد لتاريخ هذه الحقبة من الزمن. بعبارة أخرى، لا يمكن فهم معنى الدور اليهودي إلا بوصفه عنصراً بالغ الأهمية في تاريخ قرن طافح بالإشكالات.

لمعالجة موضوع معقد ومتعدد الجوانب من هذا النوع، فقد استخدم هذا الكتاب أسلوب عرض سلسلة من الدراسات المنفصل بعضها عن بعض، نأمل

---

[1] «الجذور الأولى للديكتاتورية» تأليف حنه آريندت ص 14. «عصر الصراع» تأليف فرانك تشامبرز، وكريستيان هاريس، وتشارلز بايلي (هاركورت).

[2] البروفيسور هنري ل. فاينغولد، الجامعة الحكومية، نيويورك.

أن تساهم كل منها في فهم أعمق وأشمل للعلاقة الطويلة المعقدة بين اليهود وغير اليهود.

لقد تم استعمال كلمة «**صهيوني**» في العنوان، لإظهار التبدل الكبير في القرن العشرين الذي طرأ على الوجود اليهودي، وأبطلت معه شهواتهم لحكم السياسة العالمية كل أثر للعامل الديني، الذي يعتبر المحرك الأساسي الأول في تشكيل وحدة اليهود وتميزهم.

إن الهدف الرئيسي للكاتب هو وضع المعلومات بعد فهمها بشكل صحيح بعضها مع بعض، بدلاً من الكشف عما أصبح معروفاً اليوم.

فبعيداً عن معاداة أشخاص من أصل يهودي، وعن الانطلاق من قاعدة «**الأصل**»، حاولنا أن نضع أوضح التفاسير الممكنة للمواقف التي سادت في الغرب، من زاوية غير متعصبة، ضمن إطار قبول الآخر واستيعابه. بعبارة أخرى، إننا نقول بأن استيعاب الآخر لم يكن مشكلة لا بالنسبة للغرب، ولا بالنسبة لأي يهودي يرغب بأن يستوعبه الآخرون ويقبلونه. فاليهودي ــ كما أشار البروفيسور السير آرثر كيث ــ لا يختلف عرقياً عن القوقاز الذين يشكلون الاتجاه العام السائد في الشعوب الغربية.

ومن هنا، فنحن بحاجة إلى منطق ملتوٍ، لنسبغ صفة «**معاداة السامية**» على كتاب يدافع عن القبول الكامل للآخر وعن عدم تمييزه، ونجد أن الخطأ هو في الموقف اليهودي الذي يشتكي من التعصب، ويرفس مزدرياً في الوقت ذاته كل عروض القبول والاستيعاب.

ضمن هذه الرؤية، وجد الغربي نفسه في موقع أخلاقي حصين خلال كل تعاملاته مع الأشخاص ذوي الأصل اليهودي. بالمقابل، فإن قادة اليهود ــ وخصوصاً الصهاينة منهم ــ يعترفون في النقاشات الصريحة لمسألة التقوقع والانطواء اليهودي بأن موقفهم ضعيف ومتهالك.

هناك مصدران متلازمان للأجوبة الحاسمة العاطفية التي تمنع البحث والحوار في المسألة اليهودية، يمكن تتبعهما والتعرف عليهما بسهولة. أولهما قادة اليهود الذين يميلون إما إلى الخوف أو إلى الغضب من كل أثر ينشأ عن الدعوة إلى الاندماج مع الآخر واستيعابه. وثانيهما غير اليهود الذين يقلقهم ما

يعتبرونه وجوداً معادياً في أوساطهم، ويزعجهم دائماً الذكاء اليهودي الفائق الذين يبدو غير متقيد بالمشاعر الأخلاقية التي تحكم السلوك عادة داخل المجتمع الواحد المتجانس. ومن هنا نشأ موقف كانت الثغرات فيه متاحة للظهور في كلا الجانبين، كلما جرت محاولة لبحث وحوار الوجود اليهودي في الغرب.

إذا كان ثمة رسالة هامة أخرى لهذا الكتاب، فهي: إن المسؤولية الكاملة لما يسميه سبينغلر «**انحطاط الغرب وتدهوره**»، يجب أن تقع برمتها على أكتاف أهل الغرب وشعوبه، وليس على اليهود، لأن أهل الغرب هم بالذات الذين أوجدوا مناخات اجتماعية وسياسية مريضة أخلاقياً، جعلتهم عرضة لنفوذ الضعف الذي ما زال بإمكانهم حتى الآن مقاومته بمنتهى السهولة. بعبارة أخرى، إن الهيمنة اليهودية الحديثة ليست سبب التفسخ الغربي، بقدر ما هي إحدى الظواهر المرضية التي نتجت عنه.

ملاحظة: معظم فصول هذا الكتاب صدرت ـ كلياً أو جزئياً ـ في نشرة «**ماوراء الأخبار**»، ولم تجر أية محاولة لحذف أي من العبارات أو الأفكار المكررة في هذه الفصول التي هدف الكاتب إلى توضيحها والتأكيد عليها بمختلف السياقات. ولعل بالإمكان التحقق من صحة وصلاحية التحليلات والتفسيرات المقدمة، بمقارنتها مع ما يجري حالياً من أحداث ترسمها الأخبار.

إيفور بنسون



الفصل ١

شكسبير وقانون الإنصاف والعدل

ارتكاب الآثام وإدانتها هي شعائر متميزة،
لكنها تخالف الطبائع.

وليام شكسبير

إننا ونحن نتصدى لمعالجة موضوع أصبح في عصرنا محرَّماً، مثل أكبر الكبائر في المجتمعات البدائية، نجد ما يشد أزرنا عند شكسبير، في معالجته للموضوع ذاته، بمسرحيته الرائعة العظيمة «**تاجر البندقية**».

شكسبير لم يحاول أن يعقلن ويحلل ويفسر العلاقات بين اليهودي وغير اليهودي، لكنه قدم لنا بدلاً من ذلك ـ على شكل توجيه خفي عميق وذكي ـ نموذجاً مؤثراً وكاملاً ودقيقاً لما كان، وما زال حتى اليوم، يعتبر عند معظم الناس جزءاً من الحقيقة المربكة والواقع المحير.

الفرق بين ما يحدث في واقع الحياة وما يحدث على خشبة مسرح شكسبير يمكن توضيحه بمنتهى السهولة. فالعلاقات بين اليهودي وغير اليهودي، في الحياة الواقعية، معقدة إلى أبعد الحدود، يحكمها في نظر المفكر المتأمل عدد لا يحصى من الجوانب المتناقضة والغامضة. أما في المسرحية، فالعداء بين اليهودي وغير اليهودي مفهوم وواضح بشكل جلي. في الحياة الواقعية تصبح قراءة الصورة أصعب، حين يبحث اليهود وغير اليهود عن منافعهم عبر علاقات متنوعة العمق والقوة، ضمن ظروف ومناخات متغيرة لا حصر لها ولا حدود.

مسرحية شكسبير تجريد نظري للمواقف والدوافع الثابتة، وللمؤثرات في العلاقات المريضة المضطربة بين اليهودي وغير اليهودي، جرى تقديمها بإيجاز بسيط لم يدع مجالاً لأي تعليق لاحق، بشكل يطابق حقيقة الحياة اليوم، كما طابقها في زمن كتابة المسرحية.

قال و. مويلوين ميرشانت في أول مقطع من مقدمته الدراسية لطبعة نيوبنغوان[1] «**إن كل لمحة في هذه المسرحية الغريبة المعقدة تتعارض بشكل حاد مع أبسط مسلّماتنا وأعمق بديهياتنا. ومن الواضح أن مسرحية «تاجر البندقية» قد شغلها أمران يهمان العصر الإليزابيثي هما: اليهود والربا»**.

من هنا، لم يدهشنا كثيراً أن نرى النفوذ اليهودي يبذل وسعه في قرننا هذا لمنع تقديم هذه المسرحية وعرضها في المسرح أو في السينما، مما له صلة وثيقة وقوية بالوضع السائد اليوم. ما زال ثمة توتر عميق عريض يحكم العلاقات بين اليهودي وغير اليهودي، بعيداً عن الروابط القوية التي تجمع الجانبين في المجال التجاري، إضافة إلى قلق أكبر من ذي قبل وإلى اللهفة إلى التوظيفات المالية في نظام يعتبر المال أكثر من مجرد سلعة، ويعتبره أداة سياسية وليس مجرد وسيلة للتبادل.

لاشك أبداً في أن شكسبير قرأ كثيراً وفكر أكثر بالعلاقات المضطربة بين اليهودي وغير اليهودي، قبل فترة طويلة من تقديم مسرحيته لمركز التسجيل في عام 1598، وإثارة الجدل الحاد حول موضوعها في كل أنحاء العالم الغربي.

يقدم لنا رافاييل هولينشيد في «**تاريخ إنكلترا**»، أحد المصادر التي استقى منها شكسبير الكثير من مسرحياته الإنكليزية التاريخية، بعض الأدلة الواقعية عن نفوذ اليهود وسلطتهم وأنشطتهم في بريطانيا. فنقرأ مثلاً وصف هولينشيد لمشاهد تتويج الملك ريتشارد الأول:

«في ذلك اليوم، وفي حفل تتويج الملك ريتشارد، حضر ممثلو اليهود من سكان لندن وأقسام المملكة الأخرى، لكن سوء المصادفة والاتفاق لازمهم بينما هم في طريقهم لتشريف حفل التتويج بحضورهم، ولتقديم الهدايا الجليلة للملك... لكن الملك ريتشارد المتحمس لدين المسيح، والمبغض للشعب اليهودي، والمرتاب بأنهم يمارسون السحر والشعوذة، أمر بأنهم لا يجوز أن يدخلوا الكنيسة أثناء تتويجه، ولا أن يدخلوا القصر أثناء تناوله طعام الغداء».

---

[1] «تاجر البندقية» لويليام شكسبير، مع مقدمة بقلم و. مويلوين ميرشانت، بنغوان 1977.

موقف الملك هذا في «**مقت**» الشعب اليهودي، عبَّر عنه بشكل أكبر وأوضح عامة الناس في لندن إبان تتويج ريتشارد، فكانت النتيجة سلسلة من أعمال الشغب وصفها هولينشيد قائلاً:

«تم إعلام الملك بهذا الشغب الذي قام به الشعب الهائج الساخط... وأحيط علماً بأولئك القساة الذين هم على وشك تخريب ونهب وسلب بيوت اليهود ونكاكينهم... هذا الغضب العارم المؤسف من قبل الخارجين على النظام استمر من ظهر أحد الأيام إلى ما بعد ظهر اليوم التالي، قام العوام خلال ذلك بكل شيء، إلا بوقف غضبهم على ذلك الشعب، فراحوا يقتلونهم حيث وجدوهم، بوحشية مجنونة مخيفة مستمرة»

يقول هولينشيد إن الملك أسرع بوضع حد للشغب، لكنه لم يحاول أبداً تطويق المعتدين ومعاقبتهم، باعتبار أن رعاياه يكرهون اليهود بسبب «**وقاحتهم العنيدة**»، وهكذا «**استتب السلم بعد ما تكبده اليهود من أضرار وخسائر**».

ولا ريب أيضاً في أن شكسبير قرأ كتاب السير توماس ويلسون «**مقالة بحثية في موضوع الربا**»، الذي ظل على مدى قرون المرجع الأغنى لكل نقد طاعن يحتقر المسألة اليهودية والربا اليهودي. ولا ريب أيضاً في أنه قرأ أعمق تعليقات فرانسيس بيكون حول ذات الموضوع.

لكن شكسبير ــ على خلاف بيكون وآخرين ــ لم يجرّنا إلى الاستغراق في أعماق المسألة اليهودية وممارساتهم التجارية، بل قدّم لنا بدلاً من ذلك تحفة أدبية تضع أمامنا العلاقات بين اليهودي وغير اليهودي في مثال واقعي حي. وبدلاً من أن يتصدى لمهمة مستحيلة في شرح تلك العلاقة، زوّدنا «**بلوحة مرسومة بالكلمات تساعدنا على فهم واستشفاف المسألة**»، كوسيلة إيضاح مساعدة لمن يتمتعون فعلاً ببصيرة نفاذة، ولديهم الرغبة في اكتشاف الحقيقة. لقد قام شكسبير برسم الصورة وتقديمها من وجهة نظر جماعته، ومن زاوية معتقدات ومصالح جماعته، ومن هنا صفق له المشاهدون من غير اليهود، وهم يرون شايلوك يتوجه نحو أنطونيو حاملاً بيده سكيناً حادة، وبيده الأخرى ميزاناً:[1]

---

[1] يقول نورمان مارشال في كتابه «شكسبير في العالم الخارجي» ــ هودر وستراوتون، لندن 1954 ــ : أشك بوجود بلد آخر مثل الهند تعاطف فيه النظارة مع مسرحية تاجر البندقية بروح اليزابيثية، والسبب هو أن المرابين يتحكمون بالحياة في الهند... ولهذا فهم

(بورشيا): تمهّل قليلاً.. هناك أمر آخر..
فهذا الشرط في العقد لا يعطيك الحق في ذرة دم واحدة..
والكلمات تنص بكل وضوح على «رطل من اللحم»..
خذ إذن رطلك من اللحم..
ولكن، إذا أرقت أثناء القطع
قطرة واحدة من الدم المسيحي فإن أراضيك وبضائعك
ستدخل بحكم قانون البندقية مع المصادرات
لصالح دولة البندقية..

ورغم أن مصالح المجتمع غير اليهودي هي التي ترسم اللوحة وتسود في النهاية، إلا أن شكسبير وصل إلى مقولة وضعها على لسان بورشيا: «**ارتكاب الآثام وإدانتها هي شعائر متميزة لكنها تخالف الطبائع**». هناك آثام وأخطاء متبادلة في المسرحية، لم يكن شكسبير مرتكبها أبداً. على العكس، فقد وضع شكسبير نفسه بشكل متعاطف في موضع شايلوك، واستطاع أن يبرز بدقة خارقة صدق عبارة اليهودي في المسألة من وجهة نظره:

(شايلوك): لقد وبختني في ريالتو بالبندقية
على أموالي وأعمالي الربوية..
واحتملت ذلك بصبر ولا مبالاة
لأن المعاناة والألم هما الشارة المميزة لكل أبناء قبيلتنا.
أنت تصفني بالملحد، وتسميني كلباً أقطع الحناجر
وتبصق على معطفي اليهودي الطويل الذيل
ومع هذا كله تريد أن تستفيد مما أملك
....
لقد ركلتني بازدراء يوماً، وفي مرات أخرى..
ووصفتني بالكلب. ألمثل هذه المجاملات الأدبية
تريدني أن أقرضك هذه الأموال؟

لا يتعاطفون مع شايلوك. وفي كل مرة عرضت فيها المسرحية ارتفع تصفيق الاستحسان كالرعد في مشهد المحاكمة حين يتقدم شايلوك نحو أنطونيو شاهراً سكينه ومطالباً برطل من اللحم، وإذا ببورشيا تستوقفه...».

إن أنطونيو يدرك بوضوح الخليج الأخلاقي دون جسور الذي يفصله عن اليهود، فيرد على خطبة شايلوك البليغة قائلاً:

(أنطونيو): أكاد أميل إلى وصفك بذلك ثانية..

وإلى البصاق عليك مرة أخرى، وإلى ركلك أيضاً.

إذا أردت استثمار أموالك..

فلا تقرضها لأصدقائك. هل يأخذ الصديق

ربحاً ربوياً من صديقه باسم الصداقة ؟

كان على أنطونيو أيضاً ألا يأخذه الوهم بالنوايا الكامنة خلف ما اشترطه شايلوك فيما بعد، أن يحصل على رطل لحم في حال عدم السداد، وألا يعتبر ذلك روحاً رياضية وبادرة طيبة من شايلوك.

لقد سمح شكسبير لشايلوك بأن يعبِّر عما في نفسه بلغة كانت مصدر إلهام بلاغي فصيح في المسرح الإنكليزي على مدى قرون، حين سأله ساليريو عن الفائدة من إصراره على الحصول على رطل من لحم التاجر المستسلم أمامه الآن، فأجابه اليهودي بجدية حاسمة:

(شايلوك): إنه طعم لصيد السمكة.. إن لم يشبع شيئاً عندي فإنه سيشبع رغبتي بالانتقام. لقد أهانني أنطونيو وألحق بي الخزي، ومنعني من ربح نصف مليون، وسخر من خسائري ومن أرباحي.. وازدرى قومي، وأفسد صفقاتي، وأثار عليَّ أصدقائي، وألَّب علي أعدائي.. وكان دافعه إلى ذلك..

هو أنني يهودي !! أليس لليهودي عينين ؟ أليس لليهودي يدين، وأعضاء، وأبعاد، وأحاسيس، ورغبات؟

ألا يأكل من ذات الطعام الذي يأكل منه المسيحي؟ وتؤذيه ذات الأسلحة؟ وتصيبه ذات الأمراض؟ وتشفيه ذات الأدوية؟ ويخضع لحر الصيف وبرد الشتاء؟ ألا ينزف اليهودي إذا طعنته؟ ويضحك إذا دغدغته؟ ويموت إذا سقيته السم؟ ألا يحق له إن أخطأت بحقه أن ينتقم؟ لماذا إذا أخطأ اليهودي بحق المسيحي خضع للقصاص، بينما لا تحاسب القوانين المسيحية مسيحياً أخطأ بحق يهودي؟ إنني أدين النذالة في تعاليمكم، التي ستزيد قسوة وحدة.

لقد استطاع شكسبير أن يكتب مثل هذه الخطبة البليغة بفضل قدرته ــ كأديب فنان متميز القدرة والحساسية ــ على أن يضع نفسه في مكان اليهودي لتثور عنده ذات الأحاسيس التي كان هو نفسه سيشعر بها في هذا الموقف. بعبارة أخرى، كان شكسبير يفهم تماماً وبشكل متعاطف موقف اليهودي. فشايلوك عنده ليس مجرد مجرم عادي «**يسعى بشكل مباشر أو غير مباشر للقضاء على حياة أحد المواطنين**»، بل على العكس. فشايلوك في اعتدائه على حياة أنطونيو لم يشعر بأي شعور بالذنب، مثل كل جندي يستخدم العنف ضد أعداء أمته. ولقد عبَّر شايلوك عن موقفه هذا لأحد رفاقه اليهود، حين أعلمه بغرق سفن أنطونيو:

(شايلوك): انطلق يا توبال، واعثر لي على ضابط مسؤول وادفع له سلفاً أجرة أسبوعين..

فسوف أحصل على قلب أنطونيو إن تخلف عن السداد، إن بقاءه خارج البندقية سيمكنني من ممارسة التجارة كما أريد وأشتهي..

امض يا توبال، وسنلتقي عند كنيسنا..

قال فيكتور هوغو معلقاً على الدافع لدى شايلوك «**كان بدخوله إلى المعبد يضع حقده أمانة عند الكاهن الحافظ للإيمان، وبذلك يكتسي انتقامه شكلاً مقدساً، ويصبح تعطشه للدم المسيحي موشحاً بالقدسية**».

يخضع شكسبير في «**تاجر البندقية**» ويلتزم بفن الشعر الدراماتيكي بشكل دقيق يصل إلى حد الوسواس، والشجار ــ كما تصوره المسرحية ــ ليس شجاراً شخصياً وخصوصياً، بل هو عالمي وجوهري. إنه تصادم بين نظامين أخلاقيين مستقلين كل نظام منهما قائم بذاته، ولكل منهما فهمه الخاص بالخير والشر والصح والخطأ، ولكل منهما إحساسه العميق والحاد بالشرف الشخصي والكرامة.

حين يطلب باسانيو ــ المبذر الغارق في الدين لأنطونيو ــ قرضاً آخر يستعين به في طلب يد بورشيا الجميلة، لم يرد أي ذكر لأي التزام أو شرط يتم توقيعه وتوثيقه أمام الكاتب بالعدل:

(باسانيو): لا يخفى عليك يا أنطونيو..

إلى أي حد بددت ممتلكاتي وأضعفتها

ولم يعد لديّ من وسائل واهية

تحفظ ماء وجهي ومقامي

وتساعدني على الاستمرار

سوى النحيب والأنين

*(**أنطونيو**): أتوسل إليك يا باسانيو الطيب أن تشرح لي*

وإذا كان الحال مازال صامداً ــ كما أنت صامد الآن ــ

من وجهة نظر الشرف والكرامة.. فتأكد

من أن كيس نقودي، وشخصي، وكل ممتلكاتي

مفتوحة أمام ظرفك ومحنتك.

هناك ثقة تامة متبادلة أيضاً بين شايلوك وأبناء قومه. فاليهودي ليس لديه الدوكات الذهبية الثلاثة آلاف المطلوبة، لكنه..:

*(**شايلوك**): وماذا في ذلك ؟*

إن ثروة قبيلتي العبرية يا توبال

سوف تمولني وتغنيني..

هذا الوضع بين اليهود مازال قائماً حتى يومنا هذا، إلى درجة ليس لدى المجتمعات الأخرى ما يعادلها. فاليهود في كل بلدان الغرب ــ رغم تميزهم كمحامين أو حتى كقضاة ــ نادراً ما يلجأون إلى محاكم غير اليهود لحل خلافاتهم الخاصة، والذي يحصل عموماً هو أن الخلافات تعالج وتسوّى بالتحكيم بعيداً عن العيون والأضواء أياً كانت، وغالباً لا يخطر على بال اليهودي أن يظهر كمدّعٍ ضد يهودي آخر في محكمة جنائية.

إن أحد أهم الدروس التي يمكن استحصالها من المسرحية بسرعة وسهولة، قبل أن نستوعب معالجة شكسبير للفكرة الرئيسية عن حقيقة العلاقات بين اليهود وغير اليهود، هو أنه لم تكن هناك أية كراهية لليهود في أي بلد من بلدان الغرب قائمة على أساس عرقي صرف. كانت الممارسات والسلوكيات والمواقف هي التي تميز اليهود عن باقي السكان، وهي التي «**مقتها**» الملك ريتشارد، ودفعت رعاع الشارع المغمورين في لندن للقيام بأعمال عنف مسعور، وإلا فكيف أمكن لشكسبير أن يزاوج ويجمع بين جيسيكا ابنة شايلوك المكروه ولورنزو صديق أنطونيو الحميم؟ جيسيكا وحدها هي التي أطلق عليها اسم «**الملحدة**» في المسرحية، وناجاها لونسيلوت خادم شايلوك

المسيحي والدموع في عينيه ووصفها بأنها «**أجمل الوثنيات وأجمل اليهوديات على الإطلاق**».

لم يثبت أحد في أي مكان أن رواد المقاعد الخلفية الرخيصة في صالة مسرح لندن كانوا من الذين نهبوا مدينة اليهود أو ساعدوا على نهبها، أو كانوا يقابلون هذه العبارات بصيحات الاستهجان والاستنكار. على العكس تماماً، فقد كانت جيسيكا تقابل من المشاهدين كشخصية محبوبة من شخصيات المسرحية. ثم فيما بعد بالمسرحية تعهد بورشيا لابنة اليهودي وزوجها لورنزو بالإدارة والإشراف على نفقات قصرها في بيلمونت:

(بورشيا مخاطبة لورنزو): فليعلم الناس ما في ذهني

إنني أعهد إليك وإلى جيسكا بذلك

بالنيابة عن اللورد باسانيو وبالأصالة عن نفسي

يبدو أن إجبار شايلوك على اعتناق المسيحية كشرط لتخفيف الحكم الصادر بحقه من قبل الدوق كان قاسياً، إلا أنه يشير بكل وضوح إلى رغبة مجتمع البندقية المسيحي بأن يعتبر شايلوك التائب النادم واحداً من أفراده.

إن دراسة شكسبير النفاذة المتعمقة للعلاقات بين اليهود وغير اليهود هي في ذات الوقت دراسة للمرجعيات والعمليات والآثار القانونية بشكل عام، وبخاصة، علاقات القانون العام بالعدل والإنصاف. لم يعرف عن الشاعر أنه اطلع على كتاب لتدريس العلمانية وأنه مارس القضاء واكتسب خبرة فيه، لكن أجيال الباحثين المتعاقبة عبروا عن دهشتهم من عمق فهمه للعمليات القانونية، الذي نتج بالتأكيد عن فهمه الهائل الرائع للطبيعة الإنسانية.

البنية القانونية في مسرحية تاجر البندقية مضللة وخادعة، حسبما أشار مويلوين ميرشانت، إذ ليس هناك نظام قانوني قضائي يسمح لرجل بأن يعرض حياته للخطر ضمن شرط من شروط عقد مبرم. بكلمات أخرى، إن الإطار العام القانوني لهذه الدراما المسرحية ليس أكثر من اكسسوارات على الخشبة، ومناظر مرسومة بالألوان. الحقيقة العميقة الوحيدة هي «**شرح شكسبير المحكم المتقن للعلاقة بين القانون المطبق والإنصاف في تعامل الإنسان مع الإنسان**».

يكتب مويلوين ميرشانت، أحد المراجع المفوضة بأمور القانون في الأدب:

> *مع أنه في مواضع عدة، من تاجر البندقية وهاملت والملك لير وحكاية الشتاء، أشار بفقرات ناضجة مدروسة إلى مسألة القانون، إلا أنه يركز في مشهد المحاكمة هنا على الجوانب القانونية أكثر من أي مسرحي أو شاعر آخر نجح في جمعها بعمل واحد. والواقع الملفت للنظر، أن هذه المسرحية القديمة نسبياً حملت كثيراً من الملامح المستقبلية لعدد من المسائل القانونية المعقدة التي سادت فيما بعد المسرحيات الأكثر نضجاً، كالعوامل الشخصية لمسألة قانونية محايدة في «**معيار القياس**» والصراع بين نظامين فكريين والانتقام والصدفة ضمن القانون في «**هاملت**» وانغماس النظام الطبيعي العام في العملية القانونية في «**الملك لير**».*

إن العلاقة بين القانون العام مع الإنصاف والعدل هي محط التساؤل، أكثر من أي جانب آخر من جوانب القانون، في نقد مويلوين لتاجر البندقية. فيكتب في حاشية مقدمته: «**الإنصاف غامض والعدل ملتبس تماما، إنه في شكله العام نوع من «الندِّية في التعامل» بين البشر والأمم المحكومين بمبادئ قانون عام مكتوب في قلوبهم**».

لقد أدركوا في إنكلترا بوقت مبكر أن الضرر البالغ قد يقع تحت عنوان القانون العام، وأن الأذى قد يلحق بالمجتمع المدني وبالوحدة الوطنية. فنحن نقرأ في موسوعة تشامبرز «**حين لا يجد المظلومون المضطهدون وسيلة لاسترداد حقوقهم في محاكم القانون، فإنهم يتقدمون باسترحامات للملك ومجلسه للتعويض عليهم، فيحيلها المجلس إلى قاضي القضاة ـ حامي حمى الضمير الملكي ـ للتحقيق**».

ونتيجة لهذا الإجراء المبدئي تعقد «**محكمة عادلة**» في مكتب قاضي القضاة، تحولت بمضي الوقت إلى محكمة استئناف راح يقل أكثر فأكثر اعتمادها على المؤثرات الميتافيزيقية مثل «**الضمير الملكي**»، ويتزايد اعتمادها على الأحكام المماثلة السابقة كما هو الحال في محاكم القانون العام.

يعالج شكسبير هذه الفكرة بشكل ثانوي في الفصل الأول، حيث يتبادل المقرض والمقترض بعض العبارات حول مسألة الربا، التي تتم معالجتها بشكل رئيسي في مشهد المحاكمة بالفصل الرابع:

*(**شايلوك**):... دعني أرى.*

فكأنني سمعتك تقول إنك لا تقرض ولا تقترض

مقابل ربح أو منفعة.

*(**أنطونيو**): أنا لا أفعل ذلك أبداً*

*(**شايلوك**): حين قام يعقوب برعي خراف عمه لابان*

كان يعقوب هذا من نسل إبراهيمنا المقدس

وكان بفضل أمه الحكيمة الولد الثالث..

الوريث الثالث.. أجل.. كان الثالث

*(**أنطونيو**): وماذا فعل؟ هل تقاضى فائدة ؟*

*(**شايلوك**): كلا، لم يأخذ فائدة،*

لم تكن فائدة مباشرة كما قد تسميها..

لاحظ ما فعله يعقوب:

حين تساوم مع لابان، تم الاتفاق

على أن تكون الحملان الوليدة المرقطة المتعددة الألوان

من نصيب يعقوب..

وفي نهاية الخريف، حين حل فصل التزاوج،

والتمست النعاج ذكورها، خطر لراعيها الماهر الخبير

أن يقتطع قضباناً من أغصان بعد تعريتها من لحائها

ويضعها أمام النعاج الوحمى التي حبلت بعد التزاوج

فكانت النتيجة أن النعاج ولدت حملاناً مخططة

جاءت من نصيب يعقوب.

تلك كانت وسيلة كسب بورك فيها له

لأن كل وسائل الكسب عدا السرقة مباركة.

نحن مع هذا النص أمام مثال ممتاز لقانون عام لا يدعم العدل والإنصاف، وأمام ممارسة عدوانية ماكرة ذكية من يعقوب تجاه عمه لابان، وأمام أذى مقصود موجَّه لانتهاك القانون الأخلاقي قبل القانون العام. بعبارة

أدق، إن احتمال تكرر حدوث هذا النوع من المفاسد الآثمة يفسر نشوء القانون الأخلاقي كمفهوم، والقضاء كممارسة، عند جميع الأمم المتحضرة.

فالتشريع دون عدل وإنصاف يتجلى بوضوح في شكل حرب، يتم فيها بكل مكر حاذق استبدال العنف المعنوي بالعنف المادي دون التعرض لخطر الوقوع تحت طائلة القانون العام.

إن الفكرة الرئيسية للأذى المقصود والاثم المتعمد، تحت ستار القانون العام المتعارض مع قانون العدل والإنصاف، تبلغ ذروتها في مشهد المحاكمة المشهور في الفصل الرابع من المسرحية، حين يقول شايلوك ملتمساً «**العدالة**» من الدوق:

*(**شايلوك**): .. لقد شرحت لسموكم قصدي وغايتي..*
وأقسمت بسبتنا المقدس
على استيفاء الدين وعلى تنفيذ شرطي في العقد
وإذا أنكرتم عليَّ ذلك
فلتشتعل أضواء الخطر فوق رؤوس حكمكم..
إيذاناً بالإطاحة بالحرية في مدينتكم..

هذا نموذج صغير من إحدى خطب شايلوك المطولة البليغة في المسرحية، بعد أن عرض عليه ضعف المبلغ الذي اقترضه منه أنطونيو، لكنه رفض قائلاً:

*(**شايلوك**): لو أن كل دوقية من هذه الدوقيات الثلاثة آلاف*
تم تقسيمها إلى ستة أقسام..
وكل قسم منها يمثل دوقية بذاتها.. لما قبلت بها
ولما رضيت إلا بإنفاذ الشرط في العقد

أما بورشيا، التي دعاها الدوق للنظر في دعوى شايلوك ودراستها وإصدار حكم بشأنها يتوافق مع القانون، فقد تقدمت تلتمس العدل والإنصاف بعبارات من أكثر الخطب إثارة وتحريكاً في الدراما الإنكليزية:

*(**بورشيا**): الروعة السامية للرحمة ألا تأتي مفروضة بالإكراه..*
بل أن تنهمل كالغيث الرقيق من السماء
فوق الأرض في الأسفل.. تحمل البركة ضعفين..

ضعف لمن أعطاها وضعف لمن أخذها..
الرحمة من صفات الله ذاته..
فالتشابه بين السلطة الدنيوية والسلطة الإلهية
لا يتجلى إلا حين يتوشح العدل بثوب الرحمة.
ولهذا، ضع باعتبارك أيها اليهودي
وأنت تلتمس العدالة وتطالب بها
أننا جميعاً لن نجد الخلاص في تطبيقها
وأننا نصلي وندعو راجين الرحمة
فهذا الدعاء والرجاء ذاته يعلّمنا جميعاً
أن نحكم بما تمليه الرحمة
وأنا أقول هذا لتلطيف معنى العدل الذي تطالب به
والذي إن أصررت على تطبيقه..
فلن تجد محكمة البندقية الموقرة هذه أمامها
إلا أن تحكم بموجبه على هذا التاجر.

لكن علينا أن نتذكر أن «**الرحمة**»، التي هي جوهر ما تطالب به بورشيا وتسعى إليه، هي مجرد جانب واحد من جوانب العدل والإنصاف بمعناه الواسع كقانون منقوش في القلوب وبمعناه الضيق كأحكام عادلة قضائية في المحاكم العليا، بينما تتجلى جوانبه الأخرى بشكل ناقص مشوه في مصطلحات ومفاهيم مثل «**العدل**» و«**المعالجة الصادقة**» و«**النزاهة**» و«**الثقة**» و«**الولاء**» و«**الشرف**» وغيرها.

ففي الوقت الذي تتركز فيه خطبة شايلوك على الخطر الملازم دائماً بالضرورة، والناتج دائماً عن تعطيل العمل بالقانون، في قوله «**فلتشتعل أضواء الخطر فوق رؤوس حكمكم إيذاناً بالإطاحة بالحرية في مدينتكم**»، تذهب بروشيا في خطبتها إلى احتمال ألا يتحقق العدل الحقيقي إلا بأن تتوشح ممارسة السلطة بوشاح الرحمة. فالرحمة بهذا المعنى ليست مجرد تلطيف وتخفيف للقانون، بل هي تطبيق وممارسة لفهم حنون متعاطف يعزز سلطة القانون ويدعمها، ويخلص القانون من الثغرات والنقائص التي تلازم القوانين المكتوبة، ولا يمكن معها أخذ الظروف المختلفة بعين الاعتبار.

لكن خطبة بورشيا لم تترك أي انطباع من أي نوع لدى شايلوك، فضميره المرتاح، ومغالاته المتطرفة المكرسة لصالح جماعته، وقسوته الدينية الكهنوتية، كلها مذعنة لرفض قانون تدعو العدالة فيه إلى التأجيل. «**هل هناك إنسان يكره عدم القتل؟**»، إنما مرة أخرى «**كيف تحتفظ بأفعى لدغتك مرتين؟**».

إن ما أظهرته لنا مسرحية تاجر البندقية هو الميل الطبيعي الفطري إلى العدوان لدى شعبين، لكل منهما معاييره القانونية والأخلاقية التي لا يمكن أن يجمعها قانون مشترك، والسؤال الوحيد الذي لابد من الإجابة عنه هو أي الشعبين يجب أن يفوز وأيهما يجب أن يخسر.

وأياً ما كانت نوايا شكسبير ومقاصده، فقد لفتت المسرحية الانتباه إلى هشاشة وسهولة اختراق أهل الغرب ـ وهو ما تأكد بوضوح في يومنا هذا أكثر مما كان عليه يوم كتبت المسرحية ـ من قبل تشكيلة لا نهاية لها من ممارسات يهودية تقوم على منطلقات أخلاقية تتجسد في الوسيلة التي استخدمها يعقوب للاستيلاء على حصة أكبر مما يستحق من خراف لابان.

قصة يعقوب ولابان المأخوذة من سفر التكوين، الإصحاح 30 وما بعده، يمكن أن نضم إليها ما ورد في سفر التثنية الإصحاح 15 من إشارات إلى الربا تقول:

«إن لك وجوباً أن تقرض جميع الأمم والشعوب، إنما ليس لك أن تقترض منهم. ولك أن تحكم ما شئت من الأمم والشعوب، إنما ليس لك أن تتركهم يحكمونك».

كان شكسبير مطلعاً على هذه الإشارات وغيرها إلى الربا في سفر التثنية، إنما لم يكن بمقدوره عرضها وتقديمها دون أن يشوش التسلسل الدرامي في بناء مسرحيته. ولعل من المثير أن تتوازى سرقة جيسيكا أموال أبيها في المسرحية مع سرقة راشيل لتماثيل أبيها وأيقوناته المقدسة، قبل أن تغادر مع أختها ليا ويعقوب منزل لابان.

تحكى قصة سفر التكوين أيضاً عن أعمال شريرة ارتكبها عدو مزعوم بحق شخص نبيل مقدس:

«.. ثم كلمني ملاك الرب في المنام قائلاً: يا يعقوب. فقلت له: لبيك. قال: افتح عينيك الآن واجعل الأطواق كعلامات في رقاب الأكباش التي تنزو على القطيع، وضع الأغطية عليها، لأنني أرى ما يفعله بك لابان».

* * * *

يبقى ــ ليحقق هذا الفصل التمهيدي أهدافه ــ أن نبحث بإيجاز في سايكولوجية مفهوم العدل، وغيرها من مفاهيم لا تحصى، حتى يمكن فهمها واستيعابها. فمفهوم العدل والإنصاف ــ كغيره من جميع المفاهيم الأخرى ــ لم ينشأ أساساً كمفهوم، بل نشأ كشعور على شكل محرض غريزي، وصفه ك.ج. جانغ بأنه عنصر غير عقلاني مزروع في أعماق طبيعة الإنسان. أما المفاهيم الأخرى كـ«**الحب**» و «**الرحمة**» و «**الثقة**» و «**الإيثار**» و «**السمعة الحسنة**» و «**النبل**» فتتبع كلها من هذا الشعور ذاته، تلونها وتشكلها الظروف المحيطة.

يظهر شعور الاهتمام بالآخرين في أقوى صوره بين الإنسان وأليفه، وعند الآباء نحو أبنائهم، ثم يضعف كلما اتسعت الدوائر الاجتماعية للأسرة والأصدقاء في المجتمع. أما في الدوائر الأوسع لهذا الشعور على صعيد المصلحة العامة الواعية، كما هو الحال بين الشعوب، فالاهتمام بالآخرين مؤقت وسريع الزوال، ويقع بشكل كامل تحت رحمة الظروف المحيطة. إنما حتى في الحرب، حيث تقسم المصالح المتقاتلين إلى فريقين لكل منهما موقف مؤقت، يأخذ شعور الاهتمام بالآخرين شكل الفروسية النبيلة، فيتوقف المنتصر عن الإمعان في تدمير خصمه، مدفوعاً بلا وعي بإدراكه لرابطة القرابة التي تتجاوز كل حدود الظروف السائدة.

يرجع أصل شعور الاهتمام بالآخرين في معناه وممارسته إلى شعور آخر متضاد معه، يثير بطريقة مماثلة فيما يبدو سلسلة من المفاهيم المتباينة مثل «**الكره**» و «**العدوانية**» و «**الخطر**» و «**النفور الفطري**» و «**الغيرة**» و«**الشك**» و «**سوء الظن**» وغيرها.

هذان الشعوران غير منفصلين في الواقع، مثل قطبي السالب والموجب في الدارة الكهربائية، وقوة أحدهما متناسبة دائماً تقريباً مع قوة الآخر، وكما في

الحرب والأوضاع الخطيرة الأخرى، فإن الشعور بالخطر، الذي يثير شعور الاهتمام بالآخرين إلى أقصى درجاته، يأخذ الشكل البطولي للتضحية بالنفس، كنمط سلوكي نجده في المملكة الحيوانية بمختلف أشكالها.

يترافق شعور الاهتمام بالآخرين هذا، في كل أنحاء الطبيعة، مع وعي بالقرابة بمختلف درجاتها، ويترافق أيضاً عند الإنسان مع وعي بالمصلحة العامة يتجسد في أشكال لا تحصى، مثل الوعي المؤكد الدائم الناتج عن إدراك الخطر المشترك.

قياساً على أرضية هذه الأفكار، نستطيع أن نتبين بشكل أوضح الفرق الجوهري الذي يميز العلاقات بين اليهود وغير اليهود في الغرب. فاليهود ـ بما لديهم من نظام قرابة مستقل خاص بهم كأقلية متوزعة جغرافياً بأعداد قليلة في عالم غير اليهود ـ معرضون باستمرار للشعور بعدم الأمن والأمان، الذي يزداد حدة ليأخذ شكل الشعور الدائم بالخطر، وهذا ما يثير عندهم مشاعر **«الاهتمام بالآخرين» و «الخوف» و «كراهية الآخرين لهم»** بشكل شديد التركيز لا تجده عند الأقوام الأخرى، مما يؤثر فيهم على صعيدين، الأول زيادة التصاق وترابط بعضهم مع بعض في مناخ عاطفي من التعاضد المتبادل، والثاني شحذ عدوانيتهم تجاه جميع من هم خارج نظام القرابة لديهم، والذين يمثل توحدهم بالنسبة لليهود أكبر خطر ممكن.

لقد أتاحت المجتمعات الغربية لليهود مناخاً مثالياً يحققون فيه المنافع السرية المستمدة من المعيار المزدوج للعلاقة، تلك المنافع التي تجسدت في قرننا الحالي بالزيادة المذهلة في عمليات التبادل التجاري ودرجة تعقيدها، ضمن نمو اقتصادي مزدهر تخصص فيه اليهود دائماً. هذا التفضيل لعمليات التبادل التجاري بدلاً من الإنتاج لدى اليهود، لم يأت نتيجة الصدفة، أو مفروضاً عليهم من قبل أحد، بل كان دائماً لازمة ضرورية من لوازم الروح الانفصالية، باعتبار أن المشاركة المطلقة غير المحددة في جميع الأنشطة الاقتصادية ستجعل من المستحيل على اليهود أن يقاوموا ذوبانهم في المجتمع.

في هذا المناخ الاقتصادي الحر المفتوح للجميع، الذي يميل فيه الغربيون إلى التنافس في ممارسة أنشطتهم وفعالياتهم بعضهم مع بعض، نجد اليهود يندفعون لجني المكاسب من وقوفهم متعاونين في وجه مضيفيهم من سكان البلاد.

ثمة عنصر هام آخر كان يستهوي اليهود. هو نظام القيم الذي يميز الشعوب الغربية عن باقي دول العالم، والذي كان في الواقع سر ما يمكن تسميته «**عظمة الغرب**». وكان هناك تقليد عقلاني موروث يلازم الغرب كما يلازم السبب النتيجة، هو دفع الحرية الفردية إلى حدها الأقصى بما يتمشى مع تحرير القدرات والطاقات الإبداعية والالتزام، ويشوبه أحياناً «**بعض الظلم**» خلال التنافس في المجالات الثانوية الفرعية، إلا أنه لا يعتبر ثمناً باهظاً مقابل المنافع المشتركة.

يعلن البروفيسور نورمان كوهن مصيباً أن معاداة السامية ظاهرة غربية حصراً، فيقول:

«على مدى ألفي عام تقريباً، تواجدت المستوطنات اليهودية في الهند والصين، دون أن تلفت أي انتباه خاص إليها. وما زال الحرفيون المهرة والفلاحون اليهود في الهند يعتبرون ببساطة حتى يومنا هذا مجموعة من مجموعات دينية لا تحصى في شبه القارة الهندية، ليس فيها إطلاقاً ما يزعج».[1]

التفسير الوحيد الذي وجده البروفيسور كوهن هو أن الناس في الغرب مصابون على مدى القرون بنوع من الجنون أطلق عليه اسم «**فصام الشخصية الارتيابي**»، بينما كانت لدى الشعوب الأخرى حصانة من هذا الجنون على الأرجح.

لكن ثمة تفسيراً آخر أبسط: هو أنه لم تكن لدى هذه الشعوب الأخرى أجواء للمنافسة الحرة المفتوحة، ولا مجالات اقتصادية ضخمة تستطيع جذور الربا السامة أن تستقر فيها، وأن تمد مجساتها دون قيود.

إن من الصعب أن نتمكن من تلخيص هذا الفصل التمهيدي دون أن نمر على واحد من أشهر حكماء اليهود وأجدرهم بالاحترام، هو آشر غينزبورغ المعروف باسمه الأدبي أحد هاعام، الذي كتب عنه المؤرخ اليهودي ريتشارد ج.هـ.غوتهيل في كتابه «**الصهيونية**» قائلاً:

---

[1] «الدليل القاطع على الإبادة الجماعية» بقلم نورمان كوهن (هاربر أند رو، نيويورك، 1967).

أحد هاعام طالب فلسفة، في معارفه وأحاسيسه التاريخية عمق فلسفي لا نجده مطلقاً عند أسلافه، إضافة إلى تعاطف كامل مع الشعب الذي يبحث عن علاج لعلله وحلّ لمحنه، عبر دراسته لأسباب هذه العلل والمحن. لقد أحس بروحه بكل ما يعانيه شعبه، ومع ذلك ظل حيادياً غير متحيز في دراساته لعلله ومحنه، مع جدية صارمة تلوّن فطنته الصائبة، كما تلون الأحاسيس شخصيته. («**الصهيونية» تأليف ريتشارد غوتهيل، الجمعية اليهودية للنشر في أمريكا، 1914**).

جاء تفسير أحد هاعام للمحن التي عاناها اليهود ولإشكالات العلاقات مع غير اليهود عبر القرون مختلفاً تماماً عن التفسير الذي يشكل الفكرة الأساسية الخلفية لهذا الكتاب. وإليك المقطع الافتتاحي من كتاب أحد هاعام «**أسلوب الحياة**» الذي تم التركيز فيه على الحاجات والمتطلبات الروحية لدى الإنسان، المتعارضة مع الحاجات المادية والسياسية:

«إن تقلب إسرائيل في أنحاء الشتات، وخصوصاً في أيامنا الأخيرة هذه، يظهر بشكل واضح أننا كيهود لا يمكن لنا أن نأمل بالعيش كأمة مستقلة منفصلة بين أمم وشعوب غريبة، نشارك معهم في جميع الأنشطة، ونحافظ في الوقت ذاته على نقاء دمنا وأنسابنا في أوطاننا المؤقتة، ونظل أمة مختارة مخصوصة متميزة الشخصية... لقد شوهت المآسي حياتنا، وشوهت الظروف روحنا القومية، فأصبحنا حقيرين جديرين بالازدراء في عيون من حولنا من أمم كانت حقيرة في عيوننا...

لم يستطع آشر غينزبورغ (أحد هاعام) أن يرى أي مستقبل لليهود كأمة، إلا «**كنماذج صالحة ذات خلق**» لهم دور يمكن أداؤه في «**منزل خاص بهم فقط**»، المقصود به طبعاً فلسطين.

إلا أن معظم يهود اليوم يدركون أن فلسطين لا تتوفر فيها مواصفات وإمكانات وطن مستقبلي. إضافة إلى ذلك، فالقليل من اليهود المعاصرين ــ كما يبين آرثر كويستلر وآخرون ــ تربطهم علاقة نسب مع بني إسرائيل الوارد ذكرهم في الكتاب المقدس.[1]

---

[1] «السبط الثالث عشر» بقلم آرثر كويستلر (ديفين ــ أداير) و «تناقض صهيون» بقلم دوغلاس ريد (مطبعة دولفين).

الفصل 2

الثـــــورة الـروســـــية

يمكن تلخيص الفرضية المطروحة في هذا الفصل كما يلي:

- يتفق المؤرخون في إنجازاتهم بالإجماع على أن القرن العشرين ـ كعصر نزاعات لا سابق لها في التاريخ المكتوب ـ يجب رؤيته بعين تاريخية شمولية وإجمالية. بمعنى أن جميع الأحداث مرتبط بعضها مع بعض، وأن القرن العشرين نتيجة مجموعة واحدة من المؤثرات والقوى[1].
- لرؤية عصر النزاعات هذا، يجب نشر مطويات ما حدث في روسيا خلال حقبة الثورة، من هياج ودمار ماركسي ـ لينيني امتد إلى كل أنحاء العالم.
- مثلما تلخص الثورة الروسية صورة عصر النزاعات الذي تلاها، كذلك تلخص مأساة اغتيال الأسرة القيصرية صورة حقبة الثورة. بمعنى أن جميع القوى والدوافع والمؤثرات كانت موجودة.
- كانت القومية اليهودية الروسية ـ مدعومة بيهود خارج روسيا وخصوصاً بيهود الولايات المتحدة ـ العنصر الرئيسي في قلب عاصفة الأحداث بروسيا عام 1917.
- جاء بروز البلشفية في روسيا والصهيونية في أقطار الغرب في وقت معاً، كقوى تاريخية هامة، في نفس الأسبوع من شهر أيلول، ثم عملا جنباً إلى جنب بعد ذلك في تلاحم منسجم.

ما الذي نعرفه إذن عن الثورة الروسية، وما الذي يمكن أن نعرفه عنها؟. إن معظم الناس في الغرب ما زالوا لا يعرفون بالضبط ما حصل، ليس بسبب عدم توفر المعلومات المتاحة، بل لأن أصحاب المناصب والنفوذ كانت

---

[1] «عصر النزاعات» تأليف ف.ب. شامبرز، ك.ب. هاريس، ك.ج. بايلي، (هاركورت برايس وشركاه).

لهم مصلحة في كتم الحقائق وتثبيط الهمم إلى حد تحريم الحوار في هذا الموضوع.

لقد حقق تأمل موضوع الثورة الروسية ومراجعته تقدماً واسعاً في الاتحاد السوفييتي، وخصوصاً في روسيا، أكثر من أي مكان آخر في العالم. فقد شغل الموضوع بشكل أكبر أذهان الناس في تلك الإمبراطورية الشاسعة، لأنهم عانوا كثيراً وما زال الموضوع يثير شجونهم، ولأنهم لم يعودوا يستطيعون الاستمرار في الامتناع، في ظل حكم ماركسي ـ اشتراكي متفسخ، عن قول وكتابة ما يفكرون به.

في عالم يطلق عليه اسم «**العالم الحر**» هناك رقابة دقيقة صارمة ما زالت مفروضة. فقد ألغت جامعة أوكسفورد البريطانية في نيسان من عام 1985 حفلاً تكريمياً لمنح رتبة فخرية لعالم الرياضيات السوفييتي إيقور شافارفيتش، بعد أن ذاع أنه عبَّر علناً عن وجهات نظر ما زالت غير مقبولة في الدوائر الأكاديمية. أما في الولايات المتحدة فقد ثارت الاحتجاجات الصاخبة حين انكشف أن جماعة من المحررين والكتّاب السوفييت المدعوين رسمياً لزيارة البلاد من بينهم ثلاثة نشروا رسالة بتوقيعهم ـ مع سبعين آخرين من المفكرين ـ عن الثورة الروسية في جريدة «**الآداب الروسية**».

ثمة ظاهرة أخرى في الأوقات الحالية الحاضرة يجب البحث في الماضي عن تفسير لها، هي الهجرة الجماعية اليهودية من الاتحاد السوفييتي، خلافاً لما حصل خلال حقبة الثورة حين كان اليهود يتدفقون إلى روسيا كالسيل من كل أنحاء العالم.

قال أحد العناوين البارزة في جريدة الفاينانشيال تايمز اللندنية: «**معاداة السامية تجبر بالقوة على أكبر هجرة جماعية خلال 500 سنة**». وطبقاً لما قاله ناثان شارانسكي، أكبر المعارضين علناً في الاتحاد السوفييتي، فإن العائلات اليهودية تقدمت بطلبات للحصول على موافقات بالمغادرة بواقع مئتي طلب يومياً، في طابور لطالبي الهجرة يصل طوله إلى مليون إنسان، وهناك من قدَّر عددهم بين مليونين إلى أربعة ملايين، ويعلق شارانسكي قائلاً:

«هذا أمر يختلف تماماً عن الماضي، وارتفاع معدل معاداة السامية فيه.
إنها المرة الأولى التي يدرك فيها الشعب الروسي تاريخهم البغيض

المخيف، فلم يعد سولتز هينيتسين وحده الذي يقول إن عدد ضحايا دولة الإرهاب وصل إلى ستين مليوناً، بعد أن قدّر المؤرخون المحافظون السوفييت عددهم بأربعين مليوناً».

لقد أعجب قادة اليهود بما توصل إليه شارانسكي من إشكالات معاداة السامية الجديدة هذه، التي شاعت بين المفكرين والمثقفين، وأخذت شكل الحوار حول «**قضية المسؤولية اليهودية خلال سنين البلشفية**».

في تلك الأثناء، كان مسرح مالي بموسكو يصورّ صالات المسافرين المكتظة في مسرحية «**سأجزي المحسنين**» تأليف سيرغي كوزنيتسوف، التي تعيد رسم وتمثيل اللحظات الأخيرة للعائلة المالكة في مدينة إيكاترينبورغ (سفيردلوفسك) بشكل يثير المشاعر.

لكن الروس لم يكونوا بحاجة لانتظار المسرحية حتى يعرفوا ما حدث لملكهم السابق. فقبل شهور نشرت جريدة الصحافة السوفييتية عدداً من الأحداث المروّعة في مدينة إيكاترينبورغ، وصفت فيها كيف قام يانكيل يوروفسكي ــ رئيس الـــ ckeka المحلية ــ بإنهاء أنين تزاريفيتش الوريث الشرعي للتاج برصاصتين من مسدسه.

من هنا، كان منطقياً أن يشعر الكثير من يهود الاتحاد السوفييتي بالخطر. فقد أعلنت المراسلة السابقة لجريدة جويش كرونيكل اللندنية في موسكو وهي في طريقها إلى الولايات المتحدة لتستقر هناك، أن المساعدة الوحيدة التي يقبلها اليهود السوفييت شاكرين هي تمكينهم من مغادرة البلاد.

أما عن الهجرة الضخمة في الاتجاه المعاكس، فقد قال روبرت ويلتون، مراسل التايمز اللندنية في بيتروغراد:

«كل دفعة أتت على ظهر باخرة من أمريكا، أو إنكلترا، أو فرنسا، خلقت مشكلة. فالجميع يعتبرون أنفسهم أصحاب حصة بالغنائم، ويطالبون بأن يكون لهم مكان دسم ومرموق في لجان توزيع الأغذية والأراضي الزراعية وغيرها. كان جميع هؤلاء المهاجرين ــ عدا قلة قليلة منهم ــ من اليهود».[1]

---

[1] كتاب «روسيا في النزع الأخير» و كتاب «آخر أيام أسرة رومانوف» بقلم روبرت ويلتون من جريدة التايمز.

وأما كيف وأين ومتى جرى تحديداً وبدقة تحرك الثوريين المحترفين بقيادة لينين، فقد تم ذلك في فيينا بخريف عام 1915، حين التقت هيئات الأركان الألمانية والنمساوية للتخطيط لعملية تهدف إلى رمي روسيا بالضربة القاضية خارج حلبة الحرب كحليفة لبريطانيا وفرنسا. ولو قدّر للعملية أن تنفذ، فسيؤدي ليس إلى زيادة الضغط على الجبهة الغربية فقط، بل سيفتح بوابات الإمدادات الغذائية عبر أراضي أوكرانيا الشاسعة للألمان والنمساويين الذين تتهددهم المجاعة بسبب حصار الحلفاء. في هذا الاجتماع بالذات جرى وضع العناوين العريضة للمراحل الأخيرة من الثورة، وتم اختيار قادتها: لينين ويانكيل سفيردلوف وغيرهما من اليهود الناشطين المتمرسين، الذين هرب الكثير منهم من روسيا خلال العقد السابق خوفاً من الاعتقال على يد **«الأوخرانا»** شرطة القيصر السرية. لقد تم السماح لمئة من هؤلاء بالسفر للعودة إلى روسيا عبر النمسا وألمانيا في قطار مختوم بالشمع الأحمر وبالتسلل إلى بيتروغراد بعد بدء العمليات الثورية فعلاً. أما ليون تروتسكي ـ واسمه الحقيقي برونشتاين ـ فقد جاء على ظهر مركب من الولايات المتحدة يحمل شحنة من الثوريين المتخصصين.

كانت الحقائق المتوفرة عن حقبة الثورة أشبه بقطع أحجية ضخمة معقدة، لا تعني شيئاً قبل ترتيبها في أماكنها الصحيحة، مع فارق أساسي هام، هو أن هذه القطع يجب تجميعها وترتيبها في الذهن.

ولكن، إذا كان تجميع قطع الأحجية يتم لتشكيل لوحة لصورة واضحة، فإن رصف الحقائق بعضها مع بعض يجب أن يتم بشكل يعطي معنى للوقائع التي لن يكون لها معنى وهي منفصلة. إحدى هذه القطع في حقبة الثورة التي يجب دراستها بهذه الطريقة هي ماله علاقة باغتيال الأسرة المالكة، مع جميع آل رومانوف الذين وقعوا في أيدي البلاشفة.

إن لهذه الأحداث أهمية تاريخية قصوى لأسباب يمكن بيانها ببساطة. فهي المعول عليها في إضفاء دقة أكبر على ما حدث في تلك الحقبة، وفي تعريف هويات ودوافع المتورطين في أحداث تلك الحقبة بالذات من بين حقب الثورة الأخرى.

من هنا، يمكن وصف مأساة الاغتيالات بأنها صورة مصغرة عن الثورة البلشفية، وبأنها نموذج مصغر لعصر النزاعات في القرن العشرين التي شاركت ذات القوى والمؤثرات فيها.

بتاريخ 5 نيسان 1991، عرض مزاد سوثبي في لندن للبيع في المزاد العلني مستندات وصفتها الصحافة بأنها «**قنابل وثائقية متفجرة**»، وأطلق عليها اسم «**أرشيف سوكولوف**»، تتضمن الملف الكامل لتحقيق جرى بعد أن استعاد الأدميرال كولشاك من الجيش الأبيض الاستيلاء على مدينة إيكاترينبورغ وعلى المناطق المحيطة بها من سيبيريا الغربية.

نسخة من هذا الملف الكامل، بالإفادات والشهادات التي أدلى بها أصحابها تحت القسم، أعطيت لروبرت ويلتون مراسل التايمز اللندنية الذي حضر جميع مراحل التحقيق، واعتمدها أساساً لكتابه «**آخر أيام أسرة رومانوف**» الذي صدر في لندن عام 1920.

لدى استيلاء قوات الجيش الأبيض على مدينة إيكاترينبورغ، حاول قائدها الأدميرال كولشاك فوراً اكتشاف ما حدث للقيصر وأفراد أسرته الذين اعتقلوا كما هو معروف في تلك المدينة، وتم تكليف م.ستارينكفيتش بالمهمة، وهو محام موثوق كان قد نفاه النظام في موسكو. ولكن نظراً لتراخيه وعدم حماسه في دفع عملية التحقيق، فقد تم استبداله بأمر من الأدميرال كولشاك نفسه بنيكولاي سوكولوف، قاضي تحقيق شاب من مدينة بينتزا.

إن معظم التصانيف الكاملة عن اغتيال العائلة المالكة، وعن الحكم الإرهابي في المناطق الأخرى، مأخوذ من أرشيف سوكولوف، مثل الكتاب الذي نشره نيكولاي روس بمجلدين في ألمانيا عام 1987.

وهذا يعني أن فصلاً هاماً من التاريخ الروسي، بما في ذلك التفاصيل المعتمدة لجرائم القتل الفعلية، يقوم على شهادات أقسم عليها شهود عيان رئيسيون، إضافة إلى صور من رسائل هامة تم الحصول عليها من مكتب البريد من مدينة إيكاترينبورغ واستخلاصها من بين المنسيات هناك، وهي بلا ريب متداولة الآن في روسيا بين المفكرين المعادين للاشتراكية.

يكشف أرشيف سوكولوف أيضاً النقاب تماماً عن الإجراءات المحكمة الدقيقة التي اتخذها البلاشفة لإخفاء جريمتهم، بما في ذلك إحراق الجثث، وتذويب العظام المتبقية بالسولفوريك أسيد، وتفريغ نفاياتها في مناجم الحديد المهملة بأحراش ضواحي مدينة إيكاترينبورغ.

فإذا بقي بعد ذلك كله شك في المسؤولية النهائية عن الجرائم، تلاشى في ضوء برقية مشفرة موجهة إلى يانكيل سفردلوف، الرئيس المطلق للشرطة السرية «**تشيكا**»، الذي يتجاوز نفوذه رفيقه الحميم لينين.

وتبرز هنا حقيقة على جانب كبير من الأهمية، هي أن القيصر وأفراد عائلته لم يقتلوا على يد الثوار الروس.

يقول ويلتون إنه مع بداية تموز من عام 1918، ثارت بالتأكيد شكوك بين أفراد «**الزمرة الاستشارية اليهودية**»، حول محاولة العساكر الروس من حراس العائلة المالكة القيام سراً بتغيير الأوضاع.

كانوا حين يسكرون حتى الثمالة مثل كل الثوريين الأجلاف، تظهر عليهم مشاعر الأسف على ما يفعلونه. وهذا كان شأن أدفييف الروسي المسؤول عن المنزل الذي أعفي من مهمته، وتم نقل الجنود الروس إلى حارات وأزقة أخرى في المدينة، بأمر من يانكيل يوروفسكي رئيس الشرطة السرية في مدينة إيكاترينبورغ، وابن أحد اليهود المحكومين المدانين سابقاً. فقد أحضر يوروفسكي معه فرقة من عشرة جنود أغلب الظن أنهم من سلالة هي مزيج بين الهنغارية والألمانية ـ جاء بهم على الأرجح من هنغاريا ـ بدلالة الخربشات والنقوش التي تركوها على جدران المنزل.

تم تكليف الجنود بمهمة الحراسة خارج المنزل حتى مساء يوم 16 تموز، حين جرى جمع أسلحتهم ومسدساتهم العتيقة وتسليمها ليوروفسكي.

لقد زودنا ويلتون بكمية كبيرة من التفاصيل الهامة الدقيقة عن اللحظات الأخيرة للعائلة المالكة وخدمها المخلصين، وهم يقادون من غرفة التحقيق إلى غرفة الإعدام، حيث تجمع العديد داخلها وخارجها، وكان ميدفيديف الروسي الوحيد الذي ظل مع يوروفسكي. قال ميدفيديف لزوجته متفاخراً فيما بعد، إنه الروسي الوحيد الذي شارك في العملية، أما الآخرون ـ حسب قوله ـ «**فلم يكونوا منا**».

يكتب ليون تروتسكي في يومياته، وكان وقتها في هارفارد، أنه سأل سفيردلوف عقب سقوط إيكاترينبورغ في أيدي الجيش الأبيض مباشرة: وأين القيصر؟ فأجاب أنه أعدم رمياً بالرصاص، وعاد تروتسكي يسأل: وأفراد الأسرة؟ فأجاب سفيردلوف: أعدموا أيضاً. سأل تروتسكي: من الذي أمر بذلك؟ وكان الجواب: نحن الذين قررنا ذلك هنا، لقد قال لينين إننا لا يجوز أن نسمح ببقاء أحد منهم حياً.

لقد تم إخفاء شخصية القاتل اليهودي للأسرة الملكية خلف ستارة رجل اسمه بيلوبورودوف، وهو رئيس عمال مناجم في الأورال، كان قد جرى توقيفه بسبب ارتكابه جريمة عقوبتها ــ حسب القانون السوفييتي ــ الإعدام. لكن غولوتشيكن، رئيس الشرطة السرية في الأورال، بدلاً من إعدامه، نصبه رئيساً لإقليم الأورال السوفييتي، فخدع بذلك العمال المحليين الذين يكرهون أن يحكمهم شخص من موسكو، ويكرهون خصوصاً أن يحكمهم يهود. وهكذا تحول بيلوبورودوف الثوري المتحمس إلى دمية، وتحت هذا الاسم تم إرسال البرقية الهامة المشفرة لإعلام سفيردلوف ولينين بإعدام الأسرة الملكية بكاملها، وليس القيصر فقط.

في تلك الأثناء، كان البلاشفة قد استولوا على كامل الحكومة المؤقتة التي سلمها القيصر سلطاته بتنازله عن العرش. وبدأ الألمان يدركون أنهم يفقدون السيطرة على الثوار الذين أرسلوهم للإطاحة بالنظام القديم. وكانت أول علامات ذلك اغتيال السفير ميرباخ ممثل ألمانيا في موسكو.

أصبح الوضع مشوشاً، وساد ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الألمان، الذين فقدوا ثقتهم بالحكومة المؤقتة، يخططون سراً لإعادة العائلة المالكة من منفاها في توبولسك بعد أن أمضت سنة هناك، كما يخططون لإزاحة البلاشفة وتشكيل حكومة جديدة برئاسة أليكسيس ابن القيصر أو أي فرد آخر من سلالة رومانوف، لكن الخطة فشلت. إذ بينما هم يعيدون القيصر من توبولسك، قبض عليه البلاشفة في مدينة إيكاترينبورغ، وسجنوه مع باقي أفراد حاشيته.

من الطبيعي أن يكون البلاشفة متلهفين كثيراً لإخفاء حقيقة ما حدث في إيكاترينبورغ عن الشعب الروسي وعن العالم بأكمله. ولقد نجحوا في ذلك بفضل مجموعة من الظروف غير المتوقعة والعوامل غير المحسوبة، كان أولها أن إعادة استيلاء الجيش الأبيض على المدينة لم يدم أكثر من تسعة أيام بعد ارتكاب الجريمة. ثانيها وجود شخص موهوب مثل نيكولاي سوكولوف مكلف بالتحقيق. كان أول ما تم العثور عليه بعد جرف الجليد والنفايات جثة جيمي، الكلب الاسبانيولي، الذي رافق سيده الصغير إلى غرفة الإعدام.

في تلك الأثناء، كانت الرواية البلشفية لما حصل قد أصبحت مقبولة في الغرب. فقد كتبت التايمز اللندنية بتاريخ 22 تموز 1918 عن وجود «**مؤامرة لإنقاذ طاغية آل رومانوف**»، وعن أن اللجنة المركزية في موسكو وافقت على قرار لجنة الأورال بإعدامه. أما باقي أفراد الأسرة، فقد تم ــ حسب مقال التايمز ــ نقلهم إلى مكان آمن.

يكشف هذا المقال، الذي ليس فيه بالنتيجة أي كلمة صحيحة، النقاب عما يجب أن يكون عليه موقف الغرب الرأسمالي بكامله من حركة ثورية معادية للرأسمالية بالفرض، سرقت من بريطانيا وفرنسا مؤخراً ولاءهما كحلفاء في حربها ضد ألمانيا.

كان على البلاشفة ارتجال قصة جديدة مختلفة تماماً بكل تفاصيلها، بعد أن رأوا نجاح الجيش الأبيض في إثبات أن كل أفراد العائلة المالكة قد أبيدوا. فأعلنوا بعد حوالي سنة، متجاهلين ما كانوا قد أعلنوه سابقاً، أن السلطات السوفييتية في بيرمان قدمت إلى المحاكمة 28 شخصاً بتهمة اغتيال أفراد الأسرة المالكة وحاشيتها البالغ عددهم 11 شخصاً، وأن ياخانوف أحد المتهمين اعترف بأنهم خططوا للجريمة بهدف الإساءة إلى سمعة السلطات السوفييتية.

وفي مزيد من محاولات طمس الحقيقة وتشويش القضية، نشر المجلس اليهودي والجمعية الأنغلويهودية في لندن بياناً بقلم ستارينكفيتش، أول رجل كلفه الأدميرال كولشاك بالتحقيق في مصير الأسرة القيصرية، وكما تبين فيما بعد، كان ستارينكفيتش ذاته يهودياً، فأعلن عن عدم وجود أي أثر أو دليل على

تورط اليهود في المسألة، رغم علمه التام ــ كما يقول ويلتون ــ بأن مجلس إقليم الأورال المسؤول عن مصير العائلة المالكة يتألف من خمسة أعضاء، هم: بيلوبورودوف ــ الدمية التي تتولى رئاسة المجلس ــ إضافة إلى غولوتشيكين وسافاروف وفولكوف وسيرومولوتوف، والأربعة كلهم يهود. ورغم علمه التام بأن الشرطة السرية يديرها ستة من اليهود، من بينهم غولوتشيكين وأفراموف وتشوستكيفيتش. وهؤلاء هم الذين عهد إليهم بمهمة محو الأسرة الملكية من الوجود، وقاموا بإعلام المجلس المحلي المنتخب بعد أربعة أيام بأن القيصر قد تم إعدامه رمياً بالرصاص.

من هنا، لم يعد بالإمكان وجود شك من أي نوع في هوية أولئك المسؤولين عن اغتيال أفراد العائلة المالكة. الأكثر من ذلك أن القتلة ــ بفضل حافز لا يقاوم ــ تركوا بصمتهم العنصرية وتوقيعهم القومي في غرفة الإعدام، على شكل سطرين من قصيدة للشاعر اليهودي هاينريتش هايني عن مصير الملك الكلداني، بعد استبدال كلمات فيهما ليتلاءما مع المناسبة، كان السطران مكتوبين بقلم الرصاص على الورق الذي يغطي الجدران.

ولما كانت القومية الروسية بالذات هي التي تقف في وجه الدمار وتخففه، فقد وجب القضاء على كل ما يرسخ هوية الشعب الروسي، وعلى كل ما يبعث لديه الإحساس بالتواصل التاريخي مع الماضي، وكان على الشعارات ــ كما يسميها لينين ــ أن تتلاشى.

من هنا ، جرى تعقب واصطياد من تبقى من آل رومانوف، وعلى رأس قائمة الطرائد الدوق الكبير ميكاييل رومانوف، الذي عينه القيصر نيكولاي خلفاً له بعد تنازله عن العرش. فقد اختفى ميكاييل من الفندق في بيرم قبل المذبحة بشهر، ولم يره أحد مرة أخرى، ومات ستة آخرون من آل رومانوف ــ بما فيهم أخت الإمبراطورة التي كانت محبوسة في بيرم ــ بعد 24 ساعة من مجزرة إيكاترينبورغ. قيل لهم إنه يجب نقلهم، ثم أخذوا في عربات صغيرة تجرها الخيول إلى الغابة على بعد بضعة أميال، حيث ضربوا بالهراوات حتى ماتوا، في موقع تم اختياره بعناية قرب منجم حديد مهجور، ثم طرحت الجثث في بئر المنجم.

وكان من الواضح أيضاً أن الأمر بهذه الجرائم جاء من سفيردلوف في موسكو، وقام بتنفيذه أعضاء المفوضية العدلية المحلية سولوفييف وغولوتشيكين وصنيعتهم الروسي بيلوبرودوف، وكلهم يهود.

جرى أيضاً ذبح مجموعة أخرى من المساجين، بعد نقلهم من سجن إيكاترينبورغ، وجميعهم من الحاشية الملكية. لكن فولكوف ـ خادم القيصر الخصوصي ـ تمكن من الهرب مع بدء المذبحة في الغابة، واستطاع إعلام سوكولوف بكل تفاصيل ما حدث بالضبط. وبتاريخ 29 كانون الثاني 1919، أي بعد ستة أشهر، تم نقل أربعة آخرين من آل رومانوف كانوا معتقلين في بيتروغراد إلى قلعة القديسين بطرس وبولص، حيث أعدموا رمياً بالرصاص.

تعتبر المأساة التي حلت بآل رومانوف صورة مصغرة عن المأساة الكبرى التي حلت بشعب الإمبراطورية الروسية، تماماً مثلما أن مأساة حقبة الثورة في التاريخ تعتبر صورة مصغرة عن عصر نزاعات ومعاناة لا سابق لها في التاريخ.

إن بالإمكان تلخيص المعنى العام لهذا كله في كلمتين هما: دمار الأمم، أو حتى في كلمة واحدة هي: الإبادة الجماعية.

لقد تم الإعلان عن «**الإرهاب الأحمر**»، الذي أودى بحياة الملايين، بتاريخ الأول من أيلول عام 1918، أي بعد أقل من شهرين من مذبحة إيكاترينبورغ. وكان السبب المباشر له مقتل أحد رؤساء الشرطة السرية في بيتروغراد، واسمه أوريتسكي، على يد يهودي آخر، في محاولة لاغتيال لينين. فقد أعلن زينوفييف ـ أحد المقربين من لينين واسمه الحقيقي آبفيلباوم ـ أن «**90 مليوناً من الشعب الروسي سينتصرون، والباقي سيتم سحقهم**».

هناك دلائل كثيرة تشير إلى أن الشعب الروسي قد استفاق من بحر الذهول الذي أغرقته فيه الثورة. ففي مدينة بيرم مثلاً، احتشد جمهور كبير في جنازة علنية عامة لتشييع القتلى من آل رومانوف الذين أخرجهم الجيش الأبيض من بئر منجم الحديد المهجور. وبدأ الناس يدركون أكثر فأكثر أن «**ثورتهم**» قد تمت مصادرتها من قبل قيادة «**ليست منهم**».

لم يكن هناك أي سبيل لقيام هدف نبيل صادق يجمع بين البلاشفة وباقي أفراد الشعب. ولم يكن هناك أمل لدى القادة الجدد بالبقاء في السلطة إلا بالعنف والإرهاب حصراً. ويلخص روبرت ويلتون ذلك كالتالي:

«إن سجل البلشفية بأكمله في روسيا موصوم بشكل لا يمكن محوه بطابع الغزو الأجنبي. فاغتيال القيصر، الذي خطط له عن سابق عمد وإصرار اليهودي سفيردلوف ونفذه اليهود الآخرون: غولوتشيكين وسيرومولوتوف وسافاروف وفويكوف ويوروفسكي، ليس عملاً من صنع الشعب الروسي، بل من صنع هذا الغازي الأجنبي المعادي».

هناك سبب وجيه لاستعادة وتذكر معلومات الماضي التي تثير مشاعر الحقد والعداء العميقة أو مشاعر الخوف، هو أننا نحتاج إلى المعرفة التي يجب أن نحصل عليها إذا أردنا أن نفهم ما يحدث اليوم، داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه. فليس كافياً أن نعرف أن الثورة الروسية غزو خارجي أجنبي بكل مواصفاته، بل نحن بحاجة لأن نعرف كم كان مستحيلاً فيما يبدو القيام بالإطاحة بواحدة من أعظم إمبراطوريات العالم على يد عدو صغير.

التفسير المختصر لهذا، كما نجده في أرشيف سوكولوف، هو أن القادة الروس لم يفهموا ما كان يحدث، بسبب فكرهم القدري المتقلب. كانوا لا يعرفون الصديق من العدو. وكان على أولئك الذين يرون اليد اليهودية في كل أحداث اغتيال العائلة المالكة أن يتذكروا ــ كما يقول سوكولوف ــ الأكثرية اليهودية المخيفة في الإدارة السوفييتية.

لقد تضمن كتاب سوكولوف «**آخر أيام آل رومانوف**»، المنشور في باريس عام 1921، قوائم بأسماء وألقاب جميع أعضاء الهيئات الحاكمة في الإدارة السوفييتية عامي 1917-1918، كما تضمنتها الطبعة الفرنسية من كتاب ويلتون. واكتشف سوكولوف أن من بين 556 منصباً هاماً وحساساً في الدولة البلشفية عامي 1918-1919، هناك 457 منصباً يشغلها اليهود، وأن من بين المناصب الـ 99 هناك 19 منصباً فقط يشغلها الروس، أما الـ 80 منصباً الباقية فللألمان 15 واللتوانيين 35 والأرمن 11 والجيورجيين 10، وتتوزع المناصب التسعة الباقية بين البولنديين والفنلنديين والتشيك وغيرهم.

الأهم من ذلك كله، أن من بين 61 شخصاً من قادة أحزاب اليسار المعارضة، هناك 55 يهودياً وستة روس فقط. هذه الأحزاب المعادية للبلشفية بالفرض، كان لها أثر في احتواء أية محاولة جادة من قبل الروس لتجميع أنفسهم واستلام المناصب الهامة الحساسة، وفي توظيف الأقليات داخل الإمبراطورية الروسية ـ ومعظمهم عدو تقليدي للروس ـ كستائر وأقنعة تخفي وراءها الطابع اليهودي الذي اكتسبته الثورة في النهاية.

في الواقع إن الغالبية اليهودية بين أصحاب أسماء هذه القوائم أكبر من ذلك بكثير، فالأرجح أن العديد ممن وصفوا بأنهم روس وليتوانيون وأوكرانيون كانوا في الحقيقة يهوداً.

هل كان لينين يهودياً؟.. ما هو دور اليهود في مجرى الأحداث بالاتحاد السوفييتي خلال سبعين عاماً وأكثر تلت الثورة؟ في الفصل الثالث التالي سنبحث بالتفصيل الشامل الهوية اليهودية والطريقة التي استخدمت لتحقيق الأهداف السياسية.

إن أي تفسير وصفي لما حدث في بيتروغراد وموسكو عام 1917 سيكون ناقصاً، ما لم تتم الإشارة فيه إلى ما حدث خارج روسيا، من انتصارات صهيونية وشيوعية تزامنت معاً بوقت واحد. ففي الأسبوع ذاته من أوائل أيلول 1917، الذي انتقلت السلطة فيه نهائياً إلى أيدي لينين ورفاقه من المتآمرين، وافق القادة الأمريكيون والبريطانيون ـ بعد تعرضهم لضغط هائل ـ على الاعتراف بإقامة دولة إسرائيل، وعلى اعتبار شعب إسرائيل أمة، وصدر «**وعد بلفور**».

وهكذا.. وفي نفس اللحظة تقريباً ـ كما يقول دوغلاس ريد مراسل التايمز اللندنية في أوروبا ـ «**ولد وحش ذو رأسين، أحدهما هو السلطة الشيوعية المتنامية القادمة من روسيا**»[1].

ثمة بالتأكيد حقب قليلة حصل فيها تحول تاريخي كبير، تستحق منا مزيداً من التوثيق والتفصيل أكثر من الحقبة التي شهدت الإطاحة بالحكم الملكي في روسيا، واستبداله بحكم أجنبي من الطغيان والإرهاب.

---

[1] كتاب «تناقض صهيون» لدوغلاس ريد.

لقد أمضى روبرت ويلتون أربعين عاماً في روسيا، حصل بعدها على لغة روسية كاملة، وعلى معرفة بحثية واطلاع أكاديمي على تاريخ الإمبراطورية، إضافة إلى علاقات شخصية بجميع الشخصيات البارزة، بما فيهم الأسرة المالكة، وتمتعه بحرية غير عادية في الحركة كمراسل خاص للتايمز اللندنية. فروى ما حدث في كتاب «**المأساة الحزينة لروسيا**»، الذي صدر في لندن عام 1918، قبل ذهابه للانضمام إلى الأدميرال كولشاك مع الجيش الأبيض الزاحف غرباً من سيبيريا.

كان هناك نشاط ثوري في روسيا، قبل وقت طويل من أحداث 1917-1918، كما هو الحال في كل بلدان الغرب، مثل مؤامرة ضباط الجيش الذين قادوا موجة الاحتجاج على كارثة الغزو النابوليوني عام 1812. إلا أن مثل هذه الأنشطة الثورية كانت جزءاً من عملية تطور أساسي تهدف إلى الإصلاح أكثر مما تهدف إلى الإطاحة بالنظام القائم.

أحد أبرز وأهم جوانب عملية التطور الطبيعي هذه، كان ازدهار أدب رائع، يعتبر الآن أعظم كنوز الحضارة الغربية، على يد كتَّاب مثل بوشكين ودوستويفسكي وغوغول وتشيخوف وغوركي وتولستوي، الذين لم يهتموا بجعل أنفسهم دعاة لأية عقيدة سياسية، بل أناروا الفكر العام بلوحات دقيقة رائعة من الواقع الحقيقي المعاش.

لقد حصل تطور ملحوظ بعد الثورة الاشتراكية شبه الشعبية في عام 1905، وكان أحد وجوه ما أنتجته هذه الثورة، قيام مجلس برلماني للدوما لأول مرة انتخبته جموع الفلاحين بالاقتراع، حين كان ستولبين رئيساً للوزراء. لكن التطور الثوري تنامى بسرعة إلى حد أن ثلاثة وزراء تم اغتيالهم بشكل متعاقب. وكان العديد ممن نفذوا الاغتيالات شباناً يهوداً، قاموا أيضاً بقتل عدد من رجال الشرطة، وبالسطو على البنوك للحصول على أموال لتمويل الثورة. هذه الجرائم الإرهابية أدت بدورها إلى وقوع سلسلة من المذابح.

استمر التطور الإرهابي على نفس الوتيرة بعد اغتيال ستولبين، وفي عهد خليفته كوكوفستوف، وعاشت روسيا عقداً غير مسبوق من التطور المادي والرخاء، لعبت فيه السلطات المحلية والحركة التعاونية دوراً بارزاً وهاماً،

وامتدت آلاف الأميال من السكك الحديدية، وانتشرت آلاف الأميال على جانبيها لتوطين التقدم الزراعي في المناطق الشاسعة، وخاصة في سيبيريا.

إنما بقيت إلى جانب ذلك قرحة دائمة استعصت على الشفاء أخذت شكل مشكلة سياسية، هي وجود أقلية يهودية ترفض بإصرار التأقلم والذوبان مع الآخرين، منتشرة بشكل واسع في المناطق، لكنها منطوية على نفسها ضمن أدوات تواصل خاصة بها، تجعلها على تماس دائم ومستمر مع يهود العالم الغربي، الذين يعرفون باسم «**الأشكيناز**»، المنحدرين من أصول في جنوب شرق روسيا.

باختصار، كان الروس تواقين إلى التغيير والتطور. وافتتنت الطبقة المثقفة الناشئة حديثاً بالماركسية، واعتنقتها كفلسفة حياتية من ناحية، وكبرنامج للتغيير السياسي من ناحية أخرى. ومن هنا، رحب المثقفون برفاقهم اليهود الذين بدا أنهم يعتنقون ذات العقيدة.

أحد مفاتيح فهم لغز الثورة، هو مؤتمر الديموقراطيين الاشتراكيين الروس الذي انعقد في ستوكهولم عام 1908، حيث جرى استخدام كلمة «**البولشيفية**» لأول مرة.

وافق جميع المندوبين الحضور على ارتباطهم بتعاليم كارل ماركس، لكنهم اختلفوا ـــ أو هكذا كان يبدو ـــ على مسألة الأساليب والوسائل لوضع هذه التعاليم موضع التنفيذ العملي. فقد أصرت مجموعة برئاسة لينين على انتهاج الأنشطة الراديكالية المتطرفة، بما فيها الصدام الدموي، وأطلق عليهم اسم البلشفيك لأنهم يشكلون الأغلبية. وناقش آخرون مسألة الإطاحة بالرأسمالية والتخلص منها بالوسائل الدعائية والتنظيمية، لكنهم كانوا أقلية، ولهذا أطلق عليهم اسم المنشفيك. ولكن لدقة لغوية أكبر، فإن معنى الكلمتين باللغة الروسية هو «**الأكثر**» و «**الأقل**».

من هنا كان مؤتمر ستوكهولم لغزاً داخل لغز، يحتاج منا إلى الحل أولاً. لكننا قبل أي شيء آخر نحتاج إلى جلاء أذهاننا لنفهم معاني الكلمات المستخدمة. فأولئك الذين يسميهم ويلتون «**اليهود المزيفين**» تمييزاً لهم عن «**اليهود المتدينين**»، يمكن أن نطلق عليهم أيضاً اسم «**الروس المزيفين**» الذين

يخفون هويتهم وراء أسماء روسية، مثل تروتسكي بدلاً من برونشتاين وستيخوف بدلاً من ناهاماكيتــز، وغيرهما. كانوا من طبقة القيادة، قوميتهم يهودية، ثقافتهم واسعة، على تماس دائم مع القيادات اليهودية في الخارج، وجميعهم تقريباً ملحدون.

إننا نحتاج أيضاً إلى أن نتأمل عن قرب كلمة «**اشتراكيون**» في هذا السياق، لنجد أن لها معنيين مختلفين متباعدين. الأول يعني أولئك المؤمنين بالاشتراكية كفلسفة وكبرنامج للتغيير السياسي، والثاني يعني أولئك الذين لا يؤمنون بها على هذا النحو، بل يرون فيها مجرد أداة متاحة يمكن استخدامها لصالح العمل السياسي.

لقد كان البلاشفة بلا شك «**أكبر**» مجموعة في مؤتمر ستوكهولم، إنما لم يكونوا بالتأكيد أكبر مجموعة في روسيا.

واستطاع هذا البعد الجديد في علم التخفي والرياء، على يد الروس المزيفين، أن يسيطر على جميع الأحزاب الاشتراكية والتقدمية التي تأسست لمعارضة الأحزاب البلشفية.

من هنا نستطيع أن نقول بكلام محدد، إنه لا وجود لشيء اسمه «**الثورة البولشيفية**». هناك فقط حرب يهودية قومية عدوانية تم إعلانها تحت غطاء ثورة اشتراكية روسية.

والذي حدث فعلاً، هو أن الإصلاحيين الأعضاء في مجلس الدوما ـ يدعمهم الاشتراكيون الروس وتساندهم الجماهير الشعبية الواسعة ـ نجحوا في الإطاحة بالنظام القديم، لكن هذا النصر تم انتزاعه من أيديهم في جو فوضوي مخيف من قبل أقلية يهودية قومية عالية التنظيم وجيدة التمويل.

بفضل ما تشير إليه الكلمات وتشرحه الأسماء، تصبح لدينا صورة ذهنية جلية وواضحة لما حصل في بيتروغراد، تنقذ عقولنا من الغرق في المستنقعات الضخمة من الوقائع الثانوية.

كل ما نحتاج لأن نقوله في هذا الفصل عن الاشتراكية الماركسية، هو تأثيرها كظاهرة مرضية للمناعة المكتسبة، جردت العديد من المثقفين الروس

من مرجعيتهم الروحية المقاومة لسموم العدوى بخبائث القومية اليهودية المقنعة. باختصار، الاشتراكية الماركسية طبعة جديدة لليوطوبية المثالية، مثل **«كذبة مضللة في طريق الصفاء الروحي»** ساعدت على تقليص الثقافة الروسية وتحويلها إلى عجز سياسي ***(انظر الفصل الثامن عشر: جورج أورويل والعنصر الصهيوني).***

كانت الظروف في روسيا أوائل عام 1917 تغطي جميع متطلبات التغيير الثوري، فقد كان السخط والاستياء يتخمر منذ وقت طويل، والبلاد انشغلت على مدى سنتين ونصف بحرب خاسرة سيئة التنظيم، والأسرة الحاكمة ساءت سمعتها بين إمبراطورة عصابية من جهة وإمبراطور طيب لكنه ضعيف من جهة أخرى، وبلغت الأمور ذروتها بفضيحة راسبوتين المرعب. ومن هنا كان للثورة جيش كبير من المؤيدين بين المدنيين والعسكريين.

تبقى عموميات ما حدث عديمة القيمة تاريخياً، ما لم تؤيدها مجموعة واسعة من الشهود العيان والأدلة الدامغة من النوع الذي زودنا به روبرت ويلتون وأرشيف سوكولوف.

إن قصة ما حدث في آذار 1917 وما بعده، لا يمكن روايتها بشكل متسلسل، لأن الكثير من الأشياء حصل في وقت واحد من قبل ثلاث فئات مختلفة من الناس، لكل منها أفكارها الخاصة وأهدافها. هذه الفئات هي:

1 ـ أعضاء مجلس الدوما المنتخبين بقيادة رئيسه رودزيانكو.

2 ـ مختلف مجموعات المعارضة خارج الدوما.

3 ـ القوميون اليهود الذين يمكن تسميتهم البلاشفة.

كان المشهد في بيتروغراد أشبه بمسرح كبير تعرض على خشبته ثلاث روايات درامية في وقت واحد، وتداخلت سيناريوهاتها بشكل مذهل في عدد من المقاطع.

ولما كان البلاشفة قد أقاموا بشكل متعمد دولة من فراغ فوضوي يستطيعون تسخيرها لمصالحهم، فقد كانوا على علم طوال الوقت بما يجري، وبما يرتبون. ويمكن تعريف ما قاموا به ووصفه كالتالي: خلق الفوضى وتشكيلاتها في لب النظام وجوهر المجتمع.

ومن هنا، اعتمدت سلطة البلاشفة في البداية بشكل كامل على قدرتهم على تحريض الجموع، بما فيهم بعض أفراد الجيش، والنزول بهم إلى الشوارع، هذه القدرة التي كانوا يستطيعون ممارستها ساعة يشاؤون، بفضل ما لديهم من مجموعات واسعة تأتمر بأمرهم من ناشطين مدربين متمرسين بأعمال التخريب والإرهاب من جهة، وبفضل سيطرتهم على حقل الطباعة، بما فيه الصحف، من جهة أخرى.

بعد فشل رودزيانكو في ضمان وتحقيق التعاون مع أعضاء الحكومة الذين اتخذوا من قصر ماري قاعدة لهم، عاد إلى قصر توريس حيث مقر مجلس الدوما، وكان قد تم تشكيل حكومة مؤقتة يوم الخميس 15 آذار، تولى فيها الأمير لفوف منصب رئاسة الوزراء ووزارة الداخلية، مع مجلس وزراء مؤلف من عشرة أعضاء، بعضهم لم يسبق له أن كان عضواً في مجلس الدوما.

بحلول ليل يوم الثلاثاء 20 آذار، كانت بيتروغراد بكاملها في أيدي الثوار، يحكمها اسمياً مجلس الدوما المعاد تشكيله. وشاركت موسكو في الحركة، وانتزعت السلطة من أيدي الشرطة وممثلي النظام القديم دون حمامات دم. وعادت السكك الحديدية إلى العمل مرة أخرى، وأخمدت النيران المشتعلة فيها، وراحت الجماهير تحتفل ابتهاجاً بانتصار مزعوم لممثليهم المنتخبين على استبداد فاشل.

يقول ويلتون:

«كان مشهداً يلهب المشاعر، أن ترى الفرق تسير الواحدة تلو الأخرى معلنة ولاءها لمجلس الدوما... أما في داخل المجلس فقد شهدت عرضاً مثيراً، إذ انتظم صف من الحرس القيصري في القاعة الكبرى، يقدمون السلاح للرئيس رودزيانكو».

لم يكن هدف مجلس الدوما الجديد إلغاء الحكم الملكي. كان هدفه القيام بإصلاح يبقى فيه للملكية كرمز قومي، دور تلعبه.

في هذه المرحلة بالذات ــ بعد تخلي القيصر عن العرش وتسليم السلطة رسمياً للحكومة المؤقتة ــ وجد لينين ورفاقه أن الجو آمن للإعلان عن وجودهم واستلام زمام أمور الثورة. وكانت مخططات ذلك قد تم

وضعها وإقرارها على مستوى عالمي ودولي، في مؤتمر انعقد بمدينة بيرن في سويسرا.

بقي مدى السلطة التي مارسها لينين في هذه المرحلة، محل خلاف وجدل. فهناك ما يدعو للاعتقاد بأن معظم السلطات ـ حتى بعد استيلاء البلاشفة على الحكومة ـ كانت في يد «**القيصر الأحمر**» يانكيل سفيردلوف رئيس الشرطة السرية.

قبل تشكيل الحكومة المؤقتة بوقت قصير، ظهر إلى الوجود «**مجلس**» «**كلمة سوفييت بالروسية تعني مجلس**»، تمت دعوة العسكر والعمال لإرسال ممثلين عنهم إليه، وجرى ذلك كله بقيادة الاشتراكيين من خارج مجلس الدوما، وكلهم تقريباً من الروس، وبرئاسة أحدهم هو Chkheidze. هذا المجلس «**السوفييت**» الداعم للحكومة المؤقتة، اتخذ مقراً له في قاعة الاجتماعات الكبرى من قصر توريس. وكما هو متوقع، فقد حاز هذا التطور رضى رودزيانكو ومباركة أعضاء مجلس الدوما الجديد، الذين رحبوا بكل دعم يمكن الحصول عليه خلال هذه المرحلة من الغليان العام. والمثير للاهتمام أن مجلس السوفييت هذا كان في البداية وطنياً إلى أبعد الحدود، ينادي باستمرار الحرب ضد ألمانيا.

ولهذا، كان لا يمكن الإطاحة بالنظام القديم، وإقامة حكومة مؤقتة، بعيداً عن الناشطين الاشتراكيين من خارج الدوما. كما كان لا يمكن لهؤلاء أن يحققوا شيئاً، بعيداً عن البلاشفة الذين يعملون سراً لإنزال جموع الغوغاء إلى الشوارع، ويشاركون في بث التمرد والعصيان بين بعض وحدات الحرس القيصري.

حاول مجلس الدوما ومجلس السوفييت الذي يسيطر عليه الروس إقامة نظام جديد، إنما بدون فائدة، نظراً لأن السلطة الحقيقية بقيت في أيدي البلاشفة القادرين على إنزال جموع الغوغاء على الشوارع، وعلى خلق أوضاع لا يمكن معالجتها في كل ساعة يشاؤون، ولن يكلفهم تحقيق ذلك أكثر من نشر رسالة سريعة تحذر من قيام النظام القديم بمحاولة انقلابية أخرى معادية للثورة.

من جهة أخرى، كان البلاشفة بحاجة إلى الهيمنة الروسية على مجلس السوفييت وإلى الحكومة المؤقتة من أجل إحكام قبضتهم على الأمور ريثما يتهيأون ليصبحوا في وضع يستطيعون فيه الاستيلاء على كل شيء بالكامل.

يمكن مع التأمل فهم وإدراك مخطط العمل على النحو التالي: بعد أن تنامى اعتماد مجلس الدوما على مجلس السوفييت، فقد انتقل مركز الثقل في السلطة من مجلس الدوما إلى مجلس السوفييت. وفي الوقت نفسه، انتقل بالتالي مركز الثقل في السلطة ــ بفضل تحركات سرية متوالية ــ من مجلس السوفييت إلى البلاشفة.

إن ما حصل أصبح الآن حكاية. فقد سيطر مجلس السوفييت سيطرة كاملة على مجلس الدوما. وسيطر البلاشفة سيطرة كاملة على مجلس السوفييت. وكان مفتاح اللغز السيطرة على جموع الغوغاء. ففي ظل الفوضى يمكن جعل مجلس الدوما يعتمد أكثر على مجلس السوفييت، وبالسيطرة على الغوغاء يمكن تحييد أولئك الروس الذين مازالوا يلعبون دوراً وطنياً مؤثراً، واستبدالهم بالبلاشفة، أو وضعهم تحت هيمنة البلاشفة بشكل كامل. كل الأمور تصبح سهلة عند فهمها، لكنها تبقى لغزاً محيراً عند القادة السياسيين الذين خفي عليهم المخطط.

جاءت بواكير علائم انصياع الحكومة المؤقتة لضغط مجلس السوفييت، بعد بضعة أيام فقط من الإعلان عن أن العسكر يتمتعون بنفس الحق في الإضراب الذي يتمتع به العمال.

لقد تم إيهام مجلس الدوما بأنه أمر يمكن التحكم فيه نظراً لشرعيته، وأنه سيلقى دعم الشعب الذي يرى فيه «**مسيحاً مخلصاً**»، وتم إيهام مجلس السوفييت بقيادته الروسية والأغلبية الروسية فيه بالمستقبل المجيد الجديد الذي تتصوره روسيا بين أيديها.

كان الاشتراكيون اليهود يبدون تفوقاً مذهلاً في الجانبين الفني والعلمي من ممارسة السلطة السياسية، وهذه مهارة لم تكن الدول الغربية ــ التي تضم مجتمعات متجانسة ضمن حدودها ــ بحاجة لاكتسابها، باعتبار أن ممارسة السلطة السياسية عندها نوع من أنواع الحرب تجري حصراً في ساحات الفكر.

وكان للأدب التحريضي، الذي انتشر بين الجنود والبحارة حاملاً الوعود بالأرض والمنافع الأخرى لمن يترك العمل في القوات المسلَّحة، قد أعطى أثره المطلوب، وأصبح يعرقل المجهود الحربي إلى حد كبير. قام مجلس السوفييت بتشكيل لجان بين الجنود في الجبهة، كتلك الموجودة فعلاً في بيتروغراد وموسكو وغيرهما من المدن. لكن الأسوأ من ذلك كله أن الحكومة المؤقتة، التواقة إلى نيل رضى مجلس السوفييت، أقرت قانون إلغاء الإعدام، فكانت النتيجة الانتشار السريع لشلل الانضباط، إلى حد وجدت الأركان العامة نفسها عاجزة عن مراقبته. حتى أن بعض الجنرالات تم تسريحهم لأنهم تجرأوا على التدخل في أنشطة هذه اللجان العسكرية.

* * * *

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، انتشر من روسيا إرهاب وطغيان القومية اليهودية كما ينتشر السرطان في كل أنحاء أوروبا الشرقية.

ففي بولندا الشيوعية، كتب سفير الولايات المتحدة بليس لاين عن هيمنة اليهود على المناصب الهامة والحساسة في مجال الرقابة الشعبية. أما في هنغاريا، فقد تم تنصيب ماتياس راكوزي رئيساً للوزراء بدعم من الجيش الأحمر، وكان مجلس وزرائه «**يسيطر عليه اليهود بالكامل**» حسب قول التايمز اللندنية.

وفي تشيكوسلوفاكيا علَّقت مجلة «**السياسي الجديد**» قائلة: «**إن جميع أفراد حزب المفكرين وجميع أصحاب المناصب الرئيسية في الشرطة السرية والاستخبارات هم من أصول يهودية**».

أما عن رومانيا، فقد كتبت النيويورك تايمز عام 1953 تقول:

«**إن في إدارتي رومانيا وهنغاريا، عدداً من اليهود أكبر مما في كل حكومات العالم**». وفي رومانيا اندلع الإرهاب بقيادة آنا بوكر، ابنة أحد الحاخامات اليهود.

وأما في ألمانيا الشرقية فقد ترأس الحكم الشيوعي الإرهابي هيلدي بنجامين كنائب رئيس المحكمة العليا أول الأمر، ثم كوزير للعدل.

كان النموذج الثوري ذاته يرى في كل مكان، والرقابة الشعبية مجرد وسائل للخروج على النظام، وللإطاحة بالوضع الراهن، ولخلق الفوضى في لب النظام بالتحالف مع القومية اليهودية والتمويل اليهودي لتغطية متطلبات «**نظام عالمي جديد**» مخطط له.

ثمة ملخص رائع للحكاية نجده عام 1920 عند وينستون تشرشل، الذي كان وقتها وزيراً للحربية والطيران في الحكومة البريطانية، في متناوله بحكم خدمته جميع المصادر الاستخباراتية الحكومية في الفرق العسكرية والدبلوماسية. فقد كتب في مقال نشرته له صنداي هيرالد اللندنية قائلاً:

> *«هذه الحركة بين اليهود ليست جديدة، بدءاً من أيام سبارتاكوس وحتى كارل ماركس، مروراً بتروتسكي في روسيا، وبيلاكون في هنغاريا، وروزا لوكسمبورغ في ألمانيا، وايما غولدمان في الولايات المتحدة. إنها مؤامرة في كل أنحاء العالم للإطاحة بالحضارة، ولإعادة بناء المجتمعات على أساس وقف تطورها، ونشر الأحقاد والضغائن وانعدام العدل فيها، ومازالت هذه المؤامرة تنمو بثبات واضطراد».*

لكن تشرشل وقع في خطأ فاحش هام، حين سمح لنفسه بأن يقتنع بأن الصهيونية ـ كما يفهمها يهود الغرب ـ يجب توظيفها كمتراس في وجه الشيوعية الروسية الملحدة، بينما هما في الحقيقة وجهان لمؤامرة واحدة.

الفصل 3

مشكلــــة الهويــــة

إن أول ما نحتاج إليه، هو أن نتتبع إلى الجذور ظاهرة تاريخية نطلق عليها اسم «اليهود». هل هم شعب انحدروا عبر العصور، كالصينيين مثلاً.. أم أن الشعب اليهودي مجرد حامل ناقل لفكرة يمكن أن تحملها شعوب مختلفة أخرى؟

في الكتاب الخالد الرائع «**تناقض صهيون**»، يؤكد دوغلاس ريد بشكل قاطع مسألة «**متى وأين بدأ ذلك كله**»، قائلاً:

«البداية الحقيقية لهذا الحدث وقعت في أحد أيام عام 459 قبل الميلاد، وستأتي هذه الرواية على ذكرها في الفصل السادس. ففي ذلك اليوم، اتخذت قبيلة يهوذا الفلسطينية الصغيرة لنفسها عقيدة متطرفة بعد أن نبذها الإسرائيليون وتبرأوا منها، فكان تأثيرها التدميري على الأحداث الإنسانية اللاحقة يفوق تأثير الأوبئة والمتفجرات. وفي ذلك اليوم، تحولت نظرية التفوق العرقي إلى «تشريع». كانت قبيلة يهوذا وقتها قبيلة صغيرة بين شعب خاضع للملك الفارسي، ولم يتصور أحد قيام ما نطلق عليه اليوم اسم «الغرب». أما الآن، بعد أن بلغ عمر الحقبة المسيحية ألفي عام تقريباً، فإن «الحضارة الغربية» التي انبثقت منها وترعرعت في ظلها مهددة بالتفسخ والدمار».

لاشك أبداً في أن «**القبيلة الصغيرة**» التي يكتب عنها ريد، قد تفرقت إلى حد التلاشي تقريباً، عبر قرون من التهجين واختلاط الأنساب مع الشعوب المضيفة التي عاشت بينها. وكما يقول علماء أصل الإنسان «**إن الجينات والمورثات اليهودية لعام 459 قبل الميلاد لم يبق منها عملياً أي شيء**».

لكن محاولة لتتبع جذور اليهودية رجوعاً إلى عام 459 قبل الميلاد مازالت قائمة بإصرار إلى يومنا هذا، وهذا أمر مؤكد.

ثمة أمر على نفس الدرجة من التأكيد، هو أن هناك ثغرة واسعة في سلسلة الأنساب، نتجت عن شوائب التهجين المتنامية عند السلالات المنحدرة من يهود التوراة. فالغالبية العظمى ممن يسمون أنفسهم اليوم يهوداً، هم عبارة عن شوائب هجينة من شعب يدعى الخزر، ذي أصول تركية، سيطر ذات يوم على إمبراطورية شاسعة امتدت من البحر الأسود حتى بحر قزوين، ومن جبال القوقاز إلى نهر الفولغا، واعتنق ملوكه اليهودية وجعلوها الدين الرسمي للدولة[1].

لا جدال في أنه لا يمكن رسم فكرة واضحة عن الوجود اليهودي أو الصهيوني في تاريخ القرن العشرين، ما لم يكن واضحاً في أذهاننا معنى العنصر الأساسي في بحثنا، ونقصد تحديداً معنى مفهوم «**اليهودي**». ما هو اليهودي؟ ومن هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟

يقول الدكتور ناحوم غولدمان، الذي ترأس لعدة سنوات المؤتمر اليهودي العالمي والمنظمة الصهيونية العالمية، في كتابه «**التناقض اليهودي**»:

«أتذكر إلقائي محاضرة حين كنت طالباً، قدمت خلالها أكثر من عشرين تعريفاً لليهودية، قلت إنها دين.. وشعب.. وأمة.. وثقافة.. إلخ.. ولم يكن أي منها صحيحاً بشكل مطلق»[2].

السبب في أن «**أياً منها لم يكن صحيحاً بشكل مطلق**» هو أنها كانت جوانب متعددة لحقيقة واحدة، هي الحقيقة اليهودية. فالدكتور غولدمان يقرُّ بأنه «**ترك الأصولية بمعناها الديني**» منذ كان في السابعة عشرة، وأن العديد من يهود العصر الحديث «**تركوا الإيمان**». والواقع أن اليهود الأصوليين أو المتدينين اليوم يشكلون أقلية صغيرة.

يرفض الدكتور غولدمان تعريف جان بول سارتر، أحد أصلب المدافعين عن اليهود «**اليهودي هو كل شخص يعتبره الآخرون كذلك**». كان سارتر على أساس تعريفه هذا يعيش حياة متناقضة، فقد كان هو نفسه يهودياً، لكنه لم يكن يعتبر بشكل عام كذلك.

---

[1] انظر كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» تأليف آرثر كويستلر. وكتاب «تناقض صهيون» تأليف دوغلاس ريد.

[2] من كتاب «التناقض اليهودي» تأليف ناحوم غولدمان.

كيف يمكن إذن حل اللغز؟ الجواب بسيط: فمشكلة الهوية عند اليهود أنفسهم مسألة ثانوية لأنهم أنواع مختلفة. بعضهم مؤمن متدين، وأغلبهم غير مؤمنين متدينين، يختلف بعضهم عن بعض في المظهر واللغة، ومع ذلك يعتبرون جميعاً يهود. والسلطة التي تقرر ذلك في جميع التجمعات المحلية، هي منظمة أو مجموعة تدعى «**بيث دين**».*

ينقسم يهود اليوم، على هذا الأساس، إلى قسمين رئيسين: السيفارديم والأشكيناز. فالسيفارديم يزعمون أنهم من سلالة أولئك اليهود المشتتين الذين توطنوا في أمريكا الشمالية وإسبانيا ومناطق ما حول البحر الأبيض المتوسط. أما الأشكيناز فأصلهم من أوروبا الشرقية. السيفارديم يتحدثون لغة فرعية محلية مزيج من العبرية والإسبانية تدعى لادينو، أما الأشكيناز فيتحدثون لغة فرعية محلية مزيج من العبرية والألمانية تدعى يديش.

لعل أفضل تلخيص لهذا الموضوع بجوانبه التاريخية واللغوية والجذورية، هو الذي عرضه آرثر كويستلر في كتابه «**القبيلة الثالثة عشرة**». حيث يخبرنا أن عدد السيفارديم في الستينيات من القرن العشرين بلغ خمسمئة ألف يهودي، بينما كانت ملايين اليهود الأخرى من الأشكيناز. ولما كان لابد من وجود بعض يهود من فلسطين تهتدي على أيديهم الطبقات الراقية في الخزر، فإن بالإمكان أن نؤكد وجود أثر طفيف لهم في الموروث الجيني للخزر.

إن النتائج التطبيقية لهذه الحقيقة التي تم إخفاؤها طويلاً على جانب كبير من الأهمية. أولها أنه لا وجود لشيء اسمه «**عرق يهودي**»، ثانيها أن جميع يهود اليوم ــ باستثناء قلة قليلة جداً ــ لا علاقة لهم بيهود التوراة. ومن هنا فإن مصطلح «**معاداة السامية**» لا معنى له، سوى أنه سلاح في الحروب السياسية الحديثة. إذ لا يمكن نشوء عداء لليهود على أساس عرقي، لعدم وجود هوية

---

* لعل اسم المجموعة التنظيمية Beth Din المخولة بإقرار يهودية الأشخاص يعني «الباء المكررة» التي نجدها في كلمة حاخام، Rabbi بالعبرية والإنكليزية. **المترجم**

عرقية غربية تميزهم، ولأنهم بالتأكيد ليسوا «**ساميين**» أصلاً. فهناك يهود يذوبون باستمرار بين سكان البلاد المضيفة ولا يجوز أبداً تسميتهم يهوداً مرة أخرى. إنها عملية امتصاص واستيعاب وتمثل تعطي نتائج مختلفة تماماً في المناخات التي يوجد فيها تمايز عرقي أصلي وحقيقي.

ولأن شكسبير فهم هذه النقطة تماماً، فقد كان قادراً ــ في مسرحيته تاجر البندقية ــ على أن يجعل جيسيكا، ابنة شايلوك، تهرب لتتزوج من صديق أنطونيو، دون أن يخشى جرح مشاعر المتفرجين الإنكليز.

إن هدف مؤلف هذا الكتاب هو اكتشاف وتفسير هوية يهودية ليس لها جانبٌ عرقي، ومع ذلك فهي المسؤولة عن إثارة ردود الفعل العدوانية بين سكان البلاد التي يعيشون فيها.

فما هي إذن علاقة اليهودية بالصهيونية؟ لا يمكن إعطاء جواب حاسم مقبول لهذا السؤال، أكثر من جواب أعطاه الدكتور حاييم وايزمان الذي حضر ولادة الصهيونية، وكان لسنين عديدة ناطقها الرسمي ونصيرها الرئيسي في العالم الغربي، والذي أصبح أول رئيس لإسرائيل.

يقول الدكتور وايزمان في كتابه «**التجربة والخطأ**» إن اليهود في روسيا كانوا مقسومين إلى ثلاث مجموعات، يصف أولها بأنها «**مجموعة الخونة المرتدين**»، وهم قلة لا يريدون سوى أن يستطيعوا العيش بسلام كمواطنين روس. أما الغالبية العظمى الباقية فتنقسم نصفين، أولهما ناشطون شيوعيون مصممون على القيام بثورة عالمية تبدأ في روسيا. وثانيهما الآخر صهاينة مصرون على أن إقامة دولة يهودية هي أول الأولويات. وقد يحصل الاختلاف والانقسام داخل الأسرة اليهودية الواحدة حول هذه المسألة، كما هي الحال في أسرة الدكتور وايزمان نفسه.

هذا التنافر الخلافي الواضح المتبادل بين المجموعتين لعب دوراً مهماً في مسرحية الثورة الدرامية، مكّن الدكتور وايزمان وأتباعه من إقناع قادة السياسة الغربية، بما فيهم وينستون تشرشل، بأن مساندة الصهيونية هي الطريقة الأفضل لوقف خطر الزحف الشيوعي الثوري. لكننا نرى الآن بوضوح أكبر أن المجموعتين تقودهما «**مرجعية واحدة**»، وأنهما تدوران متقاربتين حول

محور واحد، وتنطلقان من أن تدمير الأمم والدول، بحيث لا يبقى منها سوى واحدة حاكمة، يتطلب ضغطاً من الأسفل (هو الثورة الشيوعية) وضغطاً من الأعلى (هو الصهيونية في ممارستها للسلطة المالية).

يمكن أيضاً تعريف الصهيونية بأنها شكل من أشكال اليهودية التلمودية ضمن قالب من القومية العلمانية المتعصبة يستبعد العامل الديني، إلا فيما يمكن الاستفادة منه على صعيد الحروب السياسية الحديثة. فقادة الصهيونية جميعاً ملحدون، مثل الدكتور وايزمان نفسه.

هذه هي هوية اليهود بشكل عام، وهوية الصهيونية كحركة قومية يهودية حديثة. إن ما نحن بحاجة إليه الآن ــ لو استطعنا فهم التاريخ ــ هو مسألة الهوية الشخصية والفردية اليهودية.

لقد تم عن عمد إحاطة الموضوع بالألغاز الغامضة لسبب يمكن توضيحه بكل بساطة. هو أن أية قومية ليس لديها أرض، ولا قومية، يدعمها شعب مشتت قليل هنا وقليل هناك بين شعوب البلاد الأخرى، لابد لها من أن تعمل بشكل سري وخفي. والصهيونية لا تحتاج إلى أكثر من تعريف واضح لهويتها، وإلى كشف كامل لأهدافها البعيدة المدى، لتنتهي بذلك المغامرة الشيوعية ــ الصهيونية الكبرى في القرن العشرين. ولهذا فإن هناك حاجة ملحة دائمة لإخفاء هوية أولئك الذين وضعوا أيديهم على مفاتيح تشغيل السلطة.

* * * *

دعونا نبدأ من لينين وستالين، أكبر الشخصيات نفوذاً بين القوى السياسية في القرن العشرين. فإلى أي حد كانت صورة غير اليهودي التي تم رسمها لهذين الرجلين دقيقة ومحكمة، وحققت فوائد كبيرة في إخفاء الشخصية اليهودية الأساسية للثورة البولشيفية وللشيوعية عموماً؟

ما نعرفه بالتأكيد، هو أنه في الوقت الذي كانت فيه الحكومة السوفييتية، والناطقون الرسميون الشيوعيون في الخارج، ماضين في عرض صورة الرجلين كروسيين، كان هناك نهج دائم لإحباط أية محاولة تكشف عن ماضيهما وجذور أسلافهما. وبالتالي، ليس لدينا أي مرجع موثوق مادي شامل عن نسب أي من ـ

الرجلين، سوى الاعتماد على المعلومات المستقاة من أشخاص يجوز أن نتوقع معرفتهم بالحقيقة، مع دعمها بما نستنتجه من أعمال الرجلين وكلامهما وعباراتهما.

يمكن تلخيص ما لدينا من معلومات عن لينين بالشكل التالي: ولد عام 1870 في مدينة سمبيرسك وتم تعميده مسيحياً هناك. كان أبوه إيليا أوليانوف روسياً تجري في عروقه بعض الدماء التترية، وهذا أمر شائع في إقليم الڤولغا بتلك الأيام. أما أمه ماريا بلانك فكانت بالتأكيد يهودية من جهة أبيها، ويحتمل أن تكون كذلك من جهة أمها أيضاً.

فيما يتعلق بوالد لينين، كانت الأمور واضحة تماماً بشكل كامل. ربما لعدم وجود ما يجب إخفاؤه في هذا الجانب. كان نيكولاس، جد لينين لأبيه، على درجة كافية من الذكاء، مثل كثيرين من أمثاله، جعلته يحرر نفسه من الرق، ويبني نفسه كخياط في مدينة أستراخان بإقليم الڤولغا. كما نجح أكبر أولاد نيكولاس في التجارة، مما سهّل على أخيه الأصغر إيليا ـ والد لينين ـ تحصيل ثقافة عالية والتخرج من جامعة كازان في مجال الرياضيات والعلوم الطبيعية. ثم استطاع هذا الابن لعبد مملوك سابقاً أن يحقق مستقبلاً لامعاً في مجال الخدمة العامة، فوصل إلى منصب «**مستشار دولة**»، أي ما يوازي رتبة لواء في الجيش، مما فتح أمامه الباب لحيازة ألقاب النبالة الموروثة.

لكن ضباب التحفظ الرسمي وغيوم التكتم غطت جميع أخبار أم لينين ماريا بلانك. هناك دليل يثبت أن ألكسندر بلانك، والد ماريا، كان يهودياً من أوديسا، ثم ازدهرت أحواله بشكل ملحوظ بعد اعتناقه المسيحية[1].

إليكم الآن ما يشبه الدليل حول ألكسندر بلانك بعد أن انكشف في الغرب. فقد نشرت مجلة ليكتور فرانسيز الشهرية، في عددها رقم 163 لشهر تشرين الثاني 1970، نقلاً عن الدورية اليهودية ريفيودوفون سوسيالجوف، في عددها 161 لعام 1970، تقريراً مفاده أن ماريتا شاغينيان، وهي روائية سوفييتية مشهورة من أصل أرمني، منعت من نشر بعض المواد الجديدة عن ألكسندر

---

[1] طبقاً لتقرير نشرته جريدة جويش كرونيكل اللندنية بتاريخ 26 تموز 1991، فقد أكدت جريدة أوغونيوك الأسبوعية في موسكو أن جد لينين لأمه هو إسرائيل بلانك، يهودي من أوكرانيا، تحول إلى الكنيسة الأورثوذكسية الروسية.

بلانك التي حصلت عليها بالصدفة، أثناء قيامها بإعداد بحث في أرشيف مدينة سمبيرسك عن أوائل أيام المعرض التجاري السنوي الشهير في مدينة نيزني نوفغورود، ووجدت أن هناك متعهداً آخر للمعرض ـ إضافة إلى جدها ـ اسمه سيندر بلانك، وهو تاجر يهودي ظهر فيما بعد باسم ألكسندر بلانك بعد قبول تحوله مع أسرته إلى المسيحية. هذا البلانك كانت له ابنة تدعى ميريام ولدت في سمبيرسك عام 1835، وتغير اسمها بعد التحول ليصبح ماريا. لم يكن تاريخ ومكان ولادة أم لينين سراً خفياً، إنه سمبيرسك 1835.

إن ثبوت قبول تحول ألكسندر بلانك مع أسرته إلى المسيحية، وتغيير اسم ابنتهم من ميريام إلى ماريا يشير ضمنياً إلى أن كلا أبوي لينين كان يهودياً.

في صيف عام 1964، أكملت مارييتا شاغينيان إعداد ماعثرت عليه من وثائق للنشر في المجلة التاريخية الشهرية السوفييتية فيبروسي إيستوري. لكن الرقابة السوفييتية وقتها..

«اعتبرت أن المادة على جانب خطير من الأهمية، وأعلمت المكتب السياسي الذي طلب من البطريركية الروسية تزويده بمعلومة تحول بلانك إلى المسيحية، وبعد فحص ودراسة الملف، رفض المكتب السياسي السماح لمارييتا شاغينيان بنشر مكتشفاتها».

لقد وصف إسحق دويتشر، صاحب السيرة الذاتية لستالين، لينين بأنه «**ألماني ذو مسحة روسية خفيفة**». لكن دافيد شاب، صاحب السيرة الذاتية للينين، الصادرة في نيويورك عام 1948، أكّد بإصرار في رسالة لجريدة نوفي جورنال (في عددها رقم 63 لعام 1961) أن ألكسندر بلانك كان يهودياً معمودياً من أوديسا. وأضاف شاب أن المؤرخ اليهودي السوفييتي شاوول غينسبورغ عثر على ملف ألكسندر بلانك في المجمع اليهودي المقدس سابقاً، لكنه صودر منه فوراً بعد أن عرف أحد زملائه الباحثين أن ألكسندر بلانك هذا هو جد لينين.

هذه الوثيقة تسوّي وتحل إشكالية هوية جد لينين لأمه. فالمعروف أن اسمها قبل الزواج هو آنا غروسشوبف، وأنها ابنة تاجر غني من بيترسبورغ. فقد كتب البروفيسور جورج فون راوخ من ميونيخ في مجلة أوستيوروبا بعددها رقم 4 لعام 1970، أن والد آنا هو جوهان غوتليب غروسشوبف، ألماني من

مواليد لوبيك عام 1766، ذهب إلى بيترسبورغ في عام 1790 حيث أصبح تاجراً مرموقاً هناك. من جهة أخرى، هناك زوجة لينين كروبسكايا البولندية الأصل، التي كتبت عام 1838 في مجلة بولشيفيك الشهرية الناطقة باسم الحزب السوفييتي، إن والد آنا كان ألمانياً ولد في أوكرانيا.

السؤال إذن هو: هل كانت جدة لينين لأمه آنا غروسشوبف يهودية مثل زوجها؟ من المؤكد أنها حملت لألكسندر بلانك، بزواجها منه، ثروة محترمة مكنته من شراء عقار وأملاك في كوكوشكين، ومن الحصول على لقب نبيل.

يأتي ن. فالنتينوف، صديق لينين، ليكتب بروح ودية عن لينين في النشرات الدورية بعد انفصاله عن البلاشفة، وليلقي بعض الضوء على السؤال السالف قائلاً: إن والد لينين «**على عكس زوجته ماريا**» كان شديد التدين، ويواظب مع أولاده على الذهاب إلى الكنيسة دون انقطاع. بعبارة أخرى، يبدو أن أم لينين ماريا بلانك كانت «**تتجنب الذهاب إلى الكنيسة**»، إلى جانب ما يعلنه لينين من أنه كان ملحداً منذ كان في السادسة عشرة من العمر.

وإذا ما كانت خلفية لينين الوراثية من هذا النوع، فإن بالإمكان اعتباره يهودياً، مع الحفاظ على المظاهر الخارجية والخلفية المعروفة عنه كروسي، مما جعله مؤهلاً لمكانته السياسية المرموقة بفضل خبرته وتمرسه في نصرة العقيدة الماركسية.

أما ستالين، واسمه الحقيقي جوزيف فيساريونوفيتش، فله تصنيف آخر يقع فيه. هو ابن صانع أحذية، ولد في تيفليس، هويته وأصله الجيورجي لم يكن موضع تساؤل أو شك على الإطلاق، وظل حتى مماته موضع نقد شديد على حماسه في معاداة السامية. إلا أن زوجته اليهودية روزا كاغانوفيتش كانت أخت لازار كاغانوفيتش، الذي ظل لسنين عديدة الرجل الثاني في الاتحاد السوفييتي من حيث النفوذ، كما كانت أختاً لثلاثة إخوة آخرين كلهم في منصب مفوض حزبي مسؤول.

تزوج ابن ستالين من فتاة يهودية، وتزوجت ابنته شاباً يهودياً. أما أثر ذلك كله على تحول ستالين إلى «**يهودي**» من نوع ما، فهذا ما سيتم شرحه وتفصيله لاحقاً.

ينقسم جميع من يرتبطون سراً بالأهداف السياسية اليهودية، والثورية منها على وجه الخصوص، إلى ثلاث فئات رئيسية:

1 ـ فئة المولودين من أب يهودي وأم يهودية.

2 ـ فئة المولودين من زواج مختلط، الأم فيه يهودية.

3 ـ فئة معتنقي اليهودية بعد أن كانوا غير يهود، الذين يتزوجون من امرأة يهودية، ثم ينشأ أولادهم يهوداً.

والطريقة الوحيدة المتاحة لأصحاب الفئة الأولى لإخفاء هويتهم هو تغيير أسمائهم، كأن يستبدل اسم آبفيلباوم باسم ذي جرس روسي هو زينوفييف. ويتحول سوبلزوهن إلى راديك، وهيلفاند إلى بارفوس، وفينكلشتاين إلى ليتفينهوف، وروزينفيلد إلى كامينيف، وبرونشتاين إلى تروتسكي، وأولبريخت إلى أوستينوف، وكاتز إلى غروميكو، وهكذا. أما الفئتان الثانية والثالثة فهما بحاجة إلى شرح وتوضيح.

كتبت جريدة جويش كرونيكل اللندنية بتاريخ 22 كانون الأول 1989، تحت عنوان «**يهود جدد يدخلون في اليهودية**»، أن نايجل ديفيس، لاعب الشطرنج الشهير، اكتشف مؤخراً أنه كان يهودياً، فانطلق لبدء حياة جديدة في إسرائيل، وأنه ذكر بكل وضوح لأحد أصدقائه اليهود أن جدته لأمه كانت يهودية، مما يعني أن أمه وأولادها يهود أيضاً، رغم أن أباه وجدته لأبيه لم يكونا كذلك. بتعبير آخر، المهم في الأمر أن تكون الأم يهودية، ولا عبرة في الأب أن يكون كذلك أو لا يكون. من الممكن إذاً، لا بل من الأرجح، أن الكثيرين ممن يبدون «**غير يهود**» ذوي المواقع الثابتة في الثورة الروسية، الذين انضموا فيما بعد عبر السنين إلى النظام السوفييتي، والمصنفين في قوائم الروس واللاتفيين والجيورجيين والبولنديين والفنلنديين وغيرهم، هم في الواقع يهود هويتهم خلف هوية آبائهم.

الأصعب من ذلك، تتبع واستقصاء المحسوبين على اليهودية، من غير اليهود الذين تزوجوا من امرأة يهودية. فرغم أنهم بذاتهم غير مقبولين كيهود، إلا أنهم مرتبطين بالمصالح اليهودية من خلال أولادهم المقبولين كيهود. ثمة العديد من الأسباب تدفع إلى الاعتقاد بأن كثيرين من القادة السوفييت حتى في

الأزمنة الحاضرة ينتمون إلى هذه الفئة، أحدهم هو ستالين، الذي لم يكن بوسعه أن يشجع ببساطة قضية القومية اليهودية بمثل هذه الحماسة وهذا الإصرار الدائم لو أنه كان ينتمي إلى الفئة الأولى.

كتب دوغلاس ريد عن ستالين مايلي، تحت عنوان «**لم يكن حتى نهاية أيامه معادياً لليهود**»:

«لقد ظل السيد كاغانوفيتش يده اليمنى. وحين مات ليف ميكليس، أكثر المفوضين الحزبيين اليهود المكروهين إثارة للرعب، أمر ستالين بإقامة أفخم جنازة شهدتها موسكو السوفييتية، تم فيها حمل نعش ميكليس على أكتاف جميع من بقي حياً من نبلاء الثورة البولشيفية، الذين شاركوا أيضاً في مواراته مثواه الأخير. وكان واضحاً أنه إنذار وتحذير للجموع الروسية المقيدة ــ غير المحتاجة أساساً إلى أي إنذار أو تحذير ــ بأن قانون معاداة السامية مازال نافذاً. بعد جنازة ميكليس مباشرة، يوم 27 كانون الثاني 1953، تم تقديم «جائزة ستالين للسلام» بكل فخر علني إلى الرائد التلمودي المتطرف ايليا إهرينبورغ، الذي كانت عباراته عبر محطات البث تحرض الجيوش الحمراء وهي تتقدم في أوروبا وتحثهم على ألا يتركوا جنيناً فاشياً على قيد الحياة»[1].

كان عجز ستالين عن الاتفاق بوجهة النظر مع قادة الكرملين حول دور الصهيونية هو السبب في كراهيتهم له. فقد كتب هاريسون ساليزبوري، أحد كبار المراسلين الأمريكيين، قائلاً:

«لو حدث أن ستالين سقط بسبب تمزق في الشرايين بتاريخ 2 آذار، لتم تسجيل ذلك على أنه أعظم مصادفة سعيدة في التاريخ، يطلق بعدها سراح الأطباء اليهود المتهمين بمحاوله تسميمه».

الأكثر من ذلك ــ وكما أسلفنا في فصل الثورة الروسية ــ أن النظام الستاليني كان مسؤولاً عن انتشار طاعون القومية اليهودية الثورية في جميع أنحاء أوروبا الشرقية وغيرها من الأماكن بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن قائمة أسماء القادة السوفييت الذين يمكن وصفهم بأنهم يهود في السر قائمة طويلة لا متناهية. فقد كتبت مجلة التايم بتاريخ 5 أيار 1958 أن نيكيتا

---

[1] كتاب «تناقض صهيون» تأليف دوغلاس ريد.

خروتشيف أقر للسفير الإسرائيلي جوزيف أفيدار بأن زوجة الرئيس السوفييتي كليمينتي فوروشيلوف يهودية، وأن زوجات نصف أعضاء اللجنة التنفيذية يهوديات. كما كتبت المجلة أن لخروشتشيف ابنة يهودية بالتبني، أما مجلة الصحافة اليهودية الكندية فقالت إن ليونيد بريجينيف كان متزوجاً من يهودية، وقالت جريدة التايمز اللندنية في شهر تشرين الثاني 1982 «**إن أندروبوف يتحدث اللغة اليديشية بطلاقة**».

يشير هذا كله إلى أن اليهود في الأجواء الأوروبية لم يشعروا بأنهم عرق منفصل، ويرحبون بتزويج بناتهم من أبناء الطبقة العليا في البلاد المضيفة، ليضيفوا نسلهم ــ إن أمكن ــ إلى المجتمع اليهودي. فاليهودي فقط هو الذي يتزوج من امرأة غير يهودية وينجب منها أولاداً يشطبون نهائياً لعدم إمكان قبولهم كيهود.

يتميز اليهود على أسس عرقية في البلدان التي تنتمي بشكل واضح إلى عرق مختلف. ففي بلدان ما يسمى العالم الثالث ــ كأفريقيا والهند مثلاً ــ يقوم اليهود بإبعاد بناتهم عن «**نجاسات الطبقات الراقية**» التي تنشأ حديثاً هناك، كما أنهم لا يعرضون الزواج على الزنجيات في الولايات المتحدة.

قضية العرق، بالطبع، مسألة شديدة التعقيد. فحقيقة أن جميع الأوروبيين من عرق قوقازي لا يعني عدم وجود فروقات عرقية بينهم يمكن إدراكها ورؤيتها. ولتفصيل هذه النقطة، فإن السيفارديم ــ مثلاً ــ يختلفون عن الأشكيناز بشكل ملحوظ، تماماً مثلما يختلف الإنكليز عن الإيرلنديين. إن مفهوم العرق يتضمن دلالة أخرى. فالمجتمعات الباطنية النمو والاستيلاء تكتسب صفات معينة في تطورها العرقي كما يقول البروفيسور كيث[1]. وبهذا المعنى، يميل اليهود ــ حتى لو لم يرثوا عرقاً صافياً نقياً ــ إلى سلوكية العرق المتطور في تصرفاتهم تأثراً بالبلدان المضيفة التي لا يسمحون لها بتذويبهم وامتصاصهم.

---

[1] «نظرية جديدة في التطور الإنساني» تأليف السير آرثر كيث.

الفصل 4

تمويـل مالـي ونظـام عالمي جديـد

«لقد غدا الغرب مشلولاً بفعل تآكل الفكر الأخلاقي الفاسد فيه، الذي تسبب في جعل النخبة المفكرة السياسية عندنا تتعاطف وتدعم العناصر التي تعلن بكل جرأة أن هدفها تدمير الغرب»

ريتشارد كلارك

خبير في تقنيات الإرهاب

الدور اليهودي في الغرب عند معظم الناس، ليس أكثر من «**أحجية يلفها الغموض والسرية ضمن لغز غامض وسري**»، كما في الاتحاد السوفييتي بعد الثورة الروسية، حين تحولت الأحجية عملياً إلى لغز لا يمكن فهمه واختراقه، بفعل نظام إرهاب فكري معقد أبعد الموضوع عن دائرة الحوار العلني العام.

لكن المتواليات الناتجة عن ذلك يمكن رؤيتها في كل مكان، ويتم استعراضها بين الحين والآخر، كما فعل فيلمون روبرتسون في كتابه «**الأغلبية المفقودة**». والأغلبية عنده هم بالطبع «**البروتستانت البيض الأنغلوسكسونيون**» الذين اكتشفوا أمريكا وأوجدوها.

* * * *

ثمة حقيقتان لا يرقى إليهما الشك، على جانب كبير من الأهمية، هما:

1 ــ الفكرة المثالية في إقامة «نظام عالمي جديد»، التي قدمها الاتحاد السوفييتي منذ الإطاحة بالنظام القيصري في روسيا عام 1917، والتي تشكلت نسخة طبق الأصل ماثلتها في الغرب، كما تتماثل العجلتان المتقابلتان على محور واحد.

2 ـ الحضور اليهودي في كل أنحاء الغرب، والتفافه بشكل موحد ومستمر حول هدف تعزيز قومية يهودية، وفكر صهيوني، تمحور حول مركز جغرافي، وتجسد على شكل دولة إسرائيل.

يبقى سؤال لابد من الإجابة عنه، هو: ما الدور الذي لعبته الصهيونية ـ إن كان لها دور على الإطلاق ـ في تحويل عجلة الغرب نحو مطمح العالم الواحد؟

ليس هناك من جواب عن هذا السؤال، سوى جواب واحد يمكن استخراجه من فهم وتفسير موحد لتاريخ بلادنا. إذ كيف يمكن تأمل الدور اليهودي وبحثه بشكل صحيح إلا في المناخ العام لمركز الأحداث الذي كتبت عنه البرفيسورة آريندت؟[1]

للمعرفة نوعان: الأول معرفة العالم، بمعنى الكون الكبير، خارج ذواتنا. والثاني معرفة المملكة، بمعنى الكون الصغير، داخل ذواتنا. بكل مطلقية لا محدودة للمعرفة بنوعيها.

كلما عرفنا أنفسنا أكثر، سهل علينا معرفة العالم. وكلما عرفنا العالم أكثر، سهل علينا معرفة أنفسنا، ومعرفة أعماق ذواتنا، ومعرفة سلسلة حاجاتنا التي لا تنتهي.

نحن لا نحتاج إلى المزيد والمزيد من المعرفة المجردة من أجل تقوية وتثبيت مواقفنا كأفراد، بل نحتاج إلى معرفة متماسكة ذات معنى تجمع بعضنا إلى بعض. إننا بحاجة إلى تفسير واضح لتاريخ العصر الذي نعيشه، وبحاجة إلى بصيرة لمعرفة ما يجب أن يكون لدينا، إذا ما أردنا أن نعيش بصحة جسدية وروحية.

المقطع التالي هو من كتاب من تأليف ثلاثة مؤرخين جامعيين، صدر عام 1949، يصلح لأن يكون منطلقاً في بحث ما وصفوه بأنه «**عصر النزاع**»:

«حربان عالميتان تخللتهما حروب وثورات وأزمات، يمكن الآن رؤيتها كفصول مسرحية درامية جرت في عصر نزاعات بدأت في عام 1914

---

[1] «أصول وجذور الدكتاتورية» تأليف حنّه آريندت.

ولم تكتمل مسيرتها بعد. إنه العصر الذي حمل إلى العالم من التغيرات المأساوية ما لم يحمله عصر آخر في التاريخ المكتوب. ومع ذلك، وأياً كان مغزاه وعاقبته، فنحن ننظر إليه الآن ونكتب عنه كحقيقة تاريخية».

إن عصور النزاعات التي يجب النظر إليها «**كحقيقة تاريخية**»، يجب أن تكون قابلة للتفسير والفهم كحقيقة تاريخية. ولهذا، فلابد أن يتوفر لدينا مختصر مكثف ومبسط لتاريخ قرننا العشرين، إذا ما أردنا لسلسلة فصول هذا النزاع المأساوي أن تفهم، وأن ينظر إليها كحقيقة تاريخية.

والمنهج الذي اخترته هو البدء بلائحة تصنيفية للروايات والبيانات التي يمكن تطويرها وتوسيعها ودعمها بسيرة حياة شاملة، وإليكم قائمة بهذه الروايات:

1 ـ النزاع في القرن العشرين هو أحد نواتج التحالف بين المال والفكر، بوضع يبقى الفكر فيه دائماً خاضعاً للمال، ويعمل في خدمته، بعد أن أصبح المال في القرن العشرين المصدر الأول الرئيس للسلطة.

2 ـ إننا بحاجة إلى اكتشاف وتعريف التغيرات التي تحصل في عالمي المال والفكر، والتي جعلت هذا القرن يختلف كثيراً عن قرون التاريخ المكتوب الأخرى.

3 ـ التغيير الذي حصل في عالم المال، هو أن هذه التجمعات الكواكبية من الرساميل المالية التي انفصل بعضها عن بعض وتم توجيهها بشكل قومي قد عادت إلى الالتحام في مجموعة كواكبية واحدة ضخمة، تخدم تشكيلة مصالح بعيدة المدى.

4 ـ أما التغيير الذي حصل في عالم الفكر، من استبدال الأصولية المسيحية بفكر اشتراكي، أصبح بمثابة إطار فكري مجمع عليه لمرجعية ونظام القيم. هذه الاشتراكية، أو لنقل الديانة العلمانية، هي السبب في ظهور ما وصفه عالم النفس كارل غوستاف بأنه «**وباء نفساني شائع**»، انتشر الآن في صفوف الطبقات المثقفة في العالم الغربي.

5 ـ التغيزات التي حكمت قرن النزاع الذي عشناه، ظهرت لأول مرة واضحة مرئية في جنوب أفريقيا بأواخر الثمانينات، متسببة في إشعال الحرب

الأنغلوبويرية (هي الأولى من ثلاث حروب نشبت بين الأخوة في الغرب)، التي كانت بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية، وبداية قيام إمبراطورية سلطة المال، والسباق مع الشرق، والاشتراكية القومية الصهيونية.

6 ــ هذه التغيرات في الفكر والمال، قادت شعوب الغرب إلى مصيدة جدلية، المال فيها فرضية طريحة، والاشتراكية فرضية نقيضة، والسلطة الجديدة جميعة الاثنتين. المال فيها يركِّز السلطة ويجمّعها، والاشتراكية تبشر بتشتيت سلطة المال وإعادة توزيعه، وهذا التناقض في النتيجة يزود السلطة الجديدة بفعاليتها وديناميكيتها.

7 ــ عملية تحول سلطة المال هذه إلى سلطة إمبراطورية جديدة، اكتملت في الثلاثينيات من القرن العشرين، حين فقد ج.ب. مورغان والعائلات العريقة الرائدة في أمريكا نفوذهم وهيمنتهم في وول ستريت.

8 ــ السبب المباشر لتعاظم النزاع في كل أنحاء العالم، هو التصادم الخارجي مع النظام الديني، أو بعبارة أخرى هو تآكل النظام الديني بين الجماعات العرقية واختراقه، في كل مكان قامت فيه دولة وتأسس فيه نظام للحكم، مع عدم وجود «**حق طبيعي**» يبرر وجودهما. هذا التصادم بين الجماعات هو الذي جعل فصول ومشاهد النزاع في القرن العشرين تختلف عن مثيلتها من نزاعات القرون الأخرى، رغم اشتراك هذه النزاعات كلها في الدلالة والمغزى.

9 ــ جميع هذه التطورات ارتبطت بمزيد من كوارث نظام مالي فاسد، في مجال جمع الأموال وإقراضها، كانت الدول الغربية فيه هي المعتدية وهي الضحية في الوقت ذاته.

إن بوسعنا أن ننظر إلى عصر النزاع لدينا كحقيقة تاريخية. ولكن، ما الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأنه حصيلة مجموعة أسباب مستمرة ومتشابهة ومتطابقة؟

يستطيع دارسو التاريخ أن يقدموا أمثلة لا تحصى عن المؤثرات، وأن يعزلوها بعضها عن بعض من حيث زمن وقوعها، لكن ذلك سيعطينا في النهاية شرحاً سطحياً وتفسيراً مبسطاً إلى حد كبير.

ليس في التاريخ فقط يمكن العثور على أحداث منفصلة ممتدة في المكان والزمان، وجمعها في وحدة ذات معنى. فمنذ بضع سنين، مثلاً، وعلى مدى عدة شهور، جرى فحص وملاحظة أحوال جوية غريبة في كل أنحاء العالم، كانت تتبعها كوارث في معظم الحالات. وسرعان ما استطاع علماء الأرصاد الجوية اقتفاء أثر سببها، أو مجموعة أسبابها، وتمكنوا، مثلاً، من البرهنة على أن العواصف والفيضانات والأعاصير ومواسم الجفاف مرتبطة ببعضها، وأن لها معنى جمعياً موحداً واضحاً يمكن فهمه. ولا حاجة بنا إلى القول بأن علماء الأرصاد الجوية لم يتوقفوا في بحوثهم واستقصاءاتهم عند شاخصات لمناطق لا يجوز الدخول فيها، من النوع الذي يقف عنده الباحثون في الظواهر الغريبة للمناخ السياسي بكل أنحاء العالم، محاولين فهمها وتفسيرها.

ليس هناك ما يدعونا إلى افتراض أننا سنعثر على شرح تفسيري لعصر نزاعاتنا، يسهل عرضه وفهمه كما هي الحال في تقرير الأرصاد الجوية، لكن هناك بالتأكيد ما يدعونا إلى الأمل بأننا كلما رأينا ـ في كل أنحاء العالم وعبر جميع العقود ـ شكلاً معيارياً للكوارث المتوالية، أن نجد معه دليلاً على وجود شكل معياري مماثل للأسباب التي أدت إلى تلك الكوارث.

والمطلوب هو شرح تفسيري لأحداث قرننا العشرين، يوضح الأهمية المشتركة المتبادلة للتغيرات الحاصلة، هذه التغيرات التي أدت إلى مزيد من النزاع المأساوي غير المسبوق في التاريخ المكتوب. من بين الكتب القليلة التاريخية التي حاولت تفسير أحداث قرننا هذا كحقيقة تاريخية، يأتي كتاب «**انحطاط الغرب**» تأليف أوزوالد سبينغلر، وكتاب «**مأساة وأمل**» تأليف كارول كيغلي.

يتمثل الإسهام التاريخي الهام لسبينغلر في نظريته عن التشكل التاريخي، التي يحدد فيها لحضارتنا الحالية في الغرب مصيراً لا يمكن تفاديه هو الأفول والانحطاط. لكنه في الجانب المقابل، وبشكل متناقض، لا يعتبر ذلك تشاؤماً في وجهة النظر. ثمة حقيقة واقعة تبدو في غاية الوضوح عند سبينغلر، هي أن ما حصل في القرن العشرين يجب النظر إليه ودراسته على أنه تجمع حلف مالي، وتحالف بين المال والفكر يعتبر القوة المحركة للشؤون العالمية، وليس مجرد أحداث سياسية.

أما كيغلي، فيترك كثيراً من الأمور دون شرح وتوضيح، ولعله يفعل ذلك عامداً، لكنه يدعمها بكمية كبيرة من الأدلة الوثائقية، تأكيداً لنظرية أن ما حصل في قرننا عن سابق عمد وتصميم كان لابد أن يحصل. إنه يقدم لنا في الواقع نظرية تآمرية تاريخية تشكل عدداً من المنظمات السرية وشبه السرية، مثل اتحاد رودس للمنح الدراسية، وحركة المائدة المستديرة، والمعهد الملكي للشؤون الدولية، والمجلس الأمريكي للعلاقات الخارجية، وكلها تندرج تحت مظلة ما يسميه «**الشبكة الأنغلوأمريكية** » لرجال الأعمال والمثقفين والسياسيين والصحفيين.

يزودنا كيغلي، الذي عمل أستاذاً للتاريخ والعلاقات العامة في مدرسة جورجتاون للخدمات الخارجية في مدينة واشنطن، بمعلومات أخرى جيدة التوثيق لم يسبق لأحد أن وضعها في تفسير تاريخي عام لأحداث قرننا. لكن كتاب «**مأساة وأمل**» سرعان ما يتم سحبه من قبل ناشريه ــ شركة ماكميلان ــ بحجة أنه بالغ كثيراً في وضع تفسير لتاريخ قرننا، مما سبب إحراجاً لأولئك الذين يفضلون العمل تحت عباءة السرية. كتب كيغلي في كتابه يقول:

> *«إنني على معرفة بعمليات هذه الشبكة، باعتباري درستها على مدى عشرين عاماً، وبسبب السماح لي مدة سنتين بتفحص وثائقها وملفاتها السرية. أنا لا أحمل أي كره للشبكة أو لأهدافها، وأمضيت معظم حياتي قريباً منها ومن أدواتها. ولقد اعترضت في الماضي. ومازلت أعترض على بعض سياساتها... لكن اختلافي معها في الرأي بشكل عام يتلخص بأنها ترغب بالبقاء مجهولة، وأنا أعتقد بأن دورها في الأحداث التاريخية هام وبارز، وبأنه يستحق أن يعرف»*.

نظرية أن معظم ما حدث كان لابد له أن يحدث، وافق عليها بكل تفاصيلها مؤرخ آخر، هو آرنولد توينبي، إنما ليس في مؤلفه الخالد «**دراسة في التاريخ**»، بل في ندواته وخطاباته العامة. والسطور التالية كمثال عليها، اقتطفت من ورقة قرأها توينبي في المؤتمر السنوي الرابع لمعهد الدراسات العلمية للعلاقات الدولية في كوبنهاغن بشهر حزيران من عام 1931 (نشرتها مجلة العلاقات الدولية في عدد كانون الأول 1931):

«إننا نعمل حالياً بتحفظ وحذر، إنما بكل طاقاتنا لتمريق وانتزاع هذه القوة التي تدعى «السيادة» من أيدي الحكومات الوطنية والدول في كل أنحاء العالم. وننكر طوال الوقت بأفواهنا ما نعمله بأيدينا، لأن مسألة الطعن في سيادة واستقلال دول العالم مازالت تعتبر «هرطقة» تمس المقدسات، قد لا تؤدي بالسياسي أو الإعلامي إلى أن يصلب ويحرق، لكنها بالتأكيد تقود إلى نبذه من المجتمع وتشويه سمعته.

ومن الواضح تماماً أن تجريد العديد من الدول من سيادتها واستقلالها خلال القرن العشرين، يمثل عند كيغلي وتوينبي جزءاً متمماً لفكرتهما المثالية عن «**عالم جديد شجاع**» يقوم بشكل مخطط ومدروس باستمرار على أطلال وخرائب العالم القديم، هو عند كيغلي «**عالم أمل**» يحل محل «**عالم مأساة**»، وعالم تغير ثوري مدروس يحل محل عالم فوضوي بطيء التطور.

أين ومتى بدأ عصر النزاع هذا؟ يقول المؤرخون الجامعيون الثلاثة المشار إليهم آنفاً، إنه بدأ في عام 1914 مع الحرب العالمية الأولى. لكن هناك أسباباً تدعو للاعتقاد بأنه بدأ مع حرب البوير (1898-1902) التي نرى فيها بكل وضوح بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية في العالم، وعلامة على قيام إمبراطورية أخرى من نوع غريب بتولي العرش بعدها.

وإذا جاز لنا القول بأن قرن النزاعات بدأ مع حرب البوير، فإن جنوب أفريقيا يعتبر فرصتنا المثلى لنرى بمزيد من الوضوح التغير التاريخي الهام الذي أطلق شرارة سلسلة تغيرات انعكاسية هائلة شملت العالم بأكمله.

حتى ذلك الوقت، كان سجل الإمبراطورية البريطانية للأرقام القياسية في تطور مستمر، لا يعكر صفوه سوى بعض المستعمرات الأمريكية هنا وهناك. فقد تفوقت بريطانيا في القرن التاسع عشر على جميع المنافسين في حلبة السباق الاستعماري، وكان بمقدورها في نهايات هذا القرن أن تفخر بأنها «الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس».

لكن الأفريقيين ـــ أو البويريين كما كانوا يسمونهم ـــ الذين شقوا طريقهم بعربات تجرها الثيران من كيب كولوني إلى جنوب أفريقيا النائية غير المأهولة، وجدوا أنفسهم فجأة، في صدفة تاريخية بحتة، أصحاب أغنى حقول الذهب في العالم. وكان توق القوميين العرقيين إلى ضم جمهورية البوير

الجديدة في ترانسفال إلى الإمبراطورية البريطانية أمراً يمكن فهمه. إنما في ظل الفكر والعاطفة السائدين وقتها، انتهت محاولة الاستيلاء على هذه الجوهرة الغالية بشكل لم يخطر على البال.

فبعد حرب لم يتوقع أحد كلفتها على صعيدي الأرواح والأموال، نجحت بريطانيا بأن تضم ترانسفال إلى إمبراطوريتها، مع حليفتها في الصراع جمهورية البرتغال الحر، لكن ذلك تم في ظروف غامضة مختلفة عن تلك التي واكبت جميع الغزوات الاستعمارية السابقة. فقد كانت حرباً انقسم فيها الشعب البريطاني داخلياً إلى أن أطلق البويريون رصاصتها الأولى. كانت حرباً جرى فيها تحذير الحكومة البريطانية من إشعالها، وجاء هذا التحذير من أحد أكبر المخلصين الموالين للإمبراطورية، الجنرال السير ويليام باتلر، الذي كان وقتها رئيس القوات البريطانية في جنوب أفريقيا. كانت حرباً أثارت سيلاً متدفقاً من الاتصالات المزيفة هو الأكبر من نوعه في تاريخ الاستعمار البريطاني[1].

ثمة أمر مختلف بلا شك في هذه الفرصة المغرية على مزيد من التوسع الاستعماري، أوضحه الكاتب الشهير ج.أ. هوبسون في كتابه «الحرب في جنوب أفريقيا»، حين كانت الحرب ماضية في مسارها:

> *إننا نقاتل من أجل توطيد سلطة مجموعة صغيرة حاكمة من أصحاب المناجم ومضاربي البورصة في بريتوريا. والبريطانيون يحسنون صنعاً حين يدركون أن المقدرات الاقتصادية والسياسية لجنوب أفريقيا حالياً ــ وستبقى كذلك على الأرجح مستقبلاً ــ في أيدي غرباء من أصل أجنبي، تجارتهم وأموالهم ومصالحهم ليست بريطانية.*

ولقد ثبتت اليوم صحة هذا التخمين بشكل لا ريب فيه. فقد كتب توماس باكينهام في كتابه «**حرب البوير**» الصادر عام 1979، يقول عن أسباب تلك الحرب:

> *هناك أولاً خيط ذهبي رفيع نسجته «عناكب الذهب»، ومليونيرية الراندات* المسيطرون على أغنى المناجم في العالم، قاد المؤرخين إلى*

---

(1) انظر «السيرة الذاتية للجنرال السير ويليام باتلر» بقلمه.

* الـ Rand عملة محلية كانت متداولة في جنوب أفريقيا. المترجم

افتراض عدم وجود أية مصلحة مباشرة لدى عناكب الذهب بإشعال نار الحرب، لكن الواقع يدل على أن لديهم مصلحة مباشرة في ذلك... فلقد عثرت على دليل لتحالف غير رسمي بين السير ألفريد ميلنر، المفوض السامي، ومؤسسة فيرنهير ـ بايت المهيمنة على دار سك الراندات وإصدارها. وهذا التحالف هو الذي ـ في اعتقادي ـ أعطى ميلنر القوة للمبادرة في إعلان الحرب.

يكرس هوبسون فصلاً كاملاً من كتابه لأصحاب المناجم في ترانسفال. بعض الممولين الرواد الأوائل كانوا من الإنكليز، يسمّي هوبسون من بينهم رودس و رود و ج. ب. روبنسون. هؤلاء جميعاً صنعوا ثرواتهم في جنوب أفريقيا، لكن الآخرين، مجموعة الممولين الدوليين وأغلبهم من أصل ألماني وعرق يهودي، كانوا أثرياء بالفعل حين جاؤوا إلى البلاد حاملين معهم أرصدة تمويلات مالية لا حدود لها في أوروبا، من بينهم بنك دريزدنر الألماني، الذي يعتقد هوبسون بأن معظمه ملك لمؤسسة فيرنهير ـ بايت. كان على رودس أيضاً أن يتجه إلى أسرة مصرفية دولية، هم آل روتشيلد في لندن، التماساً لتمويلات مالية يتمكن معها من شراء منافسيه، ومن بسط هيمنته الكاملة على صناعة الماس في كيمبرلي.

كان الجنرال السير ويليام باتلر أكثر حزماً وتركيزاً في مجال مصادر السلطة ودوافعها المحركة، التي كان لها دور حاسم في إعلان الحرب، وكانت كما يسميها باتلر نفسه «الجذور المغذية للبارود السياسي». فقد كتب في رسالة عاجلة إلى المكتب الحربي يقول:

إذا استبعدنا اليهود من المسألة، فإن من السهل بمكان التوصل إلى اتفاقية، لكن من الواضح أنهم ينوون إغراق البلاد في حرب أهلية... إن جميع الدلائل هنا تشير بما لا يقبل الشك إلى وجود تيارات خفية قوية، يميل محركوها إلى إشعال حرب لا تهمهم كلفتها ونتائجها، في سبيل أنانياتهم ومصالحهم الخاصة.

قليلون الذين لاحظوا ـ والأقل منهم هم الذين فهموا ـ أثر هيمنة الإمبراطورية البريطانية في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة، وخروجه من أيدي البريطانيين. أو بعبارة أخرى، خروج مركز الثقل للسلطة الحقيقية في العالم من

القبضة البريطانية بشكل بارز واضح. هذا هو التغير الخفي الذي أثار ردود أفعال سلسلة من التغيرات، في الإمبراطورية البريطانية أولاً، ثم في كل أنحاء العالم. وبعبارة أكثر تحديداً، كان ذلك أول إشارة واضحة إلى بدء عملية تغير على صعيد التمويل الرأسمالي، التي ما كان مقدراً لها أن تكتمل قبل منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين.

ثمة تغيرات أخرى أقل أهمية ولفتاً للنظر، أبرزها التغيرات المتطرفة في منهجية الحرب. فقد تحول العقل الإنساني إلى ساحة لمعارك المصالح، بشكل لم يسبق له وجود في التاريخ المكتوب. كانت هناك ـ كما يقول فون كلاوسفيتز في كتابه «الوسائل الأخرى للحرب» ـ حروب سياسية لا تنقطع، إنما ليس بالمستوى الذي كانت عليه بعد حصول التغير مع بداية القرن، حيث تشكلت القناعة دائماً بوسائل تهيئة الناس للحرب. ولكن كان على العالم في أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر أن يواجه كمًّا هائلاً لا عهد له به من الدعايات الكاذبة تم توظيفها لجر الشعب البريطاني إلى حرب البوير.

هذا الفساد الأخلاقي الأثم الجديد، أو لنقل القديم بوجوده والجديد بضخامة حجمه، نزل كالصاعقة على رأس الجنرال باتلر، الذي كتب لوزير المستعمرات بتاريخ 18 كانون الأول 1898 قائلاً:

«إن جميع الإشكالات السياسية في جنوب أفريقيا، وجميع المعلومات المرسلة من كيب تاون، قد جرت فبركتها على يد ما وصفته من قبل بأنه «مؤسسة صحفية ضخمة» تنشر المعلومات الزائفة».

أما هوبسون، فقد كتب في كتابه «الحرب في جنوب أفريقيا» يقول:

«يعتبر جنوب أفريقيا مثالاً فريداً من نوعه لصحافة ضخمة يملكها ويسيطر عليها ويديرها مجموعة صغيرة من الرجال هدفها المباشر إحداث نزاع يخدم في المستقبل مصالحها التجارية».

بحدس وبصيرة نبوية، كتب هوبسون كتاباً بعنوان «**سايكولوجية التعصب القومي**»، يرقى ـ حسب قول أحد محللي التوظيفات الدنيئة للدعاية ـ إلى مرتبة كتاب جورج أورويل «**ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون**».

ثمة القليل من التغيرات التاريخية لابد من ذكرها من أجل مقاصدنا الحالية، هي: حرب البوير، الحرب العالمية الأولى، الحرب العالمية الثانية، الثورة البولشيفية، نشوء الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى صناعية وعسكرية، تفكك الإمبراطوريات الاستعمارية، تحول المستعمرات السابقة إلى دول جديدة قليل منها قابل للنمو والحياة اقتصادياً، تسليم الأراضي في الصين مع مناطق شاسعة أخرى من الشرق الأقصى لحكم الاشتراكيين الدكتاتوريين، إنشاء هيئة الأمم المتحدة بمنظماتها ووكالاتها كنموذج أساسي متطور لشكل الحكم في العالم، وأخيراً ضعف وتفكك السيادة القومية لدى جميع الدول الغربية.

الملفت للنظر هو أن السنوات الأولى من القرن العشرين واكبتها ظاهرة ظلت سمة واضحة بارزة من سمات عصر النزاعات، هي ظاهرة معسكرات الاعتقال السياسي كرمز لوحشية متنامية يشترك فيها المدنيون مع العسكريين في الخطوط الأمامية من كل نزاع مسلح.

إننا بحاجة لمعرفة ماهية التغيرات العميقة الخفية في العلاقات الإنسانية، التي أثارت سلسلة ردود فعل المآسي والنزاعات في كل أنحاء العالم. وكما سنحاول أن نبين لاحقاً، فإن هذه التغيرات العميقة المتجذرة حصلت في مجالين منفصلين تماماً، هما المال والفكر. ولهذا، دعونا نبدأ بالتغير الكبير الذي طرأ في عالم المال.

مع نهاية القرن التاسع عشر، بدأ المال يأخذ معنى جديداً ويلعب دوراً جديداً في العلاقات الإنسانية، حين بدأ الاقتصاد يهيمن على السياسة، ولابد هنا من تعريف هذين العنصرين وتوضيحهما كمصدرين أساسيين من مصادر التقييم والتحريض والهيمنة على مستوى القيادة.

السياسة وظيفة اجتماعية تعنى وتهتم بخير المجتمع وصالحه العام، في المدى البعيد والمدى القريب. ومع أن للمتطلبات الاقتصادية أهمية دائمة فيها، إلا أن دورها مجرد دور داعم أو ثانوي. أما الاقتصاد ــ الذي هو قسم من أقسام السياسة ــ فيهتم حصراً بمتطلبات الرخاء والتقدم الاقتصادي، ويفترض أوتوماتيكياً أن كل حسنٍ في مجال التجارة والأعمال حسنٌ في مجال المجتمع ككل. وهذا موقف فكري يمنع ويلغي عملياً كل الاعتبارات الأخرى.

إن ماحصل في نهاية القرن التاسع عشر، إذن، ليس أمراً مفاجئاً. ويجب النظر إليه بالأحرى كوضع تم الوصول إليه عبر عملية تطورت ببطء خلال قرن سبقها. إن حرب البوير ليست فقط علامة بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية، بل هي أيضاً علامة بداية نهاية سيادة التمويل المالي القومي في جميع أنحاء العالم الغربي، هذه النهاية التي بلغت أوجها في الثلاثينيات من القرن العشرين، حين تمت الإطاحة بالأسر الكبرى الرائدة الأمريكية ـ وعلى رأسها ج.ب. مورغان ـ عن عرش هيمنتها في وول ستريت.

في حقل العلاقات بين السياسة والتمويل المالي سادت أمور شديدة التعقيد، حتى قبل وقت قصير من نشوب الحرب العالمية الثانية، يمكن شرحها بشكل موجز في السطور التالية.

كان هناك دائماً، داخل دول العالم الغربي، عائلات توارثت الحكم في مجال المصارف والبنوك، مثل آل روتشيلد وفاربورغ ومونتفيوري وغيرهم، يقدمون القروض للحكومات، ويتخصصون بعمليات التمويل المالية بين الدول وعبر الحدود، إلا أن هذه العائلات لم تكن مندمجة ومتوحدة في نظام دولي يستطيع الهيمنة على السياسة بمستوى دولي وعالمي.

كانت معسكرات التمويل المالي هذه، رغم نفوذها وتأثيرها الدائم، تفتقر إلى القدرة على التحكم بسياسات الدول، إلا أن كل واحدة منها على حدة ظلت جزءاً هاماً، وكوكباً من كواكب فلك السلطة المالية، وكان ذلك وضعاً يتلاءم إلى حد كاف مع الظروف السائدة، حتى نهاية القرن التاسع عشر، تمكنوا معه من فرض نفوذ وتأثير هائل على الصعيدين القومي والدولي، إنما ليس إلى حد السلطة الحاكمة المهيمنة التي حازوها فيما بعد.

من قبيل التناقض، أن أصحاب الأموال غير اليهود ـ رغم ما حققته عائلات الصيارفة اليهود من مواقع قيادية هائلة في مجال التجارة العالمية ـ هم أول من أرسى أسس التمويل المالي الدولي، بفضل ثرواتهم الخاصة وهيمنتهم على السياسات داخل دولهم. هذه الحقائق الواقعة يزودنا بها الدكتور كارول كيغلي قائلاً:

لقد تمثلت ذروة النظام ببنك المستوطنات الدولي في مدينة بازل بسويسرا، وهو مؤسسة مصرفية خاصة يملكها ويحكمها عدد من البنوك المركزية في العالم، التي هي بدورها مؤسسات خاصة، وكل بنك منها برئاسة رجال مثل مونتاغيونورمان.في بنك إنكلترا، وبنيامين سترونغ في بنك الاحتياطي الفيدرالي بنيويورك، وتشارلز ريست في بنك فرنسا، وهيالمار شاخت في بنك الرايخ، يسعى إلى الهيمنة على حكومته من خلال القدرة على التحكم بالقيود في وزارة المالية، وإلى التعامل مع التغيرات الخارجية ومعالجتها، وإلى التأثير على السياسيين المتعاونين عن طريق مكافآت اقتصادية متتابعة في المجال التجاري العالمي.

(من كتاب «مأساة وأمل»).

يمضي كيغلي قدماً في مزيد من الشرح، ليوضح أن آل روتشيلد كانوا متفوقين مبرزين خلال معظم القرن التاسع عشر، لكنهم مع نهاية القرن «**تركوا مكانهم لـــ ج.ب. مورغان**» في مقره الرئيسي بنيويورك، حيث يجري العمل كما لو كان في لندن، «**مسقط رأسه الأصلي، حيث أنشأته شركة جورج بيبودي وشركاه في عام 1838**».

عملية تجميع «**المعسكرات**» المالية الوطنية المتفرقة في معسكر عالمي واحد، اكتملت في الثلاثينيات من القرن العشرين، وكان من جملة نتائجها التاريخية قيام الرايخ الثالث في ألمانيا، واندلاع الحرب العالمية الثانية، وما تلاه من اشتراك الولايات المتحدة واليابان في الحرب، وقيام الجمهورية الشعبية الماركسية اللينينية في الصين.

يزودنا البروفيسور كيغلي بالكثير من الحقائق حول التحول النهائي لمركز الثقل في السلطة المالية، ويبدأ حكايته بهذه الكلمات المتشائمة:

المرحلة الثالثة للرأسمالية على درجة كبيرة من الأهمية والتميز في تاريخ القرن العشرين، وكانت نتائجها وآثارها على درجة كبيرة من التشعب والغموض والاستعصاء على الفهم، مما نجد معه عذراً في تكريس اهتمام أكبر بتنظيماتها من جانب وبمناهجها وأساليبها من جانب آخر.

إنها قصة تم جمعها من أكداس الوثائق وأكوام مستندات الوقائع، قصة عملية تغير حصل في الولايات المتحدة بدءاً من الفترة السابقة للحرب العالمية

الأولى، التي وصفها فيلموت روبرتسون فيما بعد بأنها «**فترة ضياع الأغلبية الأمريكية**»، وصولاً إلى ما سمّاه كيغلي «**انحراف في كل المستويات، بدءاً من تغير نكهة ومذاق المسلسلات الهزلية في الصحف... وانتهاء بالتغير الكبير في الروابط السلطوية داخل المؤسسة الأمريكية**».

منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة محكومة من خلف الكواليس بنظام حكم بلوتوقراطي مدعوم بثروات العائلات الأمريكية الرائدة الكبرى، مثل روكفيللر وكارنيجي وفاندربيلت وميلون وديوك وويتني وفورد ودوبونت وغيرهم، الذين يشكلون مجموعة فلكية سلطوية يدور في مسارها ج.ب. مورغان ومركزه المصرفي. هذه «**المؤسسة الشرقية**» وصفها كيغلي بأنها «**مؤسسة بروتستنتية، محبة لإنكلترا، اشتراكية قومية، أشبه برابطة للدراسات والبحوث، أوروبية الوعي الثقافي**»، ثم قارنها وشبهّها بمؤسسة مماثلة على الجانب الآخر من الأطلسي يراس مونتاغيو نورمان الجانب المصرفي منها. وقد عملت هاتان المؤسستان يداً بيد وأصبحتا معروفتين باسم «**المؤسسة الأنغلو ـ أمريكية**». ويحدثنا كيغلي عن:

تحول ج.ب. مورغان نفسه من شريك مغمور في مؤسسة قامت عام 1861، إلى حامل أسهم في شركة عامة محدودة عام 1940، ثم تلاشيه نهائيا بعد أن ابتلعته شركة الضمان المتحدة في فرعها المصرفي عام 1959.

يقول كيغلي إن أقل مضمون واضح للتغير الحاد في وول ستريت، تجسد في إدراك مجموعة مورغان أنها لم تعد تملك الأصوات الكافية في مجلس الأمناء بجامعة كولومبيا لتسمية خلف للدكتور نيكولاس موراي باتلر، رئيس الجامعة المستقيل.

بكلمة مختصرة واحدة، لقد خرجت الهيمنة على الثقافة الأمريكية بصمت من أيدي عائلات أمريكا الرائدة الكبرى، هذه الثقافة التي وصفها كيغلي بطريقة مدروسة حذرة بأنها «**بروتستنتية، محبة لإنكلترا، أوروبية الوعي**»، بدلاً من أن يصفها بأنها لم تكن يهودية.

سقط وول ستريت في أيدي رجال المال الدوليين مثل حبة خوخ يانعة، بعد أن خاضوا معركتهم الحقيقية وربحوها في مجال السياسات البرلمانية بفضل مناهج مازالت مطبقة كممارسة معيارية في العالم الغربي، من بينها تمويل

الأحزاب السياسية في سياساتها والتأثير على الرأي العالم عبر الصحف المعتدلة وعبر الإذاعة والأفلام وتجارة الكتب، إضافة إلى اختراق الحركات الاتحادية عبر تمويلها والتأثير عليها.

تلك كانت إحدى طرق الاستيلاء على مقاليد الأمور، التي استطاع حكام أمريكا السريون الجدد أن يغروا بها البلدان ذات الخبرة والممارسة في حقل النضال من أجل البقاء في تشتت وتمزق.

في البداية، أخذ كسوف شمس سلطان العائلات الأمريكية الكبرى شكل قوانين ضريبية، بدءاً من شرائح ضريبة الدخل المتدرجة الصادرة عام 1913، ورفع ضريبة التركات التي دفعت بثروات العائلات الكبرى إلى ملجأ مؤسسات التخفيض الضريبي. وفقد مورغان ورفاقه السيطرة على الحكومة الفيدرالية، بعد أن حلَّ محلهم بكل خبث ومكر حليف آخر في مجال المال والفكر. ولما كان هذا الحليف المالي والفكري البديل يتصرف بنفس الطريقة والأسلوب ــ أياً كان المهيمن صاحب السلطة ــ فقد كان من الصعب رصد التغير وتتبع مراحله.

اشتغلت مجموعات مورغان على نطاق ضيق في الشؤون السياسية لليسار المتطرف، ولم تتردد في محاولة الحصول على موطيء قدم في روسيا بعد الثورة البولشيفية. لكنهم في هذه اللعبة لم يكونوا أنداداً لمنافسيهم اليهود. وكانت النخب المتنافسة في وول ستريت كلها يلهبها الطموح لفكرة «**نظام عالمي جديد**» التي كانت وجه الشبه الوحيد بينهم.

كانت المؤسسة الأمريكية الأصلية ــ مثل خصومها البريطانيين ــ تتطلع إلى «**احتواء**» الاتحاد السوفييتي بحكامه الاشتراكيين، وابتلاع كامل الإمبراطورية الروسية في نظام عالمي جديد، وإقامة أساسات لإمبراطورية بريطانية يسيطرون عليها باعتبارهم الورثة الوحيدين لما كان يحلم به رودس.

أما المؤسسة الأخرى، المؤسسة الشرقية الجديدة، فكانت تتطلع إلى «**بناء**» اتحاد سوفييتي عملاق على الصعيدين الصناعي والعسكري، يحل محل الإمبراطورية البريطانية كأساس لنظام عالمي جديد.

هذه التطورات في المجال المالي الرأسمالي، وفي المجال السياسي، وصلت إلى ذروتها مع نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين، متزامنة مع هياج عنيف شمل كل أنحاء العالم الغربي ببزوغ ظاهرة اجتماعية وصفت عن طريق الخطأ بأنها «**معاداة للسامية**»، والأستاذة حنه آريندت في كتابها «**جذور الدكتاتورية**» تشير إلى ذلك بعبارة بليغة وصريحة فتقول:

«لقد دفعت التطورات السياسية في القرن العشرين بالشعب اليهودي إلى مركز الأحداث العاصفة... وأصبحت المسألة اليهودية ومعاداة السامية العامل المحفز الأول على ظهور الحركة النازية، وعلى قيام مؤسسة الرايخ الثالث... ثم على نشوب حرب عالمية لم ينشب ما يوازيها من حيث الضراوة.

أما هنري فورد، الذي أمضى سنين عديدة وهو يدين كبار الصيارفة بكل قسوة ويعتبرهم أعداء طبيعيين للقطاع الخاص الصناعي، فقد أصبح الآن يميز ويفرق بشكل واضح بين مؤسسة مورغان، التي وصفها بأنها «**بنّاءة**»، ومنافسيها الذين وصفهم مورغان ذاته بأنهم «**مشعلو حروب**»، مثل خصومه في لندن ومن بينهم مونتاغيو نورمان المعروف بكرهه لليهود. أحاديث الأب كوفلين الإذاعية، وكتابات الأب دينيس فاهي، والجهود المسعورة لتشارلز ليندبيرغ لإبقاء أمريكا خارج الحرب، ونشاطات أوزوالد موسلي ورفاقه من أصحاب القمصان السوداء في بريطانيا، كانت كلها ردود أفعال على ظهور الشعب اليهودي «**في مركز الأحداث العاصفة**» من سياسات القرن العشرين.

إن ما تعنيه هذه الأحداث التحذيرية، هو أن هناك تمركزاً قوياً لسلطة المال اليهودي بدأ يظهر فجأة، وبدا وكأنه سيحكم سيطرته في الغرب.

ثمة طيف آخر من أطياف الهيمنة السياسية خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لابد من دراسته وبحثه بشكل مستقل، هو أفكار المستقبل التي كانت شائعة وقتها في صفوف الطبقات الحاكمة البريطانية.

كان سيسيل جون رودس واحداً من أكبر ذوي النفوذ والفعالية في التاريخ الإنكليزي، لكنه كان بالإضافة إلى ذلك خيالياً حالماً، يرى فيه الصديق والعدو صورة فارس يوسع الخطى نحو القارة الأفريقية، وكان مشهوراً بقدرته على إثارة الهمم وبعث الولاء لدى الآخرين. إلا أن العامل المحرك الموحّد المثير

للطاقات في مجالات الفكر لم يكن رودس، بل كان جون راسكين أستاذ الفنون الجميلة في جامعة أوكسفورد، الذي سلّح جيلاً من الشبان بفكر ديني إصلاحي يهدف لخلق عالم أفضل وأكثر سعادة، تم تصوره امتداداً تطبيقياً لمفهوم التحضر الإنساني لدى الإمبراطورية البريطانية، وعلاقة صحبة وزمالة بين دول حرة مستقلة يجمعها مبدأ مثالي نظري مجرد صار يعرف فيما بعد باسم «**الفكرة الإنكليزية**».

إن بالإمكان استقصاء أثر الروحانية السحرية التي أثارتها تلك الأفكار، والوصول إلى سببها الوحيد: فكرة «**عالم شجاع جديد**» يسوده النظام والخير لكل البشر جرى تقديمها بديلاً لفكر أصولي متدين مضى عليه وقت طويل وهو يتهاوى ويتفتت تحت تأثير «**حركة تنوير علمية**». ونحن مع هذه الفكرة أمام شيء يحيي الحس الدقيق المحرِّك لمعنى الهدف والطريق، وأمام فكر يكرس التوسع الاستعماري ويحرك عامل التقدم الفردي لدى جميع المؤمنين به.

كان هذا الفكر ــ كمعتقد علماني ــ قوياً وفعالاً إلى حد أنه استمال الكثيرين للإيمان به في كل أنحاء العالم الغربي، بما فيهم قادة البوير السابقين مثل الجنرال لويس بوتا، الذي أصبح أول رئيس وزراء في جنوب أفريقيا، والجنرال جان كريستيان سماتز، الذي استسلم لسحر هذا الفكر الروحي.

تأتي المعايير العملية لقياس تأثير هذا الفكر السياسي على شكل سلسلة عمليات، من بينها مؤسسة رودس للمنح الدراسية، وحركة المائدة المستديرة شبه السرية، والمعهد الملكي للشؤون الدولية، والمجلس الأمريكي للعلاقات الخارجية، وغيرها.

تلك كانت بلا ريب مسألة عرقية، أثارت على جانبي الأطلسي ردة فعل أرستقراطية عرقية. فقد كتب رالف دوران، في كتاب له عن جامعة أوكسفورد صدر عام 1909، يقول:

> *إن سيسيل رودس من أوربيل، سلطان الحالمين الخياليين، الذي يؤمن بأن تحقيق السلام في العالم مرهون بأيدي رجال يجري في عروقهم الدم التيوتوني الألماني، وضع في وصيته فقرة من أجل إحداث منح دراسية في أوكسفورد تعطى لمواطني الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية*

الألمانية والولايات المتحدة، **(انظر كتاب «أكسفورد: بأبنيتها وحدائقها» تأليف رالف دوران ونشر غرانت ريتشاردز، لندن).**

لم يكن الخطأ القاتل في هذا الفكر عيباً في الجانب الفني أو العلمي في السياسة، ولا خللاً في التمويل المالي، بل يعود إلى أن مساحة الأرضية المعرفية لم تكن كافية للاستكشاف والبحث، في المجال الميتافيزيقي تحديداً. ولقد وضع كيغلي يده على مفتاح حل تلك الأحجية، حين قال إن كل بنك من البنوك المركزية في مختلف البلدان والدول **«كان يسعى إلى الهيمنة على حكومته، وإلى التأثير على السياسيين عن طريق مكافآت متتالية في عالم التجارة والأعمال»**.

وهذا يعني وجود خطأ فعلي في مختلف هيئات ومؤسسات السلطة في الغرب، فكلها تجمعها صفة واحدة مشتركة تتمثل في نظام أرباح وقروض، وتسعى إلى فرض نفوذها عن طريق صور ومضامين للفساد لا حدود لتعقيدها.

لقد بات المال معياراً متطوراً لجميع الأمور، وراح نفوذ النخب الحاكمة يتقلص قليلاً عن الأرض وكثيراً عن العمل ومكتب عقد الصفقات. وأصبحت الأمم في الواقع دولاً بلوتوقراطية تحكمها طبقة أثرياء، قادرة على الاحتفاظ بالسلطة بفضل رأي عام لا يقوم على التشاور كما كان من قبل، بل بفضل رأي عام تقوم الصحافة والمعونات والمكافآت المتتالية في عالم التجارة والأعمال بتشكيله حسب المطلوب.

هذا التحول والانعطاف في مجال المال نحو الرأي العام والدعم، حصل في بريطانيا على يد رودس وميلنر وشركائهما من «**عناكب الذهب**»، بعيداً عن جميع الاعتبارات الأخلاقية. وكشّر المال عن أنيابه، وبدا واضحاً ما يستطيع المال أن يفعله.

كان من المحتوم ــ والحالة هذه ــ نتيجةً لصراعٍ لم يكن الأثرياء من غير اليهود يرون فيه صراعاً، قيام تمويل مالي أجنبي موحد متماسك له أهداف سياسية على المدى الطويل، يتنامى تأثيره على سياسات مختلف الدول «ويزيح أصحاب الأموال غير اليهود ليحل محلهم في إدارة مؤسسة مصرفية جديدة عالمية».

أما العقول المثقفة المفكرة، المشبعة بفكر راسكين العلماني في دعوته لإقامة «عالم جديد» على أسس إمبراطورية بريطانية، فلم تجد ــ فيما يبدو ــ صعوبة في تحويل ارتباطها وحماسها إلى فكر جديد أوجده ورسمه ماركس وأنغلز.

تضم ثلاثية أنطوني ساتون ــ وول ستريت والثورة البلشفية، وول ستريت وظهور هتلر، وول ستريت والريخ الرابع ــ كمية ضخمة من المعلومات، لكن ما أغفلته وأسقطته كان أكثر. فمن بين ما أسقطته تحديداً عبارات حنه آريندت الوصفية الصائبة مثل **«العامل المحفِّز» و «مركز الأحداث العاصفة»**، أي أوصاف دور الشعب اليهودي في السلطة السياسية خلال القرن العشرين.

كان كل ما يهم ساتون هو أن هناك دائماً «مؤسسة وول ستريت» واحدة، تم إنشاؤها لتحمل مسؤولية تمويل الثورة البلشفية، ثم بعد ذلك تمويل صعود هتلر إلى السلطة في ألمانيا.

وهذا تضليل وتبسيط مبالغ فيه للحكاية. فالحقيقة أن وول ستريت، وعلى مدى العقدين السابقين، كانت تعاني مما يشبه انفصام الشخصية، نصفها الأول يمثله مورغان ونصفها الآخر يمثله فاربورغ. صحيح ما زعموه أن وول ستريت ساهمت في تمويل الثورة البلشفية مالياً، لكن النصف الفاربورغي ــ جاكوب شيف تحديداً ــ هو الذي بادر بذلك، بينما تعرض النصف المورغاني لحملات إعلامية حين حاول متأخراً الحصول على حصة من الكعكة. وهناك أيضاً أكثر من دليل يؤكد الجدل حول أن وول ستريت دعمت وصول هتلر إلى السلطة، إنما كانت المصالح المورغانية هي التي فعلت ذلك هذه المرة. ولكن ماذا عن تمويل الحزب الشيوعي؟ مَنْ ــ من غير الممولين الدوليين ــ كان يمول الحزب في الانتخابات الفاصلة بألمانيا عام 1930، التي حقق فيها الشيوعيون نصراً ساحقاً؟.

لقد أصبح بالإمكان الآن رؤية أشرس الصراعات خلال ثلاثينيات القرن العشرين في كل أنحاء الغرب بشكل أكثر وضوحاً، ورؤية المعارك بالوكالة التي قامت من أجل التنافس على السلطة المالية الذي بلغ ذروته بالحرب العالمية الثانية، وانتهى بانتصار الممولين الدوليين.

جاءت معارضة الحرب العالمية الثانية في بريطانيا من البقية الباقية في الجانب البريطاني من المؤسسة الأنغلو أمريكية الأصلية المسمّاة «**مجموعة كليفدين**»، على اسم موطن اللورد أستور.

هذا التفسير سيساعد أيضاً في شرح أحد أغرب الفصول في التاريخ الأمريكي وأكثرها غموضاً، هو قيام محاولة ـ بمساعدة رابطة المحاربين القدماء الأمريكية والقوات المسلحة ـ لإقامة «**أسلوب فاشي**» ديكتاتوري في البيت الأبيض.

لقد تم نشر أخبار المؤامرة موجزة على الصفحة الأولى من جريدة نيويورك تايمز بتاريخ 21 تشرين الثاني 1934، وتشكلت لجنة من الكونغرس للتحقيق في هذه المزاعم، تلاشت بعدها أخبار المؤامرة من جميع الصحف. وكان من بين المتورطين مجموعة صغيرة من شخصيات، رابطة المحاربين القدماء، ورابطة أخرى تعرف باسم رابطة الحرية، كانتا تعملان فيما يبدو بشكل سري على تشكيل قوة مؤلفة من 500.000 رجل. وعرض قادة العملية الأمر على اللواء سميدلي د. باتلر، الحائز على أعظم أوسمة البطولة العسكرية، إنما ليس هناك أي دليل حقيقي يثبت موافقته على المضي قدماً مع المتآمرين.

الأمر البارز الملفت للنظر، أن القائمين على السلطة من غير اليهود وأصحاب الأموال والمؤسسات التجارية الكبرى الذين اتهموا بأنهم وراء العملية، كانوا على علاقة بشكل أو بآخر مع ج.ب. مورغان مثل غرايسون مورفي مدير شركة الضمان، وجاكسون مارتندل المساهم في شركة ستون أند ويبستر الحليفة لمورغان، وشركة دوبونت، وشركة ريمينغتون للأسلحة التي تسيطر عليها دوبونت، ومؤسسة مورغان ـ هاريمان للتمويل المالي. ولهذا، فقد جازف المورغانيون من ماليين وصناعيين، بعد أن وجدوا أنفسهم محبطين ومهزومين في وول ستريت، باتخاذ تدابير يائسة ضد خبراء المال الدوليين، كما حصل في إيطاليا وألمانيا.

ومع استمرار المجموعات الوطنية المتفرقة للسلطة المالية، حتى نهاية القرن الماضي، في التنافس زاحفة للاستيلاء على المستعمرات، كان مطلوباً من المجموعات المالية المندمجة على أساس عالمي في القرن العشرين تفكيك وتقسيم جميع الإمبراطوريات الاستعمارية، والاستعاضة عنها بدويلات جديدة

لا يحصيها العد، بشكل لا تتمكن معه دول الغرب المتفرقة إلا أن تلعب دوراً مؤثراً صغيراً، أو لا يكون لها تأثير على الإطلاق.

ومن هنا، يجب التمييز بكل وضوح بين سرعة وحجم التغير والنزاع القائم في العالم حتى عام 1939، حين كانت الإمبراطورية الجديدة مازالت في طور الإنشاء. فقد زادت سرعة وحجم التغير والنزاع بعد ظهور الإمبراطورية الجديدة التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية.

لقد كان التغير الثوري الذي حصل في عالم المال هائلاً.

الفصل 5

الصـــراع فــي وول ستريــت

هذا ما فهمه لينين وأدركه تماماً !! لقد فهم أن الأفكار المجردة لوحدها لن تدفعكم إلى الأمام، وأنكم لا تستطيعون صنع ثورة دون قوة وسلطة، وأن المنبع الأول للقدرة والسلطة في زمننا هو المال، وأن كل أشكال القوة الأخرى من تنظيم وأسلحة، وشعب قادر على استخدام الأسلحة في القتل، تأتي من المال.

ألكسندر شولتز هينيتسين

«لينين في زيوريخ»

كتب بنيامين دزرائيلي، رئيس وزراء الملكة فيكتوريا يقول:

لا يجوز أن يغفل أحد ــ ولو قليلاً ــ عن المسألة العرقية. إنها مفتاح الدخول إلى تاريخ العالم. وهي على وجه التحديد الدقيق السبب في افتقار التاريخ المكتوب إلى الوضوح، هذا التاريخ الذي كتبه أناس لا يفهمون المسألة العرقية وما يتصل بها ويعود إليها.

وقبل أن نمضي في استخدام كلمة **«العرق»** لابد من توضيح وتحذير. فقد تقدم علم دراسة أصل الإنسان فيزيولوجياً وتفوق كثيراً خلال القرن العشرين، شأن علم الفلك في عصر آخر، بسبب مكتشفاته التي تعارضت مع متطلبات السلطة الحاكمة. العرق، من الناحية التقنية، مجموعة من البشر تتكاثر بالزواج من بعضها حفاظاً على صفاتها. والعرق لا يتم تعريفه وتحديده بدرجة التشابه العضوي المخزون في جيناته، بل بالمناهج والأساليب التي يتبعها في مقاومة التحلل والذوبان. ومن هنا، فإن شعباً خليطاً من مجموعة عروق وجينات، كاليهود مثلاً، يمكن أن تظهر عليه صفات عرقية قوية واضحة. لقد كانت كلمتا **«العرق»** و **«الأمة»** في عصور العهد القديم مترادفتين عملياً.

ولهذا، فإن موضوع العرق أو الأمة هو ما يجب بحثه ودراسته عند الحديث عن المال والتمويل والخبرات المالية.

لقد لخص البرفيسور السير آرثر كيث، الذي شغل ذات يوم منصب رئيس الجمعية البريطانية للتطور العلمي، بعبارة واحدة مضامين فصلين كاملين من كتابه «**نظرية جديدة في التطور الإنساني**»، قال فيها:

إنني أرى بعد التأمل والدراسة أن الصفات العرقية لدى اليهود متطورة بشكل أقوى مما هي عليه لدى أي شعب قوقازي آخر.

ويدعم كيث رأيه المعلن هذا بمقتطفات وشواهد من العديد من النصوص الأخرى، إنما يجب أن نلاحظ وأن نقف عند استخدامه تعبير «**شعب قوقازي**» أنه يرفض بذلك فكرة أن اليهود «**شعب سامي**».

إن هؤلاء الذين تطورت الصفات العرقية لديهم بشكل قوي، تطور لديهم وعي حاد ولاهب بالنوع، تماماً مثل الخنازير عند جورج أورويل في «**مزرعة الحيوانات**» الذين يقتتلون فيما بينهم أحياناً إلى درجة الذبح، لكنهم يميزون دائماً أنفسهم عن باقي الحيوانات الأخرى.

أما الدكتور كارول كيغلي، الذي عمل مؤخراً أستاذاً للعلاقات الدولية في مدرسة جورجتاون الشهيرة بواشنطن، فلم يحاول في كتابه التاريخي الهام «**مأساة وأمل**» دراسة وبحث الدور اليهودي «**المحفز**» في تاريخ قرننا. والواقع إنه لم يكن لديه في صفحات كتابه الألف وثلاثمئة ما يقوله عن اليهود، سوى ما كتبه عن إعلان قيام إسرائيل، حتى أن فهرسه المؤلف من 36 صفحة لم يتضمن كلمة «**صهيونية**» أو كلمة «**صهيوني**».

ومع ذلك، قامت شركة ماكميلان، كناشرة للكتاب، فجأة بوقف توزيعه حين اتضح لدى دوائر المؤسسة أنه يتضمن كمية كبيرة من المعلومات، بعضها من مصادر سرية، قد يتمكن الدارس المتأمل الحصيف بفضلها من استنتاج الجوانب العرقية في تاريخ القرن العشرين. وسواء أكانت تلك براعة ماكرة قصد بها الدكتور كيغلي أن يجعل كتابه مقبولاً فدفعه إلى مؤسسة نشر هامة كبيرة، أم كانت بلاهة ساذجة منه فافترض بكل اطمئنان أنه قادر على إلقاء هذا القدر من الضوء على أنشطة وسياسات من بيدهم مقاليد السلطة المالية، فنحن لا يمكننا أن نعرف

أبداً أيهما هو الصحيح، إلا أن كيغلي أثبت ــ كما أثبت آخرون قبله ــ أن هناك نظام رقابة مسيطر في الغرب، ليس ظاهراً وواضحاً مثل ذلك الذي تم تطبيقه خلف الستار الحديدي الشيوعي، لكنه لا يقل عنه فعالية وتأثيراً.

إن أكثر كتب التاريخ تعرضاً للمنع والإبعاد عن رفوف المكتبات، هي التي جرت فيها محاولات دراسة وبحث وشرح ذلك «**الدور اليهودي المحفِّز**» أو بعبارة أخرى، ذلك «**العامل العرقي**».

لهذا السبب، نحن ننوي توضيح وشرح عبارة دزرائيلي عبر دراسة مقارنة لكتابين حديثين تاريخيين يغطيان الفترة ذاتها ويعالجان الموضوع ذاته، هما: «**وول ستريت وظهور هتلر**» تأليف أنطوني ك.ساتون، و «**من موّل هتلر؟**» تأليف جيمس وسوزان بول. وسيمر خلال الدراسة ذكر كتابين آخرين لساتون. هما: «**وول ستريت والثورة البلشفية**» و«**وول ستريت والرايخ الرابع**».

1 ـــ المؤرخ المحترف:

يقر الدكتور ساتون بكل صراحة بوجود شيء مفقود ناقص في كتبه عن وول ستريت، فيكتب في أحدها، هو «**وول ستريت وظهور هتلر**»، على ص 167، قائلاً:

> *«أما لماذا أرادت النخبة في وول ستريت، أي الممولين والخبراء الماليين الدوليين، لروزفلت وهتلر أن يكونا في السلطة؟ فذلك جانب لم ندرسه ونستكشفه». ويمضي إلى ص 174، ليثير مسألة ما إذا كانت مؤسسة النخبة الحاكمة في نيويورك «قوة تخريب مدمرة» تحاول عامدة طمس الدستور وتعطيله والقضاء على حرية المجتمع، ثم يضيف أن النظر في هذه المسألة «سيكون على رأس المهمات في العقد القادم».*

هذه الـــ «**لماذا**» تحديداً هي التي اعتبرها جورج أورويل في كتابه «**ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون**» أهم نقطة على الإطلاق، حين استعار عبارة كتبها وينستون سميث في مذكراته السرية «**أستطيع أن أفهم الآن. كيف أنني لم أفهم لماذا**».

إن بوسعنا أن نكتشف بسهولة «**ما حدث**» و «**كيف حدث**»، لكننا **لن** نحقق شيئاً إن لم نكتشف «**الدوافع الحقيقية**» عند صانعي «**ما حدث**».

يكتب ساتون، في جميع صفحات كتبه الثلاثة، وكأن اليهود الآن ـــ كوجود عرقي ـــ ليس لهم من الظهور والأهمية التاريخية أكثر مما لمجموعات الغجر أو الأسكيمو. وانطلاقاً من استبعاده على هذا النحو العامل العرقي، أو الهوية العرقية، فهو لا يشعر بما يدعوه لشرح وجواب: لماذا كان ماكس فاربورغ هو الوحيد الذي تم استثناؤه بعد الحرب العالمية الثانية، في الوقت الذي حوكم فيه جميع المصرفيين الألمان ـــ بما فيهم أعضاء المجلس الاستشاري والإداري لمؤسسة فاربن إمبراطورة الصناعة ـــ بصفتهم «**مجرمي حرب**».

ثمة حذف مشطوب آخر أكثر أهمية في كتاب «**وول ستريت وظهور هتلر**»، هو عدم ورود أي ذكر فيه للتمويل المالي الذي جرى تقديمه «**لحزب متطرف آخر**» في ألمانيا، حقق بفضله انتصارات مذهلة في انتخابات أيلول من عام 1930، هو الحزب الشيوعي تحديداً، الذي قام بالثورة الداخلية التي وضعت نهاية مفاجئة للحرب العالمية الأولى، ثم انطلق بعدها للعمل على صعيد قوي وشامل كحزب سياسي رسمي مسموح به. إن من المنطقي المعقول افتراض أن في هوية ودوافع ممولي هتلر ما يوضح لنا سبب قيامهم بهذا التمويل، وأن في هوية ودوافع ممولي الشيوعيين ما يجعلنا نفهم ذلك أيضاً.

وبدون هذه المعلومة وما نستخلصه منها من استدلالات، سنجد أنفسنا مع كتاب ـــ مثل كتاب «**وول ستريت وظهور هتلر**» ـــ يضم قدراً كبيراً من المعلومات الموثقة والمدروسة بعناية فائقة، إلا أنها غير مجدية ومثمرة، تشوش حكايات التاريخ بدلاً من أن تجلوها وتوضحها، وحسب تعبير ساتون نفسه، «**مصممة لتخفي بين طياتها نسيجاً مضللاً فاسداً وسلوكاً غير أخلاقي**».

من جهة أخرى ـــ كما سنحاول أن نبين ـــ فإن المعلومات التي يزودنا بها ساتون لها بعض القيمة لكونها تحمل نصف الحقيقة، إنما بعد جمعها في تركيبة واحدة مع النصف الآخر. وجانب الخطورة هنا، هو في قبول كتب

ساتون عن وول ستريت كرواية متوازنة موضوعية للعوامل المؤثرة في السياسات الحديثة ترسخ «**التضليل والسلوك غير الأخلاقي**». يعلق ساتون قائلاً:

لقد قطع كيغلي شوطاً طويلاً ليزودنا بدليل عن وجود نخبة حاكمة، إلا أنه لم ينفذ إلى أعمال هذه النخبة. ولعل المستندات التي استخدمها قد تم فحصها مسبقاً، أو لعلها لا تحوي معلومات موثقة عن مناورات النخبة في أحداث مثل الثورة البولشيفيكية، وارتقاء هتلر سدة السلطة، وانتخاب روزفلت في عام1933.

لقد أخفق ساتون بشكل واضح برؤية عدد كبير من الوقائع غير المزوقة والملونة في كتاب كيغلي، تعطينا جواباً منصفاً للسؤال الذي قرر أن يتركه دون بحث: (**لماذا أرادت النخبة في وول ستريت لروزفلت وهتلر أن يصلا إلى السلطة؟**).

لقد تجنب ساتون أيضاً المسألة العرقية، لكن الملفت للنظر أن جميع أصحاب وخبراء المال في وول ستريت الذين يذكر أسماءهم باستمرار هم من غير اليهود، والذين يشكلون جزءاً فقط من عالم السلطة المالية والصناعية بما فيهم ج.ب. مورغان. وهؤلاء بالذات هم نخبة أصحاب وخبراء المال الذين يلومهم على إنجاح الثورة البولشيفيكية وعلى التعجيل في اندلاع الحرب العالمية الثانية.

إن ما لم يحدثنا ساتون عنه، وما نحن بحاجة لمعرفته أكثر من أي شيء آخر، هو أن تتبع التغيرات الثورية الهامة في قرن نزاعاتنا يقود إلى نخبتين من أصحاب وخبراء المال، يصعب فصلهما نظراً لكونهما غالباً ما تعملان بتوافق منسجم، وجدتا نفسيهما بعده وقد نشأت بينهما علاقة خصام متنام وتنافر شديد منذ عام 1930 تقريباً، الأولى نخبة يهودية والأخرى غير يهودية.

ويكاد ساتون يسلِّم بوجود هاتين النخبتين في وول ستريت حين يقول إن هنري فورد قسَّم أصحاب وخبراء المال إلى طبقتين، الأولى «**بنّاءة**» والثانية «**مدمّرة**». تمثلت الأولى في شخص ج.ب. مورغان، وتمثلت الثانية بالآخرين «**من صناع الحروب الحقيقيين في العالم**». إلا أنه يتابع الكتابة بعد ذلك عن أصحاب وخبراء أموال في وول ستريت يجمعهم صنف واحد متجانس التركيب لا حاجة معه إلى التمييز بين اليهودي وغير اليهودي.

إن اختزال قصة طويلة في أخرى قصيرة، سيثبت في النهاية أن الحرب العالمية الثانية كانت مجرد صراع بين نخبتين من أصحاب وخبراء الأموال، الأولى ــ بما فيها القطاع الرئيسي لوول ستريت ــ تستخدم الألمان كوكلاء لها، والأخرى ــ في قسم آخر من وول ستريت ــ تستخدم أعداء ألمانيا.

إننا بحاجة لمعرفة حقيقة ما حدث، لأن ــ كما عبّر جورج أورويل بعبارة محكمة بليغة ــ «**من يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي، ومن يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل**».

بعبارة أخرى، إننا لا نستطيع أن نأمل بالاقتراب من فهم ما يحدث الآن، ما لم نعرف ما حدث في الماضي، وإذا لم نفهم ما يحدث الآن، خسرنا كل سيطرة على ما سيحدث لنا في المستقبل.

نحن نعرف أن الألمان انهزموا في الحرب العالمية الثانية، ولكن ماذا كانت نتائج الصراع الحقيقي بين نخبتي أصحاب وخبراء الأموال؟ هذا سؤال لابد من جواب عليه، إذا أردنا فهم ما يحدث الآن، والأخطار التي يجب تفاديها.

إلا أننا، قبل أي شيء آخر، بحاجة إلى معرفة الوضع الناشئ الذي تحولت فيه نخبتا أصحاب وخبراء الأموال إلى ندّين متخاصمين في حرب عالمية. وما سيأتي في الفقرات التالية لا يزيد عن رواية مختصرة لما حدث، نجد مثيلاً موافقاً لها عند كيغلي في كتابه «**مأساة وأمل**».

على مدى عدة قرون، كان النشاط المالي الدولي حكراً على عائلات يهودية توارثت العمل المصرفي، وكان آل روتشيلد أشهر هذه العائلات وأكثرها نفوذاً وسلطاناً. إلا أن النظام الرأسمالي في السنوات الأولى من القرن العشرين كان مندمجاً ومتماسكاً تماماً على أسس دولية.

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أدى التطور الاقتصادي غير المسبوق في الولايات المتحدة الأمريكية ــ الذي تم بمعظمه بقيادة أسر الرواد مثل روكفيلر، وكارنيجي، وفورد، وآستور، وغيرهم ــ إلى ظهور تطور مماثل في العمل المصرفي على يد نفس الفئة من الناس مثل ج.ب مورغان، أشهرهم وأبرزهم. ولقد حصل الأمر ذاته في بريطانيا وأوروبا، حيث قادت الهيمنة غير اليهودية على رؤوس الأموال الخاصة، وعلى المشاريع

الصناعية، إلى قيام نقاط تمركز للرأسمال الوطني، استطاعت الأسر اليهودية المصرفية أن تستثمرها وتتعامل معها، لكنها لم تستطع الهيمنة عليها والتحكم بها.

لابد أن نتذكر أن التوجه نحو التصنيع في الغرب كان على وجه الحصر نتيجة الابتكار والإبداع لدى المؤسسات التجارية ذات العرق الأوروبي. ولهذا، فنحن لا نجد أسماء يهودية بين أسماء مؤسسي الإمبراطوريات الصناعية الكبرى، سواء في مجال النفط أو الفحم أو الحديد أو الفولاذ، وفي مجال السكك الحديدية أو السفن أو السيارات أو الطائرات أو الكهربائيات والكيمياويات وغيرها. لقد كان النمو في ناتج الثروة لدى المسيحيين، من غير اليهود، ذوي العرق الأوروبي ضخماً ومفاجئاً، لكن عمر تفوقهم في مجال التمويل المالي كان قصيراً.

كبيرة هي الثروة الجديدة التي تشكلت، وخلقت سلطة مالية جديدة غير يهودية، استطاع معها أشخاص مثل ج.ب. مورغان ومونتاغيو نورمان أن يحلوا محل السلطة المالية اليهودية التي كانت أسرة روتشيلد تشكل ذروتها، فنتج عن ذلك صراع معقد في أماكن كثيرة مختلفة. وكان أحد العوائق التي أوقفت تقدم أصحاب وخبراء الأموال غير اليهودية من صنع وهندسة منافسيهم اليهود بفضل تعاظم تأثيرهم ونفوذهم في أجهزة الإعلام، ودورهم المباشر في السياسات الحزبية وحركات الاتحاد التجاري، وساعدهم على ذلك فرض ضرائب التركات والشرائح التصاعدية للدخل التي استهدفت الأسر الغنية غير اليهودية بشكل خاص والطبقة المتوسطة بشكل عام.

وحين سمحت النخبة غير اليهودية لنفسها، بعد ذلك، أن تبتلع طعم إقامة نظام مصرفي مركزي يملكه القطاع الخاص في جميع بلدان الغرب، كانت الطاولات قد انقلبت والأمور قد انحسمت، وبدأت النخبة غير اليهودية تفقد أرضيتها بمعدل ينذر بالخطر في معركة التنافس بين النخبتين. كان المحرض الأول على إقامة مثل ذلك النظام المصرفي المركزي في الولايات المتحدة هو بول فاربورغ سليل الأسرة الألمانية ــ اليهودية المعروفة.

أدرك المورغانيون فوراً أن منافسيهم سرقوا منهم تفوقهم بتوجيه وتمويل الثورة الروسية، ولم يضيعوا الوقت، بل حاولوا أن يحصلوا على «دور لهم

فيها». لكن ج.ب. مورغان قام بتمويل الحركة المضادة للثورة بقيادة الأدميرال كولشاك وجيشه الأبيض، وكان يناسبهم تماماً أن يقلبوا الطاولات على البلاشفة وعلى من يمولهم.

أما في ألمانيا، فكان الوضع مختلفاً. فرغم العداء التقليدي لجميع أشكال القومية الألمانية، رأى الصيارفة غير اليهود من بريطانيين وأمريكيين في ظهور الحركة الاشتراكية القومية فرصة سانحة للفوز على منافسيهم الذين موّلوا وساهموا في قيادة الثوار الماركسيين. ألم يكن هناك سبيل آخر أمام المورغانيين يستطيعون عبره أن يدافعوا، أو يستعيدوا مكانتهم في المجال الرأسمالي الدولي؟، الجواب: كلا !! السبيل الوحيد الممكن لخوض المعركة ضد الهيمنة اليهودية المسبقة كان مغلقاً أمامهم، لأنهم في سلوكهم كشركاء منتفعين من نظام مصرفي مركزي تخلوا عن المنظور الأخلاقي الذي كان يمكن أن يخوضوا من خلاله معركة من هذا النوع. لقد غاص المورغانيون كثيراً في أقذر أشكال السياسات التمويلية المالية، حتى أنهم حاولوا مجاراة المنافسين اليهود في السيطرة على مراكز الحركات اليسارية المتطرفة عن طريق شرائها، بما في ذلك فروع الحزب الشيوعي في بلدانهم.

أما هنري فورد الصناعي العصامي المستقل ـ بالمقابل ـ فقد جاء ليهاجم من يعتبرهم أعداءً له ولبلاده، دون أن يخفي تعاطفه السابق مع الألمان قبل الحرب العالمية الثانية.

الأمر الذي لم يكن يسمح لشعوب الغرب أن تعرفه، هو كيف يمكن لمؤسسة **«أنغلو أمريكية»** وصفها كيغلي بأنها **«بروتستانتية ذات ثقافة أوروبية»** وتسعى قبل كل شيء آخر إلى منع الحرب ضد ألمانيا، أن تبذل ما بوسعها لدعم وتقوية الحركة الاشتراكية القومية كخندق حماية في وجه استيلاء شيوعي على مقاليد الأمور برعاية وتمويل يهودي، وأن تساعد ألمانيا على التسلح حين بدت الحرب أمراً لا يمكن اجتنابه. إن كل هذه الوقائع الحقيقية موجودة في كتاب كيغلي **«مأساة وأمل»** الموصوف بأنه **«تاريخ العالم في زمننا»**، ومتاحة لكل من يريد الحفر عنها ورؤيتها، ثم وضعها في لوحة واحدة.

إن بإمكاننا ـــ مسلّحين في أذهاننا بالصورة الشاملة الواسعة التي زودنا بها كيغلي ـــ أن نخرج من كتب ساتون الثلاثة بتفسير آخر للأحداث التي أشار إليها ساتون نفسه في كتبه.

فما حدث في وول ستريت خلال ثلاثينيات القرن العشرين، كان خافياً إلا على الذين شاركوا به، لكن النتائج الناتجة عنه سرعان ما بدت ظاهرة للعيان بشكل واضح مثل الربا المسيحي الذي حل محله ربا يهودي. ومن الصعب على المرء أن يعتقد بأن كيغلي لم يكن يتعمد تعرية النوع الجديد من الإمبريالية المالية الذي ظهر، وهو يكتب قائلاً:

لقد حصل هذا التغيير المنحرف الحاد في الاتجاه على جميع المستويات. بدءاً من تغيير الأذواق في مسلسلات المجلات والصحف الهزلية، وانتهاءً بالتغيرات الجوهرية الهامة في المجموعة المترابطة للسلطة المسماة «المؤسسة الأمريكية».

ويتضح ذلك بجلاء في الخط المنحني لتغير ج.ب. مورغان نفسه، من موقع مغمور كشريك في شراكة تأسست عام 1861، ثم تحوله إلى شركة عامة محدودة عام 1940، ثم ذوبانه أخيراً في الفرع المصرفي من شركة الضمان عام 1959.

كانت إحدى أهم النتائج الثقافية للتغير الحاد لمجموعة السلطة في وول ستريت ـــ إن لم تكن أهمها على الإطلاق ـــ هي التحول التسلسلي من نخبة السلطة «**البروتستانتية المحبة لإنكلترا ذات الثقافة الأوروبية**» إلى تسمية رؤساء الجامعات الكبرى في أمريكا، حسب قول كيغلي على ص937 من كتاب «**مأساة وأمل**».

إن إشارة كيغلي المقتضبة إلى «**تغيير الأذواق في مسلسلات الجرائد والمجلات الهزلية**»، وعجز مورغان عن تسمية بديل يخلف الدكتور نيكولاس موراي باتلر في رئاسة جامعة كولومبيا، لا تعني إلا أنه يحاول لفت الانتباه إلى التغيرات المتطرفة في الثقافة الأمريكية، وفي الإعلام، التي جاءت نتيجة مباشرة للانحراف الحاد في الاتجاه في وول ستريت. ثمة وجه إضافي آخر للمعنى ـــ بناء على ذلك ـــ تم إعطاؤه لتعليق أدلى به الدكتور باتلر في حينه، قال:

ينقسم العالم إلى ثلاث فئات من الناس: مجموعة صغيرة جداً تصنع الأحداث، ومجموعة أكبر قليلاً منها تراقب الأحداث وهي تحصل، ومجموعة كبيرة العدد من الدهماء لا تعرف شيئاً مما يحدث.

في الكتب الثلاثة للدكتور ساتون التي تشكل ثلاثية وول ستريت، نجد أنفسنا أمام تجنب كامل «**للعامل العرقي ولكل ما يتصل به**» ـ الذي تحدث عنه دزرائيلي ـ وأمام تضليل تام مركّز يصرف الاهتمام عن أفعال النخبة في وول ستريت التي وصفها كيغلي بأنها «**أوروبية الثقافة، وعالية البروتستانتية**»، والذين يظهرون في كل كتابات ساتون كأصحاب وخبراء أموال مخربين، وكصناع حرب حقيقيين في العالم. فهو يلاحظ ـ متلهفاً إلى عدم الإساءة للنخبة الأخرى في السلطة المالية ـ أن الهدف الدافع لدى جميع أصحاب الأموال الذين دعموا الثورة البولشيفيكية، ثم استمروا بعد ذلك في دعم الاتحاد السوفييتي، كان «**المنفعة وليس الفكر**» أي أن الهدف الدافع لم يكن سياسياً.

لقد تم مؤخراً الاستشهاد بعبارات ساتون كتلميحات لا يقصد بها الإطراء وهو يتحدث عمن يسميهم «**المؤرخين الهواة الذين لم يتمرسوا ويتقنوا تقنيات البحث الحديثة**». إنما يبدو أننا بحاجة إلى حد ما لوجود مثل هؤلاء «**المؤرخين الهواة المفتقرين إلى البراعة**» الراغبين في التصدي ـ غير مشكورين ـ للمهمة الخطيرة، مهمة بناء رؤوس جسور جديدة في التاريخ المنقح يستطيع المحترفون المتمرسون العبور عليها فيما بعد بأمان.

2 ـ المؤرخون الهواة:

في كتاب «**من موّل هتلر؟**» الذي اشترك في تأليفه جيمس بول وأخته سوزان، لا يستطيع المرء أن يحكم بثقة على مدى براعتهما أو بلاهتهما وهما يحفران بحثاً عن الحقيقة التاريخية المحرجة ويقدمانها لنا. فكل ما نعرفه عنهما، هو أن جيمس بول كان مستشاراً في مجال الاستثمارات يعمل في سينسيناتي وأوهايو، وأن أخته أتمت دراساتها العليا في إحدى الجامعات الأمريكية.

لقد لاقى كتابهما ذو الصفحات الخمسمئة قبولاً حسناً حين صدر أول مرة، ونال ثناء المحللين في عدد من المؤسسات الصحفية الهامة، بما فيها النيويورك تايمز التي وصفته بأنه «**أفضل الدراسات المتنورة عن النازية**»، وسان فرانسيسكو إكزامينر التي وصفته بأنه «**كاشف وجيد التوثيق**»، ونيوزداي التي قالت عنه إنه «**جيد الأسلوب وغزير التوثيق**».

هذا الكتاب، رغم صورة هتلر على الغلاف بقبعة رسمية عالية ورغم عبارات الازدراء العديدة عنه كعداء السامية وغيرها، يبدو من مقدمته إلى نهايته وكأنه يحكي عن «**تاريخ آخر**» مصمم لإلقاء اللوم على الشعب الألماني وقادته عن الحربين العالميتين الأولى والثانية معاً. لكن القارئ المتابع سرعان ما يدرك أنه أمام عمل بحثي واع في مجال التحليل التاريخي لا يعني بأية دعاية إعلامية لأي من الأطراف، إضافة إلى صراحته الواضحة بشكل مدهش.

ولعل النموذج العشوائي على سبيل المثال، هو الفصل الذي يتحدث فيه عن هنري فورد ويعالج مسألة العون المالي الذي تم افتراض أنه قدمه للحزب النازي. إذ ليس فيه أي دليل عن تحويلات مالية فعلية، سوى ما أعلنه فورد نفسه من إعجابه الحار بهتلر وحزبه، بينما هناك عدد وافر من الأدلة عن وجود قنوات يمكن للعون المالي للنازيين أن يمر خلالها، لعل هذا ما حصل على الأرجح. إضافة إلى ذلك، كما يعرف كل الأمريكيين، لم تكن هناك شخصية بارزة مهمة خارج ألمانيا تعلق بضراوة عن كرهها لليهود، أكثر مما فعل هنري فورد في جريدته المستقلة «**دير بورن**» وفي كتابه «**اليهودي العالمي**»، وفي دعمه وتشجيعه للآخرين في الولايات المتحدة المعادين لليهود. يروي لنا جيمس بول وأخته حكاية فورد في 45 صفحة بطريقة يصعب على فورد، لو أنه بقي حياً إلى اليوم، أن يجد فيها نقصاً أو خطأً. فالكتاب يروي لنا بالتفصيل ما الذي جعل فورد يعتبر اليهود أعداءً.

إن بالإمكان وصف موقف فورد بعبارة واحدة: لقد وجد نفسه يقاتل بأسنانه وأظافره لمنع نفسه من الانجرار قسراً إلى العمل في مجال القروض المالية، كما فعل معظم الصناعيين الآخرين. ويكتب الأخوان بول قائلين:

اصطدم فورد مع أصحاب الأموال في وول ستريت، ليس على صفحات جريدته وكتبه فقط، وإنما في الواقع المعاش أيضاً.

*يقول المؤلفون إن كثيراً من أفكاره حول أصحاب الأموال اليهود جاء من تجاربه الشخصية المؤلمة مع الصيارفة. ولعل أحد أكثر النزاعات عنفاً بين فورد وأصحاب الأموال حصل في بدايات عام 1921. فقد زعمت الشائعات التي انتشرت في البلاد وقتها، أن فورد يعاني من ضائقات مالية شديدة، وقيل إن النية في وول ستريت اتجهت إلى وضع الحجز على فورد لجعله يركع. وكان العديد من أصحاب المصارف يتوق إلى تزويده بالأموال، وظن البعض أن شركة جنرال موتورز ستحظى بالهيمنة المالية على شركة فورد. إلا أن فورد كان صلباً في رفض المشاركة بسهم واحد من أسهمه. قالت وكالة تيكر للخدمات في سوق الأوراق المالية حسب معيار داو ــ جونز لزبائنها «**لقد وصل هنري فورد إلى أخفض حدوده، ولم يعد بإمكان أحد أن يضع مزيداً من الأموال الاستثمارية في أي من المشاريع المتشابهة التي بدأها**».*

وأعلنت جريدة دينفر بوست تحت عنوان عريض بالحبر الأحمر على صفحتها الأولى: «**معارك فورد مع وول ستريت للحفاظ على موجوداته**». لكن فورد واصل خداعه لأصحاب المصارف، فبادر إلى تخفيض الإنفاق بنسبة كبيرة، وإلى بيع قسم من موجوداته، وإلى جعل العملاء يدفعون نقداً قيمة مشترياتهم من السيارات، مما أجبرهم على الاقتراض تحت طائلة فقدان امتيازاتهم كعملاء.

لم يكتف الأخوان بول بالكشف عن عداء فورد لليهود، بل راحا يرددان العديد من عباراته الاستفزازية التي كان ينشرها وقتها في جريدته وفي كتبه، مثل هذه الفقرة من مقابلة صحفية له: «**حيثما وجدت أمراً مغلوطاً في أي بلد من بلدان العالم وجدت اليهود وراءه... اليهودي بائع جوال لا يعمل لينتج شيئاً، بل ليستثمر شيئاً أنتجه غيره**».

لم يكن ثمة ما يثير حنق فورد أكثر من حصول شخص على شيء ما دون مقابل. يضيف الأخوان بول قائلين:

في سيرته الذاتية التي ألفها حول نفسه، قال فورد إنه يعتقد بألا يسمح لأي إنسان أن يستولي على ما لم يساهم في صنعه، فإذا لم يسهم بصنع شيء

*وجب ألا يحصل على شيء. إنه يرى في أمريكا «**جمعية راهبات غريرات صنعها سماسرة يهود هدفهم الوحيد جمع المال**». وقال في جريدة دير بورن المستقلة أن اليهودي «**ليس له ما يربطه بالأشياء لأنه لا يصنع شيئاً. إنه يتعامل بالأشياء التي صنعها آخرون، وينظر إليها فقط من زاوية ما يمكن أن تحققه من قيمة مالية**».*

من هنا، لم يكن مفاجئاً أن نجد فورد مقتنعاً في ضوء الدور الهام الذي لعبه قادة اليهود في ثورة تشرين الثاني 1918 وأدى إلى استسلام الألمان في الحرب العالمية الأولى، بأن ما رآه في ألمانيا إنما هو صورة مكررة على مستوى الأمة لما حصل معه شخصياً كصناعي مستقل، إنه محاولة ضخمة للهيمنة والاستيلاء على مقاليد الأمور.

نادراً ما يساير التاريخ المكتوب المتطلبات العرقية الأساسية لدى الباحث المخلص الصادق، لسبب بسيط واضح، هو أن معظمه مكتوب بيد المنتصرين ومن أجلهم، لكن حقيقة أن التاريخ في معظمه «**هراء**»، حسب تعبير هنري فورد، لا يجوز أن تحجب عنا حقيقة أخرى أكثر أهمية، هي أن في العالم الغربي دائماً ــ وباستمرار ــ باحثين يحاولون بعد أن تهدأ الأمور وتسكن الغارات أن يضعوا السجل الصحيح لدروس أفضل للجنس البشري.

كان الأخوان بول على قدر كاف من الذكاء، أدركا معه أن المعنى الكامل لفترة ما بين الحربين، التي شكلت موضوع دراستهما، يجب البحث عنه في مضامين تاريخية أكثر عمقاً واتساعاً، انطلاقاً من أن الماضي هو الذي يعطي دائماً معنى للحاضر، إذ لم توجد ــ لا في الحاضر ولا في الماضي ــ مرحلة من التاريخ غير مسبوقة بمراحل قبلها. ومن هنا، سنسقط بالتأكيد في أعماق الخطأ والتشويش لو بدأنا دراسة بحثية ما عن ظهور وتنامي الثورة القومية الاشتراكية في ألمانيا قبل حصولنا على أفكار واضحة عن الحرب العالمية الأولى وأسبابها، وعن معاهدة فرساي التي فرضتها دول منتصرة على خصم مهزوم. دعونا نلقي نظرة على فقرة موجزة وردت لدى الأخوين بول حول هذا الموضوع:

لقد تم توقيع معاهدة فرساي أخيراً من قبل الألمان بتاريخ 28 حزيران 1919، بعد استقالة عدد من المسؤولين الألمان الذين رفضوا وضع

*أسمائهم وتواقيعهم على اتفاقية **«ظالمة»** من هذا النوع. لقد خسرت ألمانيا، على صعيد الأرض 25.000 ميلاً مربعاً في أوروبا يسكنها أكثر من ستة ملايين نسمة، كما خسرت جميع مستعمراتها التي تزيد مساحتها عن مليون ميل مربع. أما على صعيد المواد الخام فقد خسرت 65% من مناجم الحديد، و45% من مناجم الفحم، و72% من مخزونها من الزنك، و12% من مناطقها الزراعية الرئيسية... إضافة إلى شل قدرتها على التحرك للتوسع في أسواق ما وراء البحار، التي أخذ الحلفاء فيها من ألمانيا **«شيكاً على بياض»** تحت اسم تعويضات... بعد التأمل وإعادة النظر، نجد أن معاهدة فرساي كانت أحد أهم وأبرز أسباب فشل الديمقراطية الألمانية.. هل كانت معاهدة فرساي مصممة لتحمي العالم من العسكرتارية الألمانية، أم تم رسمها عمداً لخنق الاقتصاد الألماني وجعل ألمانيا عاجزة عن المنافسة في أسواق العالم؟ للإجابة عن هذا السؤال، يكفي إلقاء نظرة على ما يتعلق بالشحن البحري والسفن الألمانية غير الحربية في المعاهدة... تدعو المعاهدة إلى مصادرة كامل السفن الألمانية وأسطولها العابر للمحيطات... وتسليم جميع خطوط النقل البحرية وقطارات الشحن للحلفاء...*

يستشهد الأخوان بول بمقتطفات من الكاتب الاقتصادي الأمريكي لودفيل ديني، عن أن سعي ألمانيا نحو تحقيق تفوق صناعي وتجاري، اعتماداً على أسطول تجاري ضخم «**هو الذي هدد وأفزع التفوق البريطاني، وكان السبب في إعلان بريطانيا للحرب، إذ لم يكن لديها أي سبب آخر**».

نحن، في كتاب «**من موّل هتلر؟**»، أمام صورة مخيفة لأمة مسحوقة مهانة:

*كان **«تفكيك وسائل الدفاع»** المنصوص عنه في معاهدة فرساي تجربة في غاية المرارة عند العديد من الصناعيين الألمان، لعبت بلا شك دوراً هاماً فيما بعد في قبولهم بهتلر. فقد وقف تاليسين وكروب وكيردورف، وغيرهم من كبار المدراء، عاجزين وهم يرون ثمرة عمل الأجيال تتهدم بلا معنى، وورشات صهر المعادن تغلق أبوابها، وعملية التفكيك تبدأ. كان ذلك عملاً يثير الرعب والاشمئزاز معاً. فتحت وطأة الحر في صيف عام 1920، أجبر العمال على تدمير مصدر رزقهم... صامتين، نادراً ما يتبادل بعضهم الكلام مع البعض الآخر، بينما راح المهندسون من الحلفاء*

يذرعون الطوابق جيئة وذهاباً، يضعون العلامات بالطباشير الملوّن على العدد والأدوات والآلات والمخارط لشحنها إلى الخارج في صناديق، ثم ليبدأوا بعدها بتفجير المكان بالديناميت.

لقد وضع الأخوان بول أمام أعيننا، أن هتلر ما كان ليستطيع النجاح بإقناع الشعب الألماني لقبول ديكتاتورية الحزب الواحد والفرد الواحد، رغم المعارضة الشديدة التي لقيها من الصناعيين قبل غيرهم، لولا الأوضاع المخيفة المقيتة التي سادت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

ثمة حقيقة تاريخية تم تقليل شأنها في الغرب إلى حد تكاد معه أن تنطمس، هي أن الشعب الألماني كان عليه في النهاية أن يختار بين نظامين استبداديين: النظام النازي، ممثلاً بالاشتراكية القومية. أو النظام الشيوعي، ممثلاً بالاشتراكية الأممية.

في الانتخابات المؤثرة بأيلول من عام 1930، التي جاءت صدمةً لنظام المستشار الألماني هنريخ برونينغ، «**كان الحزبان المتطرفان، النازي والشيوعي، هما اللذان حققا نصراً مؤزراً في صناديق الاقتراع**». هذا ما قاله الأخوان بول، لكننا لا نجد لديهما أية إشارة أو محاولة للكشف عمن كان يمول الشيوعيين، رغم أن مستوى عملياتهم يدل بوضوح على أنهم لم يتضوروا جوعاً مفتقرين إلى التمويل. إن من غير المعقول والمرجح أن يرى هتلر ضرورة تحمل عناء ونفقات تشكيل جيش الإنقاذ والأمن (SS, SA) الخاص به، لولا أنه وأتباعه اصطدموا في أعمال عنف مع مجموعات جيدة التنظيم من الغوغاء، استمرت حتى تفرده في النهاية بالهيمنة على الحكومة.

بالنسبة لموضوع «**معاداة السامية**»، فقد أنصف الأخوان بول مع الألمان فيه، وسمحا لهم على صفحات الكتاب أن يوضحوا قضيتهم ويدافعوا عنها. أحد أولئك الذين اعتبرتهم الحركة الثورية الشيوعية من قادة المحرضين على اليهود، كان فريتز تايسين، ملك الصناعة وزعيمها، الذي عاش في رعب يومي من «**الإرهاب الأحمر**»، بعد أن نجا ـ حسب قوله ـ بصعوبة من الاغتيال على يد طغمة مسلحة من الثوريين حاصرت منزله. كتب تايسين في سيرة حياته الذاتية يقول:

لقد أمضيت حياتي بين العمال، الذين عمل معهم أبي في بداية أمره. ولم يسبق أبداً لعمال معاملنا أن أظهروا لنا أي نوع من أنواع العداء، أو أية بادرة من بوادر الكراهية والبغض... كانت جميع أعمال الشغب وتجاوزات النظام تأتي من الغرباء الأجانب.

لقد آمن تايسين بأن منظمي الإضرابات وأعمال الشغب كانوا من السياسيين المتمرسين المحترفين. وكانوا عملاء لموسكو. يقول «**كان راديك وليفين وأكسيليريد هم المسؤولون عن أعمال الشغب وعن جرائم القتل**». جميع القادة الثوريين الذين احتك بهم تالسين أو ذكرهم في سيرة حياته، كانوا يهوداً.

لم يكن كبار الصناعيين فقط من أمثال تايسين وكيردورف وستينيز، هم الذين قرنوا اليهود بما تعرضت له بلادهم من آلام وأخطار وما نتج عنها من عقابيل، فقد كان هناك آخرون أيضاً من القطاع الزراعي الكبير في البلاد. يقول الأخوان بول:

هذه الصورة للنزاع بين اليهودي والفلاح لم تكن مجرد دعاية إعلامية، بل لها أصل وأساس، وفيها لمسة من الحقيقة والواقع. فقد عمل اليهود سماسرة في العديد من المجتمعات الزراعية بألمانيا، وكان من الطبيعي في مجال تجارة المواشي أن يحتك اليهودي بالفلاحين. فكان مكروهاً من قبلهم كمقرض، وخصوصاً في أوقات الضائقات المالية بعد المواسم الرديئة، مما يضطرهم إلى الاعتماد على قروضه ذات الفائدة العالية النسبة لتجاوز أزماتهم.

بعد استمرار تدهور أوضاع الزراعة الألمانية، لعدد من الأسباب المتنوعة لا يد للمزارعين فيها ولا حكم لهم عليها، نقرأ عن عائلات وأسر تم طردها من أرض زرعها أسلافهم منذ ثلاثمئة عام، على يد مقرضين لم تنقص رساميلهم أبداً.

يحكي الأخوان بول في عرضهما للأحداث عن الصعوبات المخيفة وعن الظلامات التي تعرض لها وعاناها الشعب الألماني خلال السنوات العشر التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى، وعن عدد لا يحصى من الحكايا الشخصية التي تعيد الحياة للتاريخ في الأذهان، وتشد انتباه القارئ من أول صفحة فيها

إلى آخر صفحة، من نزوح وهروب عشوائي غير منظم، دمَّر الأرض التي ادخرتها الطبقة الوسطى من المواطنين للمستقبل، ومكَّن المضاربين بالقطع الأجنبي من الاستيلاء على الموجودات والأملاك بأبخس الأسعار، وإلى طرد ثلث السكان من عملهم وبقاء الباقي يعملون بدوام جزئي. كل ذلك تواكب في شتاء عام 1931-1932 مع مناخ جعل منه «**أقسى شتاء عرفته البلاد منذ مئة عام**»، ألقى بألمانيا في أعماق الكساد «**حين لم يكن هناك سوى قلة من الناس تستطيع شراء الملابس الشتوية لدفء أجسامهم والفحم لإشعال مواقدهم**».

يقول الأخوان بول:

كان هتلر واحداً من السياسيين القلائل الذين اعتبروا ـ بحق ـ أن ارتفاع الأسعار حملة مدبرة لسلب مدخرات الطبقة المتوسطة، التي كانت وقتها ـ كشأنها دائماً ـ الترس الحصين في وجه الديكتاتورية الماركسية.

وبعد دعم عباراتهما بمقتطفات من العديد من المصادر، يكشف الأخوان بول عن أنه إن كان ثمة أحد في أوائل سنين تأسيس هتلر للحركة الاشتراكية القومية في ألمانيا، قد تعاطف بقوة مع مؤيدي الحركة في الخارج، فهو هنري فورد حسبما أعلن بنفسه. لعل الآخرين لم يقدموا على سبيل الهبة كثيراً من الأموال ـ هذا إن قدموا شيئاً منها على الإطلاق ـ لكن ما قدموه من دعم كان من النوع الذي لا يشترى بالمال، كما حصل مع اللورد روثرنمير وجريدته الدايلي ميل الواسعة الانتشار، التي فتحت صفحاتها لدعم النازيين ونظرائهم البريطانيين، أمثال أوزوالد موسلي من اتحاد الفاشيين البريطاني ومونتاغيو نورمان رئيس مجلس إدارة بنك إنكلترا، الذي يكتب عنه الأخوان بول قائلين:

... ولأنه كان مجرد مناصر مؤيد للألمان، فالمرء لا يستطيع أن يقفز إلى استنتاج وجود علاقة ارتباط بين نورمان والنازيين، إلا أن كرهه لليهود أثار الشكوك حوله أكثر فأكثر... بالطبع نورمان لم يمول هتلر من أموال بنك إنكلترا، لكن هناك دليلاً على أنه لعب دوراً بارزاً في توفير التمويل المالي للنازيين.

هناك ما هو أكثر من ذلك في الكتاب حول «**الأصدقاء ذوي النفوذ**» في المملكة المتحدة، من بينهم لورد سيدينهام مؤلف كتاب «**المشكلة اليهودية العالمية**»، ودوق نورثمبرلاند أحد المساهمين الكبار في جريدة مورنينغ بوست،

وجيوفري داوسون رئيس تحرير التايمز اللندنية، ودوق ويندسور الذي تنازل عن العرش بصفته الملك إدوارد الثامن، والسير هنري ديتردينغ رئيس مجموعة شل الأنغلوهولندية العملاقة المختلطة. لكن الأمر لا ينتهي بأن نسمي هؤلاء وغيرهم من ذوي الأسماء البارزة، إذ لابد من أن نسمح لأنفسنا بإلقاء نظرة فاحصة على مواقفهم وفكرهم. يكتب الأخوان بول عن دوق ويندسور قائلين:

لقد تحولت حكاية إجبار إدوارد على التنازل عن العرش بسبب رفضه التخلي عن المرأة التي أحبها إلى أسطورة. إلا أن هذه المسألة تم استخدامها كواجهة لإخفاء انتقادات واحتجاجات الحكومة على الملك، وبالتحديد لموقفه المناصر للنازية... لم يكن مؤكداً ــ بسبب آرائه ــ أن يوافق ويتعاون مع سياسة مناهضة لألمانيا.

فمن أين جاءت جميع هذه الأموال التي جعلت الحركة الاشتراكية القومية تقف على قدميها وتتابع مسيرتها؟ لقد جاء القليل منها من أقطاب الصناعة الألمان في البداية. أما فيما بعد، وتحت التهديد بحرب أهلية والخوف من استيلاء الشيوعيين على مقاليد الأمور، فقد كانت التبرعات تأتي من حين لآخر من عدد من الأثرياء المفتونين بخطابات هتلر، ومن بينهم ــ كنموذج يقاس عليه ــ السيدة هيلين بيكستاين، زوجة صاحب معمل تصنيع البيانوهات. إلا أن معظم التمويل المالي جاء من الجماهير الألمانية، بعضه كرسوم من المنتسبين لعضوية الحزب، وأكثره على شكل خدمات مجانية بلا مقابل.

يقول بيتر دروكر الكاتب الأمريكي في شؤون التجارة والاقتصاد:

لقد جاء الدعم الحقيقي الفعال من قطاعات في الطبقة المتوسطة وطبقة الفلاحين والعمال، الذين قدموا أصعب المحصول... بالنسبة للحزب النازي، ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن ثلاثة أرباع تمويله ــ حتى بعد عام 1930 ــ جاء من اشتراكات الأعضاء الأسبوعية... ومن رسوم الدخول إلى الاجتماعات العامة التي كان الأعضاء من الطبقة الراقية يغيبون عنها دائماً.

لم يحاول الأخوان بول وضع روايتهم للأحداث من منظور تاريخي عالمي، لكنهما ــ على عكس أنطوني ساتون ــ قدما رواية متوازنة لما حدث ولما قيل، فجاءت رواية متطابقة مع متطلبات البحث الدراسي، ومتوافقة مع رواية كيغلي عن التاريخ العالمي في قرننا العشرين.

3 ـ التاريخ بإيجاز:

إن ما جرى في ألمانيا بين عامي 1918-1932 ليس مأساة تاريخية كاملة بالمعنى الحرفي، بل مجرد فصل من مأساة ثورية عالمية أكبر تضم الثورة البولشيفيكية، وخروج الإمبراطوريات الاستعمارية من يد الأمم الأوروبية، ونشوء «**برلمان عالمي مزيف**» باسم هيئة الأمم المتحدة. إنها مأساة كبرى تندفع الآن بسرعة نحو مرحلة مخيفة.

من هنا، فإن بوسعنا إحكام قبضتنا بقوة على المعنى الكامل للأحداث التاريخية كما رواها لنا الأخوان بول بضمير حي ضمن إطار مشوق، لو استطعنا فقط وضعها ـ كقطعة الموزاييك ـ في مكانها الصحيح من لوحة تاريخ قرننا، لأن جميع التغيرات الهامة في قرن النزاعات هذا مرتبط بعضها مع بعض، ولا يمكن فهمها منفصلة. هذا التاريخ الكبير الأكثر شمولية، يمكن إيجازه وتكثيفه في بضع كلمات، دون أن نفقد شيئاً من جوهر معناه الأساسي.

لقد تمركز رأس المال بالقرن الماضي في نقاط تمركز محلية منفصل بعضها عن بعض، تشترك كلها في تنافس محموم. ولهذا، توجه التنافس الصناعي والتجاري الذي بلغ ذروته في الحرب العالمية الأولى نحو الاستيلاء الاستعماري. ففي أوائل القرن العشرين، كانت عائلات العمل المصرفي وسلالاته الحاكمة ـ مثل روتشيلد وبارينغ وإيرلانجر وشرودر وسيليغمان وسبايرز وميرابوند وماليت وفاربورغ وأوبنهايمر وشيف وغيرهم ـ التي تنامت هيمنتها على مختلف نقاط التمركز المحلية لرأس المال، قادرة على المساهمة في إحداث تغير ثوري، وعلى جرّ نقاط التمركز المحلية هذه إلى الاندماج في إطار نظام مالي دولي واحد، كانوا قد خططوا للسيطرة عليه.

هذا التغير الثوري في مجال المال والتمويل نتج عنه تغير ثوري مماثل في المجال السياسي، باعتبار أن تدويل المجال المالي لا يمكن أن يتناغم مع وجود نقاط تمركز محلية متعددة في سلطة سياسية واحدة.

كانت الصهيونية في هذه اللوحة المركبة المعقدة هي المذهب القومي المتطرف لأولئك المهيمنين على المال والتمويل في أعلى مستوياته، أما الشيوعية فكانت شكلاً من أشكال المتفجرات السياسية يتم استخدامها وتوظيفها

ضد القوميات الأخرى. هذان الوجهان لصراع سياسي عالمي، أعطيا العالم عصراً من النزاع غير مسبوق في التاريخ المكتوب.

جميع التغيرات الهامة التي حصلت في القرن العشرين، يمكن تفسيرها بسهولة في ضوء المتطلبات السياسية لأولئك المهيمنين على المال والتمويل وفق أسس دولية. وجميع الصراعات الكبرى في زمننا ـ سواء منها صراع هنري فورد لاستعادة هيمنته على شركته الكبيرة، أو صراع مونتاغيو نورمان وجيوفري داوسون وآخرين للحفاظ على وحدة رأس المال البريطاني المحلي، أو صراع هنري ديتيرդينغ لإبقاء مؤسسة شل في أيدي أصحابها الأصليين الإنكليز والهولنديين، أو صراع ألمانيا لمقاومة استيلاء ثورة ماركسية على مقاليد الأمور ـ إنما هي جوانب من صراع الحضارة الغربية للوقوف في وجه أجنبي غريب شرس.

الفصل 6

«معاداة السامية» على المحك

إن فشل المجتمع اليهودي الأمريكي ــ رغم ثرائه ونفوذه ــ في وضع دراسة بحثية موضوعية واحدة لأسباب معاداة السامية أمر بارز وملحوظ. فلا المتدينين ولا العلمانيين من قادة المنظمات اليهودية العديدة يرغبون بالتخلي عن هذا السلاح الفعال. انبذوا الأحكام الفقهية المسبقة، ودعوا الإيمان جانباً فإن المؤامرة التي يحيكها الحاخامات، والقوميون اليهود، وقادة التنظيمات اليهودية، هي الإبقاء على الإشكالات بإحياء هذه الأحكام الفقهية المسبقة.

ألفريد م. ليلينتال

من كتاب «الوجه الآخر للعملة»

من بين جميع وجوه التزييف التي تشكل «**عالم الأكاذيب**» الحديث، ليس ثمة ما هو أقوى نفوذاً وأثقل تأثيراً وإثارة للمخاطر من ما يسمى «**معاداة السامية**».

إنها من أخطر الأمور في هذا الوقت، باعتبارها تستخدم بنجاح كبير كسلاح نفسي حربي، لمنع الناس في الغرب من اكتشاف أنهم خاضعون لعملية توجيه ــ مثل سكة حديدية ــ نحو «**نظام عالمي جديد**» مرسوم. ويمكن وصفها بأنها الأقوى نفوذاً، نظراً لاستخدامها مدعومة بشبكة عالمية من المنظمات مسلَّحة بمصادر لا حدود لها من أموال وأيدي عاملة.

لقد تم توظيف هذه الكذبة الكبيرة بشكل جاد حاسم في إخفاء وطمس المعلومات، وفي إعلان الفيتو على الحوار الصادق حول مسائل عديدة، أهمها على الإطلاق مسألة التطورات في الشرق الأوسط، حيث أدى قيام

إسرائيل إلى سلسلة من ردود الأفعال وإلى نتائج في منتهى الخطورة على اليهود وعلى غير اليهود على حد سواء.

يحدثنا الدكتور ألفريد ليلينتال، المؤرخ اليهودي الذي يرى في الصهيونية خطراً كبيراً على الشعب اليهودي وعلى العالم أجمع، عن كيفية حصول ذلك قائلاً:

في اللحظات الحرجة الحاسمة لعلاقات الولايات المتحدة بالعالم العربي وبإسرائيل، كان هناك دائماً شخص ما يعرض المشكلة ـ مدفوعاً بدافع شخصي ـ ويحاول أن يروي قصتها للرأي العام الأمريكي. وكان دائماً أيضاً ـ مثل نئب أمام عصابة كلاب صيد ـ يسقط صريعاً على الفور، مكتوم الصوت أو مكسور القلم، لتعود الهوة المفرَّغة إلى الظهور واضحة من جديد. وبفضل أجهزة الإعلام التي لا يهدأ لها بال أبداً، تحول نقد إسرائيل، ونقد سياسة «إسرائيل أولاً» في الولايات المتحدة، ليصبح تجسيداً لهتلر... والذين تجرأوا على كسر حواجز الصمت، دفعوا ثمناً باهظاً لشجاعتهم في ممارسة ما يعتبرونه حقاً ديموقراطياً لهم.

(من كتاب العلاقة الصهيونية)

ثم يضع الدكتور ليلينتال بعد ذلك قائمة بأسماء كبار رجال الدين والسياسيين والباحثين الذين تشوهت سمعتهم كثيراً بتهمة «**معاداة السامية**»، وتم تدميرهم في حالات كثيرة لتجرؤهم على «**معارضة موجة القومية اليهودية الصهيونية**». وكان الحاخام إيلمير بيرغر، والدكتور أرنولد توينبي، والسناتور ج. ويليام فولبرايت، من بين أولئك الذين تجرأوا على لفت الانتباه إلى التأثير الصهيوني النافذ في الكونغرس بشكل لا يقاوم. وكان من بينهم أيضاً جيمس فوريستال وزير الدفاع السابق في الولايات المتحدة، الذي إما قفز بنفسه أو تم دفعه من نافذة الطابق العلوي في إحدى المستشفيات، وموشيه مينوهين والد عازف الكمان الشهير، ودوروثي تومبسون الصحفية والكاتبة المشهورة، والكونت برنادوت وسيط أمين عام الأمم المتحدة الذي انتهى الأمر باغتياله في جيروزاليم، والجنرال شارل ديغول، إضافة إلى أكاديميين أمريكيين كبار مثل الدكتور ويليام بوروز من جامعة ييل، وويليام إرنست هوكينغ من جامعة هارفارد.

لقد امتدت قائمة الدكتور ليلينتال، بأسماء أشهر الذين تعرضوا لهجمات تهم معاداة السامية وتم إسكاتهم في حالات كثيرة بالهراوات، وطالت حتى ملأت الأسماء عدة صفحات، فكان من بينهم: إرنست بيغين وزير خارجية بريطانيا السابق، وبرتراند راسل الفيلسوف الليبرالي، والبروفيسور السير آرثر كيث المؤرخ المشهور ورئيس الجمعية البريطانية لتطوير العلوم سابقاً، ودوغلاس ريد المؤلف والمراسل الصحفي للتايمز اللندنية سابقاً، والبريغادير السير جون غلوب، والجنرال السويدي كارل ڤون هورن، وألكسندر سولتزهينيتسين.

كانت وصمة «**معاداة السامية**» ـــ بالنسبة للمتهمين بها دون بينة ولا دليل ـــ أشبه بتلك الدوائر البيضاء المشبوكة بدبابيس على صدور الأسرى وهم يقفون أمام فرق الإعدام، لضمان أن تسدد الطلقات إلى حيث تحقق الأثر المميت المطلوب. كان الأسلوب التقني المتبع، كما وصفه الدكتور ليلينتال:

.. المراقبة.. والمضايقة المستمرة.. واغتيال السمعة.. والتنحية جانباً..وقمع حرية الكلام.. والقضاء على أقل نقد معارض.. تلك هي بعض التقنيات والأساليب التي يستخدمها غلاة المدافعين عن الصهيونية وجماعاتهم التنظيمية في إسكات كل معارضة مهما كان نوعها لدولة إسرائيل وسياساتها.

ثم يمضي ليلينتال ليحدثنا عن توجه تلك «**التنظيمات المغالية**» للقيام بكل أنواع الأعمال القذرة، فيقول:

هذا التوجه إلى ممارسة أشد الضغوطات المنظمة بإحكام، وإلى الحملات المستمرة لإبقاء مسألة معاداة السامية تحت الأضواء دائماً، عبر مطاردة كل من يزعمون أنه معاد للسامية، إضافة إلى قمع وإخماد كل معارضة بسلاح سياسة واشنطن «إسرائيل أولاً»، أعطى ثماره متجسداً بمنظمة بناي بريت البالغة من العمر 130 عاماً، وبرابطة مناهضة التشهير والافتراء التي تأسست عام 1913، وعرفت باسم ADL، وتم دعمها في معظم المناسبات من قبل منظمات يهودية أخرى. كانت مهمة هذه الرابطة منذ بداياتها التركيز على نشر التحيز المتطرف والتعصب الأعمى اللذين طبعا أعمالها الداعمة لإسرائيل، وكان لها تأثير كبير على تقليص النقد الموجه للتكتيكات الصهيونية.

في عام 1974، بلغت الميزانية المالية التي دعمت بها رابطة ADL مقرات قيادتها العامة في مدينة نيويورك وحدها 7.4 مليون دولار، وكان لها 28 مكتباً إقليمياً في أنحاء البلاد تضم طاقماً من المحترفين عدد أفراده 300، لكل مكتب إقليمي مجلسه الخاص به المؤلف من قادة ومشاهير المواطنين في المنطقة. وكما هو الحال في الولايات المتحدة، كذلك كان في جميع بلاد الغرب الأخرى ـ إنما أقل طموحاً مما هو عليه في أمريكا ـ. هذا ما يحدثنا به ألفريد ليلينتال وهو يصف «**الضغوطات الهائلة التي غالباً ما تصل إلى حد الابتزاز**».

بالنسبة للمحافظين في أنحاء العالم، كان كل ما حدثنا به الدكتور ليلينتال معروفاً لديهم تماماً، لكن المسألة تختلف كثيراً حين نسمعها من مؤرخ يهودي بارز يخوض معركة ليس مع شعبه، بل مع الصهيونية الشوفينية المتعصبة.

ليس القصد في هذا الفصل مراجعة وتأمل كتاب الدكتور ألفريد ليلينتال الخطير «**العلاقة الصهيونية**»، بل تركيز الانتباه على كلمة «**معاداة السامية**» المحركة المثيرة، ومحاولة سلبها بعض قدرتها على التخويف والتهديد.

الكلمة بحد ذاتها كذبة من نوع فريد خاص، تصور الحقيقة مقلوبة رأسها إلى الأسفل وداخلها إلى الخارج. إنها كذبة من نوع يواجه عادة أقل قدر من المقاومة والرفض، لكونها تشبه الحقيقة إلى حد بعيد، مثلما تشبه الفردة اليمنى من القفاز فردته اليسرى. ومن هنا، فإن ما يسمى بـ «**معاداة السامية**» إنما هو في الحقيقة عكسه تماماً. إنه في حقيقته «**معاداة كل ما هو غير يهودي**».

هذه الخدعة في قلب الحقيقة وتحويلها إلى كذبة بكل معنى الكلمة، هي الطابع المميز لجدلية ماركسية ـ لينينية حولت النخبوية التآمرية إلى «**ديكتاتورية بروليتارية**»، والدولة البوليسية إلى دولة ديموقراطية، والحرب إلى سلام.

إن ما يزعج القادة الصهاينة، حسبما أقروا بأنفسهم المرة بعد الأخرى، ليس كون غير اليهود ـ وخاصة المسيحيين منهم ـ يحتقرون وينبذون ذوي الأصل اليهودي، بل العكس تماماً. فما يزعجهم هو استعداد بقية الجنس البشري لتقبل واحتضان اليهود وامتصاصهم.

ومن هنا، فليس ثمة أبلغ في الكشف عن المشاعر الصهيونية، من عبارات إيزي لايبلر، رئيس المجلس التنفيذي اليهودي في استراليا، التي نشرتها له جريدة أوستراليان جويش تايمز بتاريخ 30 كانون الأول 1979:

مازال الخطر الذي يتهدد وجودنا يتمثل في التناقص المستمر لأعداد ذوي الخبرة منا نتيجة لامتصاص الآخرين لنا عبر الزيجات الهجينة الدخيلة. ومشكلتنا في أستراليا جاءت ــ كما في معظم المجتمعات الغربية ــ من أن جميع شبابنا تقريباً يذهبون إلى الجامعات. وهذا أمر نرحب به لولا أنه يعزز قوى الاستيعاب والامتصاص، لأن الجامعات تمثل دائماً تحدياً للجماعات المتدينة والمتعصبة والمتميزة.

ويمضي السيد لايبلر في حوار أن «**تكثيف النشاط الثقافي الإيجابي اليهودي**» هو أفضل وسائل مواجهة تقبل اليهود وهضمهم من قبل المجتمعات غير اليهودية، ويضيف قائلاً:

إن لنا أن نفخر وأن نشعر باعتزاز استثنائي غير عادي لكون 50% من مجموع أطفال اليهود في ميلبورن يذهبون عند بلوغهم سن المدرسة إلى مدارس يهودية.

ردة فعل إيزي لايبلر تجاه خطر الامتصاص والزيجات الهجينة الذي يتهدد اليهود، نموذج معياري لردة فعل قادة اليهود على ما يرون دائماً أنه خطر كامن في صلب الحرية والكرم غير اليهوديين. وفيما يلي مثال اخترناه عشوائياً من كتاب «**مسار التاريخ اليهودي الحديث**» بقلم هاوارد مورلي زاكار:

برزت القومية اليهودية أيضاً خلال «شهر عسل» نظام حكم ألكسندر الثاني، كردة فعل على خطر تذويب اليهود وامتصاصهم. وما زلنا نذكر الفزع المخيف الذي عبّر عنه يهوذا لايب غوردون وبيريز سمولينسكين وهما بريان فجأة كيف أصبحت «الحداثة» واجهة تخفي وراءها التخلي عن الولاءات اليهودية. ولم تكن عودة إيهيل مايكل باينز وزيبف وولف جافيتز لإعلاء شأن عالم الغيتو، إلا للوقوف في وجه موجة الامتصاص هذه، واكتشافهما في ذلك العالم عمقاً وجدة لم يدركاهما ويتذوقاهما من قبل.

كان مفهوماً أن يسارع ألكسندر الثاني إلى قطع سياسته الليبرالية تجاه اليهود، بعد أن أدرك أنها لا تعطي النتائج المرجوة، وأن قادة اليهود يوظفون

جميع الامتيازات الممنوحة لهم لتقوية أوضاع اليهود كأمة مستقلة، غير عابئين برغائب وحاجات باقي السكان.

لاريب في أن إيزي لايبلر، كعضو في المجلس التنفيذي ليهود أوستراليا، كان يتحدث باسم الجالية اليهودية المنظمة في كل أنحاء العالم، مما يبدو واضحاً في نظرة سريعة على الصحف والدوريات اليهودية.

فالدكتور جوزيف كاستين، أحد أشهر المؤرخين اليهود، يدعم وجهة النظر هذه قائلاً:

دعونا نتذكر دروس وتعاليم تاريخنا العظيم، بأن معاداة السامية ليست مشكلة يهودية، بقدر ما هي مشكلة أجنبية غريبة.

(كتاب: تاريخ ومصير اليهود)

أما الكاتب الشهير الآخر لويس غولدينغ، فيعيد ذات العبارة والرأي في كتابه «**المشكلة اليهودية**» قائلاً: «**معاداة السامية ليست مشكلة يهودية بل هي مشكلة أجنبية غريبة**».

ويلخصها السير آرثر كيث في هذا المقطع من كتابه «**نظرية جديدة للتطور الإنساني**»:

لقد قام زملائي علماء أصل الإنسان، مفتونين بالمثاليات الأخلاقية، بجعل اليهود وغير اليهود عقيمين غير نافعين وذلك بإطلاق أسماء عذبة رخيمة على أشياء فظة مبتذلة. فأكدوا لليهود أنهم ليسوا عرقاً، بل مجرد «مجموعة عرقية» يتماسك بعضها مع بعض بفضل الدين بشكل عام. كما أكدوا أيضاً لجميع أفراد الشعب القوقازي الأبيض أنهم بلا جذور عرقية. ومن هنا فإن كل أشكال العداء القائم بين غير اليهود واليهود نتجت عن هيستيريا مصنوعة غير طبيعية. ولقد نجح المختصون من علماء أصل الإنسان في العالم ــ بكل حسن نية ــ بأن يخفوا عن العالم الطبيعة الجارحة المحزنة لما يجري.

ولكن، هل فصل اليهود عن غير اليهود يتضمن بالضرورة معنى العداء والخصومة؟ يجيب السير آرثر كيث عن هذا السؤال قائلاً:

ثمة علامة مميزة عرقية أخرى لدى اليهود لابد من ذكرها، هي تلك «المعيار الثنائي المزدوج» الذي يحكم سلوكهم وتصرفاتهم. فسلوكهم تجاه

جماعتهم يقوم على أساس «الصداقة والتفاهم»، أما تجاه جميع من هم خارج دائرتهم فيقوم على أساس «اللاصداقة واللاتفاهم». إن مجرد استخدام معيار ثنائي مزدوج، كما رأينا، يعتبر من العلامات المميزة لعرق متطور.

أما الباحث اليهودي برنارد لازار، فلم يفعل أكثر من توضيح هذه المسألة، حين كتب في كتابه «معاداة السامية» يقول:

بنفس القدر الذي لا يستوي فيه أعداء اليهود، المنحدرون من أعراق مختلفة متعددة ويسكنون متباعدين تحكمهم قوانين متعارضة ومبادئ متنافرة، بما لديهم من عادات ومعتقدات مختلفة تجعل من المستحيل وضعهم في سلة واحدة وإطلاق حكم واحد عليهم، كان لابد من أن تتمركز الأسباب العامة لمعاداة السامية في إسرائيل بالذات، وليس في البلدان المعادية لها.

على هذا النحو، يمضي التأثير الأعمى المذهل للتعصب المتكافئ لدى المفكرين اليساريين في الغرب، ليرحب بالتعاون مع أشد المتعصبين العرقيين في العالم، وبالانضواء تحت قيادة كرست نفسها للإيمان بالتفوق العرقي عبر تبشيرها بعقيدة المساواة. فالمفكرون غير اليهود الذين أزاحوا حجاب العرقية يتوقون إلى تخيل عالم يختفي فيه التوتر وتتلاشى فيه أسباب العداء، بينما يسعى رفاقهم اليهود للتنقيب بشغف عن مواطن الضعف في القيم الأخلاقية المثلى لدى الآخرين، من أجل انتصار وسيادة وعي وقومية جماعتهم الخاصة.

ويعبِّر الدكتور ناحوم غولدمان عن ذلك بصراحة مذهلة حين يقول في كتابه (التضاد اليهودي): «**إننا في وقت واحد من أشد الشعوب انفصالية وأشدهم أممية في العالم**»، ثم يمضي ليوضح بشكل جلي أن «**نحن**» تعني اليهود، وأن «**هم**» تعني الآخرين من غير اليهود. ثمة شكل آخر لعقيدة الخنازير نجده في كتاب «**مزرعة الحيوانات**» لجورج أورويل يقول: «**كل الحيوانات متساوية، لكن بعضها أكثر تساوياً من الآخر**».

لقد تجسد العداء الخفي في نسيج أقلية ترفض الذوبان والامتصاص في أشكال متعددة لا تحصى، لكن أثره العام على جميع هذه الأشكال كان واحداً، إذ تمثل في إضعاف «**الغرباء الأجانب**» بجميع المجالات والنواحي التي تقوّي **الأقلية**، كتشويش الوعي الجمعي، وإضعاف الحيوية وحسن الدفاع عن النفس

والإرادة لدى الشعب المضيف. فبعيداً عن مسألة التأليف، نجد أن ما يسمى «**بروتوكولات حكماء صهيون**» يحتوي على خلاصة كاملة لأنجع الوسائل المستخدمة مطبوعة ومعروضة على رفوف المكتبات.

وأحد أهم العوامل في عملية التحريف والتشويه الثقافي هذه ــ والذي بدونه لا تقوم قائمة للعوامل الأخرى ــ هو تزييف الفروع والمبادئ الأكاديمية التي تستند إليها الدراسات الإنسانية، كعلم الأجناس وعلم النفس وعلم الأعراق وعلم تطور المورثات البشرية وعلوم السياسة والتاريخ.

ليس ثمة حقل علمي يمكن أن يتخذ نموذجاً لفساد حاقد في مبادئه وقوانينه أكثر من علم النفس، ذلك العلم الذي يهتم بدلالة اسمه بالنوازع والعمليات النفسية، حيث تقع معظم الأضرار التي تسببها معاداة السامية ــ أو التعرض لها ــ والأثر الرئيسي لذلك في قرننا العشرين. يقول الدكتور توماس سازاز في كتابه «**خرافة العلاج النفسي**»:

التعارض المتضاد عند فرويد بين خطبه المطولة المتحمسة الإلحادية والتزامه باليهودية يلقي الضوء بشكل بارز على جانب هام من جوانب شخصية فرويد وإنجازاته، هو جانب معاداته لغير اليهود تحديداً. فالصورة الشائعة لفرويد، كشخص متنور متحرر غير متدين استطاع أن «يكتشف» بمساعدة المحللين النفسانيين أن الدين مرض عقلي، هي صورة خيالية وهمية... فقد كان متعاطفاً مع الصهيونية في أيامها الأولى، ومحط احترام هرتزل، وأرسل ذات مرة لهرتزل نسخة من مؤلفاته مع عبارة إهداء شخصية. وكان ابن فرويد عضواً في منظمة كاديماه الصهيونية، التي كان فرويد ذاته عضواً فخرياً فيها.

جاءت عبارات الدكتور سازاز عن حقد فرويد تجاه أعدائه الشخصيين خصوصاً وتجاه كل من هو غير يهودي عموماً، إضافة إلى «**الروح التدميرية الكامنة في تحليله النفسي المعبرة عن الحقد والوهن**»، محمية بغطاء مقولة كانت سائدة في تلك الأيام، هي «**إن كانت هذه يهودية فإنها متحررة متطورة علمية**». ومن هنا فقد كان من الصعب على المرء أن ينتقد مذهب فرويد وتعاليمه دون أن يضع نفسه عرضة للاتهامات بأنه متأثر بالمشاعر المعادية للسامية.

ما كان يزعج فرويد دائماً، هو النقد الآتي من مصادر يهودية، من أمثال المحلل الجريء الكاتب النافذ البصيرة من فيينا كارل كراوس، الذي وصف

التحليل النفسي بأنه «**مرض يلبس لبوس العلاج**»، والكاتب اليهودي الآخر ثيودور ليسينغ، الذي وصفه بأنه «**الجانب الغيلاني المرعب من الروح اليهودية**».

كان الدكتور سازاز نفسه يهودياً بحكم مولده، قام ذات مرة كأستاذ للطب النفسي بالجامعة الحكومية في نيويورك ببحث ومناقشة كتاب من تأليف فرانك فيلد، يحاول المؤلف فيه الانتقاص من قدر كارل كراوس وتسفيه ما يبدي من أحكام خشنة وقاسية، فكتب سازاز يقول:

تحاول ملاحظات فيلد أن ترسم بكل تفاؤل موقفاً فكرياً علمياً من فرويد ومن كتابه عن التحليل النفسي في بواكير أيامه قبل الحرب العالمية الأولى، الذي بذل كل ما بوسعه لتهذيبه وصقله. وأشير هنا إلى رأي يقول بأن من فساد الذوق استنتاج أن التحليل النفسي لم يكن قضية علمية بل قضية يهودية، أو أنه كان ـ في جانبه التطبيقي على يد أتباع فرويد وخدمه الخانعين ـ مشروعاً قبيحاً غير أخلاقي. فلو صدر هذا الرأي عن مسيحي ـ كما هو حال مؤيديه ـ لتعرض للنقد باعتباره عداء للسامية، أما لو صدر عن يهودي لكان هفوة وزلة لسان تعبر عن حقده الذاتي كيهودي. وبما أن المحمديين في فيينا ـ بلد فرويد ـ كانوا قلة، والقليل من هذه القلة يعنيه التحليل النفسي ويهتم به، فقد نجا التحليل النفسي بفضل هذا الموقف من النقد الفكري العلمي اللاذع.

هناك عالم كامل من المعاني في وصف الدكتور سازاز للتحليل النفسي بأنه «**ليس قضية علمية بل قضية يهودية**». فهي تشير ـ بنفس المستوى من قوة الحجة ـ إلى باحثين آخرين يهود وإلى عقائدهم العلمية، مثل البروفيسور فرانتز بواز ومذهبه في علم أصل الإنسان، الذي يقرر عدم وجود أية فروقات فكرية متطابقة مع الفروقات الجسدية الواضحة لدى جميع الأعراق البشرية.

من ناحية التحليل النفسي، كان جميع الذين حملوا لواء مذهب بواز في علم أصل الإنسان من اليهود، مثل بواز نفسه الذي ولد من أبوين روسيين يهوديين، وروث بينديكت من مواليد نيويورك، صارت فيما بعد أستاذة علم أصل الإنسان في جامعة كولومبيا، وإيزادور كايين من مواليد نيويورك، عضو المحكمة العليا في مسائل التمييز العنصري، وثيودر سيوس دوبتزهانسكي

من مواليد روسيا، أستاذ علم الحيوان في جامعة كولومبيا، وميلفيل هيرزكوفيتس أستاذ علم أصل الإنسان في جامعة نورث ويسترن، وأوتو كلينيبيرغ المحاضر في علم أصل الإنسان وعلم النفس بجامعة كولومبيا، وآشلي مونتاغيو (ليس هذا هو اسمه الأصلي) أستاذ علم الإنسان في جامعة راتجير، وجين ويلتفيش المحاضر في علم أصل الإنسان بجامعة كولومبيا، وغيرهم.

نقاد مذهب بواز من غير اليهود، الذين فرضوا على خصومهم آداب وتقاليد البحث الأكاديمي التي تفترض مسبقاً الصدق والأمانة في الهدف المشترك، تخلوا عن ورقتهم الرابحة الوحيدة التي تبين بكل سهولة ـ لو أنهم استعملوها ـ أن مذهب بواز «**ليس قضية علمية على الإطلاق بل قضية يهودية**»، ولتمكنوا بفضلها من إظهار المقاصد السياسية لليهود، وخاصة الصهاينة منهم. الأكثر من ذلك، كان من الممكن بمنتهى السهولة إثبات أن أنصار هذا المذهب أنفسهم لا يؤمنون به، في ضوء النقيض الذي يمارسونه في مجتمعاتهم ويلتزمون به بمنتهى الولاء دون اعتراض.

إن كون مذهب بواز في علم أصل الإنسان «**ليس قضية علمية**»، إضافة إلى أن جميع أساتذته في الجامعات كانوا يهوداً، هو بالتحديد الذي نفى إمكانية قيام حوار أصيل صادق حول هذا الموضوع، إذ كانت تتم تسوية كل جدل حوله بلغة الشتم والتسفيه، بما في ذلك من تعابير ومصطلحات مثل «**العرقية المتعصبة**» و «**الفاشية**» و «**النازية**» و «**المرض العقلي**».

والأمر نفسه على صعيد التاريخ، وبخاصة القسم الذي يغطي فترة الحرب العالمية الثانية. فقصة غرف الغاز المزعومة التي قتل فيها الألمان ستة ملايين يهودي «**ليست قضية تاريخية بل قضية يهودية**»، ومن هنا لا يمكن إخضاعها لإجراءات ومراحل عملية البحث العلمي، إضافة إلى أن المصالح الأمنية الجغرافية والسياسية اليهودية تجعل كل محاولة لدحض هذه القصة المزعومة عرضة للمقاومة بأساليب غير أكاديمية، كالشتم واللعن والتسفيه، مصحوبة ـ أحياناً ـ بالعنف الجسدي.

ثمة دلائل كثيرة تشير إلى أن وسيلة التخويف والتهديد أصبحت اليوم تمارس بشكل دائم ورئيسي ضد غير اليهود، بعد أن كانت في الماضي ــ أيام كان اليهود أقل نفوذاً في العالم ــ تستخدم ضد اليهود أنفسهم، بعضهم ضد بعض، كوسيلة من وسائل حفظ التماسك والتضامن مع الجماعة.

يلاحظ بيرنارد لازار في عباراته، أن اليهود المعاصرين نسوا معنى الطقوس والاحتفالات الدينية، وأن اليهودية الحاخامية تحولت إلى ما يطلق عليه لازار اسم «**دين العقلانية**». فالذي يجمع اليهود الآن بعضهم إلى بعض ــ حسب قوله ــ هو «**الوعي القومي**»، واليهودي لم يعد يمارس طقوسه الإيمانية بعد أن أصبح غير متدين، بل بعد أن أصبح ملحداً، «**إلا أنه مع ذلك ظل يهودياً مؤمناً بعرقه**». هذه الملاحظات والعبارات وضعها لازار بين قوسين، إشعاراً بأنه اقتبسها من مراجع يهودية أخرى.

إن التحول الذي حصل في هذا القرن وصل إلى حد أن الخوف تحول إلى شهوة للالتهام، حسبما يقتضيه التلاحم الصهيوني وتنص عليه المراجع الصهيونية المحفزة. ومن هنا، لم يعد اليهود المعاصرون يخافون كثيراً من الخروج على الحدود المرسومة وهم مفتونون بصور الرفاه والتقدم التي يضمنها لهم الولاء للجماعة. ففي عالم غربي مزقه التنافس وحولته الروح البورجوازية في جمع الثروات إلى أشلاء صغيرة كالذرات، نجد أن التوحد القوي لليهود في الشتات، مع المعيار الثنائي المزدوج المطلق الذي يحكم سلوكهم الأخلاقي، هو تعويذة «**افتح يا سمسم**» الوحيدة لضمان النجاح في المجالين التجاري والمهني.

حتى أن لازار يتباهى فيقول:

إن اليهودي، الذي يتمتع شخصياً بمواهب أفضل من مواهب منافسيه، يزداد انتفاعه بفضل توحده وترابطه مع شركائه في الدين، وتزيد بذلك قوته وقدرته على العمل عموماً مع إخوته..

ولكن.. هل يملك اليهودي شخصياً مواهب أفضل من مواهب منافسيه؟

لقد ذهل قادة اليهود حتى الصميم من تعليق بوريس باسترناك، بأن الناس العاديين فقط هم الذين يلتمسون المزيد من المنفعة بترابطهم معاً داخل مجتمع

من المجتمعات. لكن باسترناك وجد نفسه في الوقت الحاضر موصوماً بأنه «**يهودي معاد للسامية**».

ثمة منفعة هائلة أخرى حصل عليها اليهود في المناخات البورجوازية المعاصرة، حيث النجاح الفردي هو الأساس، هي أن نجاحهم توافق، وزاد بشكل كبير، مع قدرتهم على جلب الزبائن والمحسوبية في ممارساتهم، بينما كان غير اليهود يقع بعضهم على بعض وهم يتدافعون لكسب الرضى اليهودي في المجالات التجارية والمهنية وبخاصة السياسية، التي انضوت بشكل كبير تحت الهيمنة اليهودية.

أخيراً، ماذا بوسع غير اليهود «**الغرباء الأجانب**» أن يفعلوا بخصوص «**مشكلة**» تم زرعها في وسطهم؟

المطلوب أولاً ــ كما هو واضح ــ فهم المشكلة، ثم تحديدها بدقة وتعريفها بشكل صحيح، الأمر الذي حاولنا القيام به في هذا الفصل. يبقى أن ما نحتاج إليه ــ «**كأجانب غرباء**» ــ هو قليل من الإدراك والفهم المتجانس للمشكلة، يتمثل تحديداً في موقف يزيح الفكر فيه ستائر ردود الفعل العاطفية العمياء.

إن علينا قبل أي شيء آخر ــ لإضعاف المشكلة على أمل القضاء عليها نهائياً ــ أن نرغب ونسعى لذلك دائماً، وليس فقط في مناسبات التوتر والاستياء التي تجعل المشكلة مستحيلة الحل والعلاج.

والأوسترالي اليهودي الشهير إيزي لايبلر يعطينا بنفسه الجواب الذي نبحث عنه: علينا أن ندعم ونكثف قوى الامتصاص هذه. وما هو بالنسبة إليه «**تهديد أساسي بالخطر**»، هو بالنسبة إلينا الأمل الأفضل الباقي.

إن على الناس في الغرب ــ سواء على صعيد الأمم أم على صعيد الأفراد ــ واجباً تجاه أنفسهم بتسليح عقولهم في وجه كل معيار ثنائي مزدوج تتم ممارسته في وسطهم، وبذلك يجردونه من قدرته وسلطانه.

إلا أن عليهم في ذات الوقت، إن كانوا حكماء في دعم قوى الامتصاص هذه، أن ينشروا بين المواطنين اليهود ــ بجميع وسائل الاتصال المتاحة ــ

الكياسة واللطف، مع الانتباه الشديد إلى عدم تعريض أنفسهم لأخطار لا مبرر لها كطرف موثوق به تماماً.

إن تجربة ألفي عام مضت، يجب أن تعلّمنا بالتأكيد أن المشكلة التي يسميها اليهود «**معاداة السامية**» ونسميها نحن «**معاداة كل ما هو غير يهودي**» لن تنحل أبداً بانتفاضة غوغائية أو باضطهاد.

ومع ذلك. فإننا نحسن صنعاً في هذه الأثناء، لو تذكرنا أن الشوفينية الصهيونية المتعصبة هي التي تدفع بالجنس البشري نحو حافة كارثة عالمية أخرى، وأن أقوى أسلحتها فعالية هي كذبة «**معاداة السامية**» التي تهدف إلى شل العقل.

الفصل 7

تاريـــخ يهـــودي

ثمة كتاب صدر في عام 1980، يصلح لأن يكون نقطة انطلاق جيدة لكل من يريد أن يبحث بشكل عام أعقد موضوع على الإطلاق في التاريخ اليهودي. عنوان الكتاب: «**اليهودية والصهيونية/ التجربة الجنوب أفريقية/ 910-1967**». مؤلفه الدكتور جيديون شيموني، محاضر في اليهودية المعاصرة بالجامعة العبرية في جيروزاليم. الناشر: مطبعة جامعة أوكسفورد، كيب تاون.

هذا الكتاب نموذج رائع لتاريخ يهودي، مدروس بجهد كبير، ومكتوب بعناية فائقة، تجعل بالإمكان استخراج خلاصات قيمة منه تعادل ما هو موجود في أعمال معظم الكتاب اليهود في هذا الحقل.

نحن مع الكتاب أمام تاريخ للشعب اليهودي في جنوب أفريقيا، يغطي فترة زمنية تصل إلى ما يقرب من ستين عاماً، تؤرخ لجنوب أفريقيا أيضاً، لولا أنه كتاب موجه لليهود، ولن يقرأه من غير اليهود سوى قلة قليلة مستثناة. ما يميز هذا الكتاب عن كتب التاريخ الأخرى لجنوب أفريقيا، هو أنه يهتم حصراً بمصالح أقلية صغيرة جداً من سكان البلاد. إذ لا يوجد فعلاً في جميع صفحاته الـ 364 أي تعبير عن تعاطف صادق أصيل مع أي قسم آخر من السكان، ما عدا المآسي والمصائب المحزنة التي تعرض لها قسم من السكان، يخدم الحديث عنها المصالح اليهودية.

ولقد عبَّر البروفيسور هنري ل. فاينغولد، أستاذ التاريخ في جامعة نيويورك، عن ذلك بإيجاز فقال:

لعل هناك شيئاً كثيراً من الخصوصية حول الوجود اليهودي في التاريخ، انطلاقاً من حقيقة أن اليهود مجتمع صغير يقوم على أساس فكرة وتاريخ يعارضان وسائل البحث والفرضيات لدى الباحثين المعاصرين[1].

---

[1] «تقرير خاص» بقلم البروفيسور هنري ل. فاينغولد، صدر في آب 1982 عن المجلس الأمريكي لليهودية.

جزء من الرد على تساؤل البروفيسور فاينغولد ورد عند الكاتب اليهودي الفرنسي جيمس دارميسيتيير في كتابه «**نظرات على تاريخ الشعب اليهودي**» الصادر في باريس عام 1892:

ليس كل أولئك المهتمين بهذه الدراسات ـ ويعني التاريخية والدينية وغيرها ـ وصلوا إلى درجة من الحياد النزيه، حيث للدراسات مقصد وحيد هو الفهم، وحيث يرتفع الفكر إلى علو لا يسمح معه بالنتائج المرسومة مسبقاً التي تمليها قرارات سياسية أو إيمانية أو اعتقادية بما وراء الطبيعة.

كانت آراء دارميسيتيير العاطفية هي التي جعلت ريتشارد ج. هـ. غوتهيل يصنفه في كتابه «**الصهيونية**»، ويصفه بأنه ليس يهودياً صادقاً أصيلاً، بل مجرد «**فرنسي يهودي العرق**».

من هنا لم يتوقع البروفيسور فاينغولد أن يجد جواباً لتساؤله، إلا إذا استطاع أن يرى التاريخ من خارج حدود هويته كيهودي. عندها فقط ـ في حالة كون دراسته البحثية هي التي تحكم ولاءه مثل دارميسيتيير ـ سيتوقف عن كونه يهودياً. باختصار، إن بإمكانه أن يكون مؤرخاً يهودياً، إنما ليس بإمكانه أن يكون باحثاً ويهودياً في الوقت ذاته، لأن الدراسة التاريخية ـ كباقي الأبحاث في جميع العلوم ـ اهتمامٌ يشارك فيه البشر جميعاً يتحكم في الدراسة ويوجهها، وتأملٌ في الاهتمامات المنفصلة المستقلة لمجموعات لا حصر لها يتشكل منها الجنس البشري.

وهذا لا يعني أن كل التاريخ المكتوب بأيد غير يهودية يحمل صفات الدراسة البحثية الصادقة الأصيلة، فالواقع أن القليل منه يمكن اعتباره كذلك. التاريخ هو قصة ما حدث. ولهذا، فهو يتأثر بشكل بالغ بأولئك الذين يجعلون الأحداث تحدث، ويميلون بشكل طبيعي إلى إظهار أفعالهم ونواياهم في إطار يستحق الثناء. وتاريخ كل نزاع كبير على وجه الخصوص هو قصة المنتصر فيه، أما على وجه العموم فثمة بديهية يمكن تأكيدها وإعلانها، هي أن التاريخ تمليه القوى المهيمنة ـ أي أولئك المتحكمين بالحاضر ـ، التي تكتب قصة الماضي والحاضر في كتب التاريخ وأجهزة الإعلام والاتصالات العامة التي تسيطر عليها.

ومع ذلك، يبقى هناك فرق هام بارز بين التاريخ اليهودي وغير اليهودي، نجد الأول معه دائماً أشد ولاءً وأكثر تحيزاً، ونجده مكرساً بشكل حصري لقراءة يهودية، بينما يتجه الآخر ــ بكل عيوبه ونقائصه ــ ليخاطب العالم على اتساعه. الفرق الرئيس الهام ــ كقضية ذاتية ــ هو أن التاريخ اليهودي لا يعبأ بشد انتباه غير اليهود بل يعمل دائماً على تنفيرهم وصدهم بشكل هجومي. من هنا، حين نفتح كتاب شيموني عشوائياً، نقرأ على ص 173 منه مثلاً:

.. أما الأكثر نشاطاً وشهرة من Mizrachi، فكان الحزب الاشتراكي الصهيوني (حزب عمال صهيون) الذي تأسس في جوهانسبورغ بشهر تشرين الثاني من عام 1918 على يد مجموعة من الشبان اليهود المهاجرين من ليتفاك، اشتهر منهم الإخوة ريتشارد ولايبل فيلدمان وجاكوب جوديلوفيتز وي.م. بينكوس و س.كارتون. وفي مجال النزوع المؤكد نحو تفضيل اللغة اليديشية على العبرية، أصدر حزب عمال صهيون مجلة شهرية باللغة اليديشية أطلق عليها اسم «طريقنا»...

فإذا أغلقنا الكتاب، ثم فتحناه مرة أخرى عشوائياً، نجد أنفسنا نقرأ على ص 263 منه:

... وبمرور الوقت اتسعت هابونيم مع ظهور درور وبناي زيون، ومع تبلور سياستها الثقافية أخيراً. وكان المرشحون لشالوتز آلياه أقل بكثير من المرشحين لمؤسسة إسرائيل في ذلك الوقت..

والقارئ العادي لا يمكن أن يهمه هذا كله، بسبب المصطلحات والمفاهيم والمؤسسات الواقعة بشكل كامل خارج حقل اهتماماته وممارساته، والتي لا معنى لها إلا عند اليهود، إضافة إلى الألفاظ التي لا يمكن العثور عليها في أي معجم إنكليزي.

قد نجد قليلاً من الدراسات التاريخية الصادقة الأصيلة في كثير من الكتب التي ألّفها غير اليهود، إلا أن الكثير منها يظهر في المجموعات الكاملة للتاريخ الغربي. ومن هنا، ففي الوقت الذي يقوم فيه كتّاب المؤسسة البريطانية ــ وكثير منهم ذو موهبة عالية ــ باستخلاص زبدة قصص حرب البوير بتحيز

وولاء بريطاني لا حياء فيه، تبقى هناك إمكانية متاحة أمام القراء الإنكليز للعثور على كتب في الموضوع ذاته تهدف إلى البقاء صامدة في وجه الزمن، مثل كتاب ج. آ. هوبسون «**الحرب في جنوب أفريقيا**». لقد مال تاريخ الغرب مؤخراً إلى الاحتباس خلف الأفكار والنشرات الدعائية، لكن الغلبة والسيادة تبقى ــ مع ذلك ــ للحقيقة، لو أنها ــ كما قال اللورد آكتون ــ «**لم تعد هناك مصلحة لأحد في طمسها وإخفائها**». بدأت الرواية الدعائية لأحداث حرب البوير، بما فيها من تزوير شائع، بالانحسار مؤخراً في زمننا هذا أمام أولئك الذين مازالوا يريدون معرفة حقيقة ما حدث، مثل توماس باكينهام في كتابه «**حرب البوير**»، الذي لم يخفِ شيئاً، ولم يزيِّف شيئاً، ولم يلتمس الأعذار للسياسة البريطانية في أفريقيا، رغم إخفاقه أحياناً في شرح ما حدث[1].

في الجهة الأخرى، نحن لا نجد في جميع مؤلفات التاريخ اليهودي الموسعة سوى المنقولات التافهة من الدراسات المحكومة بمفهوم ضيق متشدد من المصالح القومية اليهودية، مصحوباً دائماً ببغض ولعن أي كاتب يهودي يقع في هرطقة محاولة خلق تسوية توفيقية بين المصالح والاهتمامات الأخلاقية اليهودية وغير اليهودية. وكان الفيلسوف باروخ سبينوزا من بين أشد من تعرضوا لهذا البغض واللعن المر.

موسى بن ميمون Moses Maimonides، المولود في المركز التلمودي بقرطبة عام 1135، الذي وضع الدستور الشهير لمبادئ اليهودية، كتب يقول:

يحرم سلب أموال أي شخص في مجال التجارة والأعمال أو غشه والاحتيال عليه، سواء في ذلك اليهودي أم غير اليهودي... إن ما يتوهمه البعض أن من المسموح به غش غير اليهودي والاحتيال عليه، هو خطأ أساسه الجهل... الاحتيال والنفاق والغش والمراوغة تجاه شخص غير يهودي أمور يزدريها الله القدير، لأن كل من يفعل السوء مكروه عند الله ربكم **(عن دوغلاس ريد في كتابه «تناقض صهيون»).**

---

[1] «حرب البوير» تأليف توماس باكينهام، الناشر هو ناثان بول ووايدينفليد ونيكولسون. «الحرب في جنوب أفريقيا» تأليف ج. آ. هوبسون، الناشر جيمس نيسبيت، لندن 1900. وانظر أيضاً سيرة حياة السير ويليام باتلر، كونستابل لندن، 1912، الفصول 21، 22، 23.

لكن التلموديين شجبوا ابن ميمون وقدموه للتحقيق أمام المجلس اليهودي الأعلى قائلين: «**أنت يا من تفضح الهراطقة المجدفين في مجتمعك، إنما تفضحهم في مجتمعاتنا أيضاً**».[1]

ولهذا، وحفاظاً على الانفصالية والسرية بإصرار، نجد أن الوجود اليهودي في الغرب «**يعارض ويقاوم وسائل البحث والفرضيات في الدراسات المعاصرة**». لاشيء في التاريخ أكثر تفرداً وخصوصية من أمة، قوية التلاحم والتنظيم وباطنية النمو وتجمعها صفات بيولوجية واحدة، لا تحبس نفسها مثل باقي الأمم داخل حدود إقليمية خاصة بها، بل تنتشر بين السكان في كل أنحاء العالم. فاليهود تحت لواء الصهيونية هم ـ كما يقول شيموني وكما يقر عملياً بكل صراحة جميع المؤرخين اليهود ـ أمة حقيقية، الدين فيها مجرد عامل من العوامل تتلاشى أهميته بسرعة فائقة.

العديد من صفحات كتاب شيموني تم تبنيه واعتباره في الصراع داخل صفوف الجاليات اليهودية التي تجمعت بسرعة في أوائل هذا القرن العشرين تحت لواء الصهيونية كفكر قومي علماني سيطر بشكل لا يقاوم على اليهودية كدين للتكيف مع الوجود.

كان الكاهن الموقر آ.ب. بيندير من مدينة كيب تاون، أكثر داعمي الدين صموداً، فقد كتب عنه شيموني يقول:

إنه يعتبر الصهيونية خيالاً وهمياً مضللاً، نظراً لأن إحياء فكرة إقامة وطن يهودي ـ من وجهة نظره ـ مسألة إلهية لا تخص الخلق. إنه يفضل النضال الإقليمي، فإذا كان ثمة ما يحقق الهدف الصهيوني الأساسي لهذا الحدث السماوي، فالإقليمية على الأقل تقدم الفرج القريب العاجل.

ويكتب شيموني في موضع آخر أن الصهيونية حققت تقدماً سريعاً في جنوب أفريقيا أكبر مما حققته في الولايات المتحدة وبريطانيا، ويضيف قائلاً:

---

[1] نص الحكم بالحرمان الكنسي المعلن بحق سبينوزا من قبل حاخامية أمستردام تجده في كتاب دوغلاس ريد المذكور. والطريف أن الدكتور ألفريد ليلينتال، الباحث اليهودي الأمريكي المعروف، حكم عليه مؤخراً بالحرمان الكنسي من قبل هيئة الحاخامات في الولايات المتحدة.

لابد بالتالي من ملاحظة أن نجاح أجيال شباب اليهود في جنوب أفريقيا كان واضحاً للعيان بفضل نموذج للانتماء وسمته الصهيونية.

لقد تجنب شيموني عملياً في كتابه كل أسلوب ونغمة دينية، فهو أوضح ما يكون حين يبين أن اليهود داخل الأمم والمجتمعات الغربية أغراب طفيليون، منظمون سياسياً بشكل عال، ومتحدون دولياً كأمة منفصلة لها قيمها ومصالحها المختلفة المنفصلة.

ومن نافلة القول ترديد ما ذكره شيموني في كتابه، من أن يهود العالم يعتبرون إسرائيل وطناً يأملون هم وأولادهم بأن يعودوا إليه ذات يوم، فهذا التصور لمصير اليهود اليوم مقصور حصراً على المسيحيين[1].

هذا الوجود اليهودي ذو الخصوصية المتفردة، الذي يفرض تأثيره الهائل والمخادع داخل جميع أمم العالم الغربي ـ بما فيهم الاتحاد السوفييتي ـ على جميع الأصعدة وفي جميع الحقول الاقتصادية والسياسية والثقافية، هو الذي يطرح أمام ما بقي من الدراسات الغربية تحدياً يتضاعف خطره يوماً بعد يوم.

بعبارة أخرى، لقد أصبح أكبر واجب ضاغط وأثقل مسؤولية على عاتق الدراسات الغربية، النفاذ بتعاون كامل والبحث عبر المعرفة والحكمة الإنسانية المشتركة عن تاريخ متحيز متعصب أباح لنفسه طويلاً أن يكون مستثنى. ولقد تضاعفت ضرورة هذا الواجب بشكل هائل في السنوات الحالية بفعل التطورات في الشرق الأوسط، حيث تتشابك المصالح اليهودية مع مصالح جميع الأمم الأخرى ذات العلاقة، وحيث المصالح اليهودية هي المفضلة دائماً في كل مبادرة، وهي التي تمارس التأثير المضلل الخادع.

استطاع المرحوم البروفيسور السير آرثر كيث، الذي رأس ذات مرة الجمعية البريطانية للتقدم العلمي، أن ينفذ إلى قلب مشكلة أصل الإنسان في كتابه «**نظرية جديدة في التطور الإنساني**».

---

[1] يتحدث الدكتور ألفريد ليلنتال في نشرته الإخبارية «صورة الشرق الأوسط» عدد كانون الأول 1984 عن زيارته لإسرائيل وعن مختلف الحركات المسيحية البروتستانتية التي تعمل داخل إسرائيل وتشكل «نقطة اتصال نفيسة مع الحركة الصهيونية».

فالفصول التي عالج فيها البروفيسور كيث مشكلة الأقليات اليهودية، ومشكلة الظاهرة المسمَّاة «**معاداة السامية**»، تشكل قسماً صغيراً فقط من كتاب يتألف من 400 صفحة، يشرح الكاتب فيها دور الوعي الجمعي في تطور الأعراق والأمم والوجدان الأخلاقي.

تاريخ شيموني للمجتمع اليهودي في جنوب أفريقيا، مثل تاريخ الدكتور ب. آ. كوزمين عن اليهود في زيمبابوي (**روديسيا سابقاً**)[1]، ومثل جميع الكتب التي تؤرخ عن اليهود، وجميع السير الذاتية التي كتبها يهود عن أنفسهم وعن غيرهم، يقر برأي البروفيسور كيث، ويوضحه بما لا يحصى عدده من الأمثلة.

ما يقوله كيث هو أن اليهود بشكل مستمر دائم في حالة حرب مع السكان الذين يعيشون بينهم[2]، أو في حالة تشبه الحرب، لأن الأسلحة المستخدمة في الحروب من صنعهم حصراً. هذا الوضع يوضح عبارة جورج أورويل المأثورة في كتابه «**ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون**» يقول فيها: «**الحرب هي السلام والسلام هو الحرب**»، حيث ترتدي الحرب نفسها قناع السلام. في الواقع، يمكن لكتاب أورويل أن يقرأ كتعرية كاشفة لبعض الأساليب التي يتم استخدامها الآن بالفعل من قبل نخبة متسلطة أجنبية تحاول أن تبسط هيمنتها على بقية الجنس البشري.

أياً كانت أهمية التقنية المنحرفة فكرياً، كما حللها وفحصها أورويل، فإنها تمثل جزءاً صغيراً من تقنية حرب سياسية تغطي النشاط الإنساني بكامل مراتبه، بما في ذلك نواحي المال والإعلام والاتصالات والأحزاب السياسية

---

[1] «ما جودا: تاريخ المجتمع اليهودي في زيمبابوي» تأليف ب.آ. كوزمين، مطبعة مامبو، زيمبابوي، 1981. وهو غير «تاريخ روديسيا» ويختلف عنه تماماً.

[2] في إشارة إلى تدمير قرطاجة، يضع البروفيسورك. نورثكوت باركينسون في كتابه «شرق وغرب» (مطبعة ريفرسايد كامبريدج، 1963) الملاحظات التالية، التي تبدو متطابقة مع ملاحظات السير آرثر كيث: «لقد تم تدمير قرطاجة، لكن أتباع القرطاجيين من اليهود المبعثرين غرب فلسطين، ذوي الأصول والميول الآسيوية، كانوا إما جواسيس أو لصوص، يصعب عليهم التأقلم مع الآخرين والذوبان فيهم، ولا يمكن الثقة بهم مطلقاً. يعتبر اليهودي ــ منذ ظهور اليهود ــ عميلاً معادياً خلف الخطوط الأوروبية...».

والمؤسسات القضائية والثقافية والفنون، ولا تقتصر فقط ـ كما أوضح شيموني ـ على المشاركة في أعمال التخريب الثوري والعنف الإرهابي[1].

يزودنا الدكتور شيموني بالوقائع الحقيقية عن التورط اليهودي في النشاط الثوري بجنوب أفريقيا، دون أية محاولة للشرح والتفسير، لثقته بأن قراءه اليهود لا يحتاجون لمن يساعدهم على ربط هذه الحقائق بالأهداف والطموحات السياسية اليهودية. فقد بدأ الصراع ـ حسب قوله ـ في عام 1950، حين أصدرت حكومة جنوب أفريقيا قانون القضاء على الشيوعية، الذي تم تعديله من حين لآخر، لإعطاء الدولة القدرة على منع وتحريم أية منظمة قد يكون لها أهداف شيوعية فيما بعد. يكتب شيموني على ص 227 قائلاً:

بعيداً عن تأثير تلك الأحداث المأساوية على حياة اليهود، كمواطنين بيض في جنوب أفريقيا، فقد كانت لها نتائج هامة وبارزة على الجالية اليهودية في جنوب أفريقيا كمجتمع. والسبب يعود إلى صمت اليهود ـ غير العادي ـ كأفراد، في معارضة البيض لنظام التمييز العنصري الحاكم. ففي كل تلك الفترة، ظلت الأسماء اليهودية تظهر على جميع واجهات الصراع: واجهة الإصلاحيين الأحرار، والمعارضين المتطرفين الشيوعيين، وفي المحاكم كمحامين أو مستشارين للدفاع، وفي قوائم المحكومين والمحرومين، وبين أولئك الذين هربوا من البلاد خوفاً من الاعتقال. ولقد انتشرت شهرتهم بشكل خاص خلال المحاكمة بالخيانة العظمى التي احتلت مكاناً بارزا وهاماً من أخبار أجهزة الإعلام في النصف الثاني من خمسينيات القرن العشرين. بدأت هذه المحاكمة بشهر كانون الأول من عام 1956، حين تم توقيف 156 شخصاً بتهمة الخيانة العظمى، لقيامهم بحياكة مؤامرة للإطاحة بالدولة بالعنف، واستبدالها بدولة على أسس شيوعية. كان بين هؤلاء الموقوفين 23 من البيض، أكثر من نصفهم يهود.

يضع شيموني قائمة بأسماء بعض أولئك الموقوفين، من بينهم: فيتا بارينبلات، حاييمي بارسيل، ليونيل (راستي) بيرنشتاين، ليون ليفي، نورمان

[1] الدكتور ناحوم غولدمان، الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي وللمنظمة الصهيونية العالمية، يعبر عن ذلك في كتابه «التضاد اليهودي» بقوله «الحقيقة هي أن اليهود ثوار لصالح الآخرين وليس لأنفسهم».

ليفي، سيدني شال، روث (فيرست) سلوفو، سونيا بانتينغ، ليونيل فورمان، إيزاك هورفيتش، بن توروك، جاكلين أرينشتاين، إيرول شانلي، دوروثي شانلي، ثم يستطرد قائلاً بعفوية غير مقصودة:

فوق ذلك كله، كانت هيئة الدفاع في إحدى مراحل المحاكمة بقيادة إسرائيل مايزيلز، بينما لم يجدوا لدور النائب العام سوى أوزوالد بيروف. كان الموقف مذهلاً: مايزيلز ــ القيادي الشيوعي الشهير ــ يدافع عن متهمين بالعمل للإطاحة بالتفوق الأبيض، وبيروف ــ القومي الأفريقي المتطرف المتعاطف مع النازية سابقاً ــ يدافع عن التفوق الأبيض.

مما يلفت النظر بشكل مؤكد، أننا لا نجد في كل كتاب شيموني أي أثر لموقف عدواني أو تضارب مصالح بين المجتمع اليهودي ككل، وأولئك المتهمين بمحاولة الإطاحة بالدولة بوسائل ثورية. ولقد انكشف ذات الموقف الغامض اللاملتزم لليهود تجاه النشاط الثوري في عام 1963، حين أغار رجال الشرطة على المنزل الفخم لأرثر غولدريتش في ريفونيا قرب جوهانسبورغ، وقبضت على الكادر القيادي لما يفترض أنه الحركة الثورية الشيوعية السوداء المعروفة باسم «**رمح الأمة**». يكتب شيموني قائلاً:

ألقي القبض على سبعة عشر شخصاً، من بينهم سيسولو وكاثرادا، اللذين ترأسا على التوالي المؤتمر الأفريقي والهندي المحظور، إذ كانا هاربين من وجه الشرطة. خمسة من الموقوفين كانوا من البيض، والكل من اليهود، هم: أرثر غولدريتش، ليونيل بيرنشتاين، هيلارد فيتزنشتاين، دينيس غولد بيرغ، وبوب هبيل.

هذا الدور المتناقض العجيب لليهود في جنوب أفريقيا، لخصه ناثانيال ويل في كتابه «**نهاية الخونة**»، وهو يتحدث عن معاداة السامية في جنوب أفريقيا، قال:

لعل الأمر الأكثر أهمية هو بروز يهود جنوب أفريقيا وشهرتهم في حقول المال والخبرات والمالية والتعدين ومراكز الاقتصاد الأخرى التي تحكم الأمة، من جهة، وفي حركات الإصلاح الثورية المتطرفة، من جهة ثانية. فمنذ البداية، برز اليهود واشتهروا في الحزب الشيوعي بمختلف جبهاته، كما كانوا رائعين بالمثل في مختلف الحركات الساعية إلى تحطيم الحواجز التي تفصل البيض عن السكان من غير البيض.

ولما كان هذا التناقض العجيب، لأقلية عرقية ثرية متميزة عن جميع الفئات الساعية للإطاحة بالنظام الحاكم، ظل بدون تفسير في الكتب التي ألفها يهود **(مثل تاريخ شيموني عن الصهيونية في جنوب أفريقيا)**، فلابد من افتراض أن عدم التفسير هو الضروري المطلوب بين اليهود أنفسهم. ويتفق هذا الفرض لحل إشكالية التناقض العجيب مع نظرية البروفيسور كيث عن أن اليهود في كل مكان ـ لأسباب تتعلق بتوحدهم وتكافلهم كمجموعة ـ يثيرون الفتن والحروب الخفية بين الأغلبيات التي يعيشون بينها. ومن هنا، فإن نضالهم المستمر لتحطيم جميع الحواجز الفاصلة بين مجموعة عرقية وأخرى ـ عدا حواجز العقيدة ـ إنما هو تأكيد دائم على الانفصالية اليهودية.

تقوم معالجة شيموني لموضوع معاداة السامية على أساس فرضية بسيطة مسبقة، هي أنه ليس هناك ـ ولا يمكن أن يكون ـ أي مبرر يبرئ غير اليهود في معارضتهم، ولا أي استنكار لكل ما يقوله اليهود ويفعلونه حفاظاً على مصالح جماعتهم.

بناء على ذلك، فإن معاداة السامية إما أن تعتبر شكلاً عدوانياً ينتشر بالعدوى من أشكال الضلال الأخلاقي يمكن مساواته بـــ «**العرقية**» و «**عدم التسامح المتشدد**»، أو أن تعتبر فكراً آثماً شريراً يتساوى مع «**النازية**» و«**الفاشية**» وجميع الأشكال الطغيانية السياسية الأخرى، عدا الشيوعية التي لم ترد مذمومة في أي مكان من الكتاب، رغم كثرة وتكرار ذكرها فيه.

يكتب شيموني عن تلك الفترة من تاريخ أفريقيا، حين كان جميع البيض المسجلين فيها كشيوعيين هم من اليهود، وحين كانت إسرائيل في الأمم المتحدة تصوّت دائماً ضد جنوب أفريقيا، قال:

مما يعكس أيضاً موجة الشك المتنامية بسرعة ضد إسرائيل، العدائية التي عبرّت عنها منظمة تدعى «لجنة الأعمال المعادية للشيوعية داخل الكنيسة (أنتيكوم)»، التي أصدرت نشرات إخبارية بلغتين تعزز الانطباع بأن ثمة علاقة وثيقة بين الجالية اليهودية والشيوعية، واستطاعت بفضل الأدلة المستقاة من نشرات الدعاية للنازية الجديدة إظهار دور اليهود في إثارة الشيوعية والبولشيفية، وفي ضوء الظروف السائدة في جنوب أفريقيا، بدت هذه المزاعم مغرية وخطيرة، لأن منظمة أنتيكوم كانت مسؤولة ظاهرياً عن رعاية الكنائس الأفريقية والإشراف عليها، ولأن أثر مجلس

المندوبين على لجنة أنتيكوم كان ضئيلاً، فجاء الجواب، أنه «في ضوء النسبة العالية لليهود في قوائم الشيوعيين المنتظمين». فإن على الجماعة اليهودية بيان موقفها من «القتال ضد الشيوعية الملحدة».

كان من الواضح أن الجماعة اليهودية في وضع لا تستطيع معه أن تعلن بشكل لا لبس فيه أنها ضد «**الشيوعية الملحدة**»، كما لا تستطيع أيضاً ــ في مناخ حواري صريح ــ أن تثبت أن مزاعم أنتيكوم لا أساس لها، وأنه لم تقم علاقة بين اليهود والشيوعية من قبل، لا خلال الثورة البولشيفية ولا بعدها. من هنا، لم يكن أمام مجلس المندوبين ــ كما هي الحال في مثل هذه الظروف ــ إلا سبيلاً واحداً للرد، هي أن يشجب بكل عنف مثل هذه الاتهامات. ومرة أخرى، حين قام الجنرال هيندريك فان دينبيرغ رئيس الشرطة السرية والأمن في جنوب أفريقيا بالقرن بين اليهود والشيوعية في حفل اجتماع أقيم عام 1966 عن الشيوعية في بريتوريا، لم يفعل مجلس المندوبين سوى أنه أدان بغضب ملاحظات الجنرال، وقام بالضغط الشديد عليه لسحبها، دون أية محاولة لإثبات عدم صحة ماقاله، أو على الأقل طرح المسألة للحوار.

لا يوجد في الغرب ــ ولم يسبق أن وجد إطلاقاً ــ شيء تمثله كلمة «**معاداة السامية**»، فالغرب لم يبد أية مقاومة رافضة من أي نوع كان لتقبل وامتصاص أشخاص من أصل عرقي يهودي. والواقع أن ثمة عدداً لا يحصى من اليهود عبر الأجيال والعصور ذاب في دول الغرب، وقد يختفي كل عالم اليهود ويتلاشى كأقليات عرقية لو أنهم تخلوا عن سياسة التميز الاستثنائي الحصري وعن معيارهم المزدوج في السلوك الذي تفرضه سياسة التميز تلك. بناء عليه، فإن ما يسمّى «**معاداة السامية**» إنما هو رد فعل غير يهودي على عدم رغبة اليهود بأن يتم قبولهم وامتصاصهم، وعلى ما يفعله اليهود نتيجة لعدم رغبتهم هذه.

كل من يدرس الصحف والمنشورات اليهودية الأخرى ــ وقليل من أهل الغرب من يفعل ذلك ــ لم يخامره أي شك بأن مسألة الذوبان في المجتمعات الأخرى هي التي تقلق القادة الصهاينة أكثر من غيرها، وأن أصغر بادرة استياء غير يهودية يتم تضخيمها إعلامياً لإثارة فزع اليهود وإعادتهم إلى الخط وتعزيز مقاومتهم للمغريات الطبيعية على الذوبان بالآخرين.

كان من النتائج المثيرة للضحك بسخافتها لهذا كله، أن كثيراً من غير اليهود وجدوا أنفسهم يرزحون تحت أحاسيس الشعور بالذنب لما يزعم أنهم قاموا به تجاه اليهود، بينما تعود جذور المشكلة في الواقع إلى ما يصر اليهود أنفسهم على القيام به جاهدين للحفاظ على تميزهم، ولبسط هيمنتهم ـ إن أمكن ـ على غير اليهود.

حيز كبير من كتاب الدكتور شيموني تم تكريسه لشرح وبحث المعلومات حول مساعي قادة اليهود الدائمة والنشيطة لإثارة الهمم وتقوية العزائم لدى شباب اليهود في جنوب أفريقيا ضد مغريات الذوبان. فبعد أن يبحث ويدرس مختلف حركات الشبيبة اليهودية، ومركز تدريب هاكونيم، والمعسكرات التثقيفية والفكرية، يكتب على ص 253 قائلاً:

ثمة مؤشر آخر على قوة الصهيونية في جنوب أفريقيا، هو دورها المؤثر في التطور الهائل لمناهج المدارس النهارية اليهودية بعد عام 1948، التي بلغ عددها في عام 1967 أكثر من 14 مدرسة، تنتشر في أنحاء المدن الكبرى من جنوب أفريقيا، وتستوعب أكثر من 5500 تلميذاً في الصفوف الابتدائية والإعدادية والثانوية، أي حوالي 30% من إجمال عدد الشباب اليهود ممن هم في سن الدراسة. ومع أن هذه المدارس النهارية لايد للمنظمة الصهيونية في تأسيسها أو رعايتها والإشراف عليها، إلا أن طواقمها الإدارية والتعليمية كلها صهيونية. الأكثر من ذلك ـ كما لاحظنا في فصل سابق ـ أن صيغة: «ثقافة يهودية تقوم بشكل واسع على أسس قومية تقليدية» كانت سائدة وموحدة داخل المؤسسات التعليمية ومجالسها في عام 1945.

إن إصرار اليهود على القومية اليهودية، كأساس في ثقافة أطفالهم، جعلهم لا ينظرون بود وفهم متعاطف إلى سعي الأفريقيين لتربية أطفالهم وفق المبادئ القومية المسيحية. على العكس، كانوا ينظرون الى نهج الأفريقيين وتبنيهم الثقافة التعليمية القومية المسيحية على أنه «**ردة فعل أخرى، وتعبير كوني لدى القومية الأفريقية عن عدائها لليهود**».

المسألة ليست ببساطة مجرد ممارسة لمعيار سلوكي مزدوج يميّز بوضوح بين «**نحن**» و«**هم**»، تسببت في إثارة التحسس من الوجود اليهودي عبر التاريخ. لأن المعيار المزدوج ـ كما يشرحه البروفيسور كيث ـ جزء من عملية نشوء متطور ضمنت الحفاظ على تماسك الجماعة ودعم تضامنها،

كما هو الحال بين جميع المخلوقات الاجتماعية. إن فرط التحسس يأتي من معيار مزدوج ــ كذلك الذي يمارسه اليهود داخل المناطق الحدودية للأمم الأخرى ــ ينشأ لدى أمم اخترقتها مصالح عدوانية لجماعة تضر بالشعوب المضيفة، وتشكل أحياناً خطراً على اليهود أنفسهم.

يقدم لنا تاريخ شيموني أمثلة لا تحصى عن أنواع غريبة من التفكير والتعبير، ينتجها بالضرورة وجود هذه الحساسية في التاريخ، عند القارئ الذي لا يملك مشاعر الذهول التي عانت منها أليس في عالم العجائب، باعتباره عالماً غير حقيقي يحتاج إلى درجة عالية من تصور الاحتمالات التي تجعل منه عالماً حقيقياً، تميل معظم المتناقضات المتطرفة فيه لأن تكون مقبولة ومقنعة.

إنه نوع من التفكير استفاد منه الغرب بالحصول على معرفة طفيفة في محاولاته اختراق أسرار الديالكتيك الماركسي اللينيني، الذي تتجلى صفاته الرئيسة في إخضاع جميع اختبارات الحقيقة والمعايير المنطقية لمتطلبات «**الهدف**» فإذا ناسب الـ«**نحن**» فهو حقيقي صحيح، وإذا ناسب الـ«**هم**» فهو كاذب مزيف. ومن هنا، فإن من الممكن في العقيدة الواحدة التوفيق بين الحقيقة والزيف، وهذا ما يطلق عليه جورج أورويل اسم «**التفكير المزدوج**».

لقد كان أمراً يثير العجب يهنئ اليهود أنفسهم عليه، أن يكتشفوا أن العالم بأجمعه لم يلاحظ ــ فيما يبدو ــ أن ما يعتبره اليهود بحماس كبير «**لا مبالاة**» إنما هو ترجمة أفريقية لما يبشرون هم أنفسهم به ويمارسونه تحت اسم الصهيونية، ونعني به تحديداً حماية العرقية والقومية والحفاظ على حق تقرير المصير. ففي الوقت الذي كان فيه اليهود في كل أنحاء العالم يحتلون واجهات الحملات ضد جنوب أفريقيا، كان يهود جنوب أفريقيا ــ ومعظمهم مواطنون إسرائيليون ــ يعملون بتعاون تام مع الحكومة في جميع الحقول، بما فيها المالية والصناعية والدفاعية العسكرية، وحتى في وكالات الأمن القومي[1].

إنه لأمر ممل أن نضع قائمة الأمثلة المتكررة التي لا تحصى للمعايير المزدوجة، أو للتفكير المزدوج، في كتاب شيموني، لأننا في كل صفحة من

---

[1] ثمة مقال هام عن «العلاقة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا» صدر في عدد شباط 1985 من «الشؤون الخارجية الإسرائيلية». وهي نشرة مستقلة تبحث في الأنشطة العسكرية والدبلوماسية الإسرائيلية في أنحاء العالم.

صفحاته نرى كيف يتم توظيف هذه المعايير لخدمة عقلية قومية تفتقر إلى حدود جغرافية آمنة. ولهذا، فإن مثالاً واحداً كاف للتوضيح:

سؤال: ما هي الفكرة ــ من وجهة النظر الصهيونية ــ القابلة للحوار والجدل من بين جميع الأيديولوجيات السياسية؟ الجواب: الاشتراكية القومية.

سؤال ثان: ما الذي حدث في جنوب أفريقيا، حين كانت الاشتراكية القومية الألمانية تجتاح أوروبا؟

الجواب: إننا نقرأ في فصل سنوات الحرب بجنوب أفريقيا من كتاب شيموني عن نشوء الحزب الاشتراكي الصهيوني، بعد أن أصبحت كلمة «**صهيوني**» مرادفة لكلمة «**قومي**». كان هذا الحزب الاشتراكي الصهيوني ــ كما قيل لنا ــ «**يقوم بأبحاث ودراسات عظيمة**». ويكتب الدكتور شيموني قائلا:

في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، وخلال سنوات الحرب العالمية الثانية، توصلت مجموعة فكرية جديدة أخيراً إلى فكرة «الصهيونية الاشتراكية» التي بدأت تأخذ شكلها في البلاد.

لقد قام الدكتور شيموني بكل بساطة بالجمع بين الصهيونية العالمية ونقيضتها الشرسة القاتلة الصهيونية القومية المحلية، دون أية إشارة إلى التضاد بينها واقعياً أو منطقياً. يقول:

لقد أكدت المنطلقات الفكرية للحزب أنه يقف في صف واحد مع الحركات الاشتراكية العمالية في جميع الأقطار، ومع الشعوب في النضال «للتخلص من النظام الرأسمالي والقضاء على الملكيات الخاصة الفردية، وخلق مجتمع اشتراكي مكانها يقوم على أساس الملكية التعاونية المشتركة لوسائل الإنتاج». إلا أن البرنامج الفكري للحزب بالنسبة لليهود يضع شرطاً أساسياً للاشتراكية، هو إقامة وطن يهودي في فلسطين، يعطي احتلالهم لمناطقه ووجودهم القومي شكلاً طبيعياً، حيث تأخذ الصهيونية شكل قومية متطورة تتناغم مع الاشتراكية، أي أنها تصبح حسب هذه المعادلة «اشتراكية في المضمون وقومية في الشكل»[1].

---

[1] من المفيد الطريف الإشارة هنا إلى ما كتبه بن شاوول في جريدة جويش هيرالد بجنوب أفريقيا بتاريخ 27 آب 1974، فقال إن تأسيس وقيام إسرائيل «كان في جوهره ماركسيا وعلمانيا عبر حركة اشتراكية قومية كانت سياستها الخارجية تجاه الانتداب تتبنى في توليفة واحدة البرنامج الاشتراكي لإقامة مجتمع ماركسي علماني على أساس انتقائي».

باختصار، إنها «**اشتراكية قومية**» بالنسبة إلينا، و«**اشتراكية عالمية**» بالنسبة إليهم، حيازة هوية بالنسبة إلينا، وطمس هوية بالنسبة إليهم، أساس معياري بالنسبة إلينا، وأساس معياري آخر بالنسبة إليهم، قدرة وقوة بالنسبة إلينا، وعجز بالنسبة إليهم.

هل من المصادفة أن نرى المفهوم للفكر ذي الوجهين، الذي أوضحه وأعلنه جورج أورويل بكل جلاء، يتجاوب مع ذلك النوع من التفكير الذي نجده في كتب التاريخ اليهودي، سواء الموجه منها إلى اليهود أم إلى غير اليهود؟ وهل من المصادفة أن هذا الفكر ذا الوجهين، والسلوك الناتج عنه، يمثل بكل دقة خلفية ينتج عنها معيار أخلاقي مزدوج وصفه البروفيسور كيث ووضع له تعريفاً شهيراً بأنه وعي عنصري عرقي؟

هذا كله يدفعنا إلى استنتاج أن التاريخ اليهودي يغلق الباب أمام أي حوار باحث ويجعله مستحيلاً، إذ أي حوار يمكن أن يجري في ضوء عدائية واضحة رغم العناية بإخفائها؟ بعبارة أخرى، أي حوار هذا الذي يستطيع باحث غير يهودي أن يجريه مع أولئك القائلين سلفاً بأن المصالح اليهودية مقدسة لا يجوز المساس بها، وأنها لذلك غير خاضعة للحوار؟

التاريخ اليهودي، بالنسبة للدارس غير اليهودي، أشبه بالمتاهة الخرافية في كهف كريتان، حيث لا يقدر البطل ثيسيوس على تخليص نفسه دون خيط مرشد تعطيه له أريادن إبنة الملك مينوس. والتحليلي التفصيلي لهذا الفكر ذي الوجهين الذي قدمه جورج أورويل للدارس غير اليهودي هو البديل المكافئ لذلك الحبل المرشد المجدول من خيوط أخلاقية وخيوط فكرية. إننا نتعلم من أورويل وهو يقول:

التفكير المزدوج ذو الوجهين يعني القدرة على حمل معتقدين متناقضين في الذهن بوقت واحد، وقبولهما معاً.. ولابد من أن يتم ذلك عبر عملية واعية، فقد لا يجري الجمع بين المعتقدين المتناقضين بشكل دقيق كاف، إلا أنها لابد أيضاً من أن تكون جزءاً من اللاوعي. وقد يصحبها شعور بالزيف يعقبه شعور بالذنب.. فرواية الأكاذيب المقصودة مع اعتبارها صادقة أساساً، ونسيان كل واقع حقيقي يتعارض معها، ثم استعادته مرة

أخرى عند الحاجة من عالم النسيان لفترة مطلوبة محددة، وإنكار وجود حقائق موضوعية مع إنكار الفترات الزمنية التي اعتمدتها كحقائق، كل ذلك يتواكب بعضه مع بعض بالضرورة. فمع وجود تعبير الفكر المزدوج ذي الوجهين، لابد من وجود ممارسة ذات وجهين بالضرورة، ومع استعمال المرء لهذا التعبير يقر بأنه يتلاعب بالحقيقة، لكنه مع ممارسته السلوكية له يطمس هذا الإقرار ويمحوه، وهكذا إلى ما لا نهاية، في كل مرة يكذب فيها المرء ليقفز عن الحقيقة.

(عن كتاب ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون)

المؤرخ اليهودي محصَّن ضد أي شعور بالزيف، وأي وخز للضمير. لأن القناعة بعدوانية الأغلبية وخطر الذوبان فيها موجود بالضرورة لدى كل من يسعى لامتلاك هوية يهودية وللاهتمام بالمصالح اليهودية. ومن هنا وجب أن تتغطى هذه الضرورة البيولوجية عملياً بستائر البراءة، شأن كل عمليات التمويه والتخفي التي تميز المصالح المتضادة المتعادية في جميع مجالات وأنحاء الطبيعة.

الفكر المزدوج ذو الوجهين يمكن اعتباره نوعاً من أنواع الخطيئة الأصلية الأولى التي لازمت الأجناس البشرية، منذ أن تم اكتشاف أن العبارة الكاذبة ــ إن تم تصديقها ــ تعطي ذات الأثر الذي تعطيه العبارة الصادقة، وأن تشويه الحقائق قد يستخدمه المرء لفرض إرادته على آخر. قل لشخص ما وأنت تزوِّر إن منزله يحترق، وسيتصرف تماماً كما لو أن منزله يحترق فعلاً، فحالة الاقتناع هنا حلَّت محل حالة المعرفة الصحيحة والفهم. لقد لفت أفلاطون الانتباه في نقده للفلسفة السفسطائية (فايدروس 261) إلى ما وصفه بــ «**فن استلاب العقل بالمناظرة والبرهان**» مستشهداً بأحكام نتجت عن الاقتناع وليس عن الحقيقة. إلا أنَّ هذه العملية تلقي أثرها على القائم بالإقناع، لأنه في كل مرة يشوه فيها الحقائق ويزيف فيها البراهين يحتاج إلى المزيد من الأكاذيب ليجعل فكره الخاص موحداً متماسكاً، فيزداد بذلك خطر ضياع الحقيقة عنده، وينتهي به الأمر إلى حالة من العزلة أو الانفصام تضيع فيها القدرة على التمييز بين الحقيقة والزيف.

إنما، بنفس الطريقة التي يجعل التدريب والممارسة من الخوارق الخطرة المستحيلة أمراً ممكناً، كذلك يمكن للتدرب على التفكير المزدوج ذي الوجهين وممارسته أن يطوّر ويصقل هذا النوع من التفكير لدى بعض الأفراد إلى حد يفوق قدرات غير المدربين والممارسين. هذا التفكير المزدوج البالغ التعقيد الذي تم تطويره إلى سلاح رئيسي في المجالات النفسانية خلال القرن هو الذي مورس بمهارة لا مثيل لها من قبل القوميين اليهود، صهاينة وشيوعيين، وبمهارة أقل من قبل عملائهم غير اليهود. والواقع أن ثمة فرق كبير في الفكر المزدوج بين ما يمارسه الناشطون السياسيون اليهود ــ بما فيهم الصحفيون والمؤرخون ــ وما يمارسه عملاؤهم المفتونون المستلبون فكرياً من غير اليهود. فالمجموعة الأولى تحركهم غريزة عرقية قوية، متسلحين بخبرات وتجارب تراكمت على مدى قرون، بينما ليس لدى المجموعة الثانية أي دافع أو مرجع مؤكد سوى فكر يساري لا حياة فيه.

ومن هنا، فثمة فرق هائل في الفكر المزدوج بين ويتاكر شامبرز (الشاهد الرئيسي في قضية الجاسوس السوفييتي آلغر هيس في الولايات المتحدة الأمريكية 1948 - 1950) والمؤرخين اليهود المعاصرين المشهورين أمثال البروفيسور نورمان كوهن. فشامبرز، الذي انهار تحت ضغط التوتر وهو يحاول أن يعيش في عالمين فكريين بآن معاً، أوضح سلامة نيته وصدق طويته قبل أن يتحول إلى الديانة المسيحية، قائلاً:

لقد كان علي أن أغير طريقتي في الحياة وفي التفكير بكاملها. وكان علي خلال ذلك أن أتخلص من آثار سنوات عديدة ماضية، صدف أن معظمها كان مشبعاً بفكرة السامية. ولا مجال مطلقاً لإلقاء اللوم على هذه الآثار، فأنا بدلاً من ذلك ألوم نفسي على قبولي بها. (فقرة من رسالة أرسلها ويتاكر شامبرز إلى أحد أصدقائه عام 1943)[1].

---

[1] رسالة من ويتاكر شامبرز إلى أحد أصدقائه اقتبسها آلان فاينشتاين في كتاب عن قضية شامبرز ــ هيس بعنوان «الحنث باليمين». فقد أدين آلغر هيس بجرم الحنث باليمين لإنكاره القيام بالتجسس. وهناك ملخص رائع لقضية شامبرز ــ هيس وضعه دوغلاس ريد في كتابه «خلف الكواليس». وانظر أيضاً سيرة حياة ويتاكر شامبرز بقلمه، مطبعة راندوم، نيويورك، 1952.

كان مزيج الحقيقة والزيف مكتملاً يقوى بشكل غريزي لدى صاحب الفكر المزدوج إلى حد أنه ـ حسب ملاحظات أورويل ـ يصدق بالفعل (ولو إلى فترة تقتضيها الضرورة) ما يعرف أنه غير حقيقي دون أن يخفف ذلك من إحكام قبضته على الحقيقة. والواقع أنه يصدق نفسه وهو يعلن ذلك بعبارات ذات مصداقية عالية.

ولعل خير مثال عن أنواع التفكير المزدوج، هو الفصل الختامي من كتاب البروفيسور نورمان كوهن «**البرهان على محارق الإبادة الجماعية**»، الذي يعزو فيه ردود فعل الاستياء والغيظ لدى غير اليهود إلى «**آلية نفسانية يرى الإنسان على ضوئها في سلوك الآخرين ميولاً فوضوية يخاف أن يراها في نفسه**». يقول كوهن مبرهناً على نظريته ببراعة فائقة:

إننا نرى في اليهود ـ ككل ـ بعقلنا الباطن الابن «الشرير»، أي العاق المتمرد الذي يتمنى الموت للأب، والأب «الشرير»، أي الذي يعذب ويخصي ويقتل الابن.. (ويمضي كوهن شارحاً):

فبعد سيغموند فرويد نفسه، جاءت تشكيلة من المحللين النفسانيين ليبرهنوا على أن اليهود ـ بسبب رفضهم للإله المسيحي ـ في نظر بعض المسيحيين وعقلهم الباطن أبناء عاقين أشرار، لا بل إنهم في الواقع قتلة الآباء. وهذا يعني أن من السهل تراثياً وتقليدياً إغراء أي مسيحي بأن يجعل من اليهودي كبش فداء عند أي امتعاض يظهر منه تجاه هذا الأب، وأي خلاف يصدر عنه تجاه ربه.

إذا لم يقنعنا هذا التوضيح، فإن لدى البروفيسور كوهن تفسيرين آخرين يقدمهما في هذا المجال. يقول:

اليهودي أقرب ـ في عقلنا الباطن ـ إلى الوصف بالأب «الشرير» من الوصف بالابن «الشرير». وهذا أمر قابل للفهم تماماً، لأن العلاقة التاريخية بين الشعب اليهودي من طرف، والمسيحية وأوروبا من طرف آخر، تجعل من المتعذر أن نرى فيهم إلا مجموعة آبائية. واليهود ـ كشعب ـ أقدم بالطبع من معظم الشعوب الأوروبية، لكن هذا ليس كل شيء. فاليهودية هي الديانة الأم التي تطورت المسيحية عنها وبها.

هل مازلنا غير مقتنعين؟ حسناً.. إن لدى البروفيسور كوهن تفسيراً آخر يقدمه إلينا. يقول:

لعل الأهم من ذلك كله، أنه في الوقت الذي يزعم فيه أن إله المسيحية يتألف من أب وابن، فإن إله اليهود يتألف من أب فقط. ويمكن للمرء أن يضيف أن المسيحيين الذين تعرفوا على إله اليهود من العهد القديم، دون أن يعرفوا شيئاً عن التطور الذي لحق باليهودية فيما بعد، يرون فيه مستبداً فردياً وأباً قاسياً لا يعرف الرحمة[1].

ونتذكر هنا، أن هذا النوع بالذات من القناعة موجود عند أورويل في كتابه «**ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون**»، حيث يقول أوبرايان (الذي تغير اسمه الآن ليصبح إيمانويل غولدشتاين) لوينستون سميث:

أنت تعرف تماماً ما هي المشكلة لديك، وكنت تعرف ذلك منذ سنين، ومع ذلك أنكرت هذه المعرفة وحاربتها. أنت مشوش فكرياً، وتعاني من ذاكرة متخلفة مريضة.

إن من الواضح عند وينستون أن ذاكرته متخلفة مريضة، لأنه يصر على استعادة المعارف التي يجب أن تنسى، والتي أصبحت بكاملها غير موجودة.

بالمثل، فإن المطلوب من غير اليهود أن يشطبوا من ذاكرتهم الجمعية كل المعارف عن الأذى والظلم الذي عانوه على أيدي اليهود، وأن يفهموا أن أقل توافق مع المتطلبات اليهودية لا يعني ـ حسب زعم البروفيسور كوهن ـ أكثر من «**جنون نفسي جمعي**».

بلهجة متعالية باردة تطفح بالغطرسة الوقحة، يضع البروفيسور كوهن أمامنا تفسيراً يشوبه التعقيد لمسألة «**معاداة السامية**»، يقبله الدارس الغافل مدفوعاً بمحتواه المنطقي البارع، دون أن يمعن النظر في الأساسات المشكوك بها التي قام عليها، وعلى الأخص النظرية الفرويدية الضبابية الوهمية حول العدائية الفطرية بين الآباء والأبناء.

هذه «**التفاسير لمعاداة السامية**»، التي يمكن وصفها بأنها نوع من الحرب النفسية ـ شأن معظم كتابات فرويد ـ أخذت شكل الأبحاث الدراسية، تم رسمها بحذق ماكر لإضعاف العقل الغربي، ولتحويل الانتباه إلى أبعد

---

[1] تصحيحاً للفكر الالتفافي المتقوقع على ذاته لدى البروفيسور كوهن حول ما يسميه «الأب ـ الابن» انظر التحليل النفساني للبروفيسور توماس تساتز في كتابه «أسطورة العلاج النفسي»، ودوغلاس ريد في كتابه «تناقض صهيون».

ما يمكن عن دائرة البحث، حيث لابد لأي بحث يستقصي الحقائق على الصعيدين المنطقي والواقعي من أن يبدأ بالشكاوى الفعلية من الظلامات التي عاناها اليهود باستمرار عبر العصور على يد شعوب مختلفة العرق والقومية عاش اليهود بينها كأقليات. ولكن بدلاً من جعل الشكوى موضوعاً للبحث، انصب الاهتمام على محاكمة هذه الشكوى، أو ـــ كما قال البروفيسور كوهن ـــ تم تسليمها للأطباء النفسانيين لدراستها سريرياً.

يعتبر الظلم اليهودي ـــ الذي وصفه البروفيسور آرثر كيث بأنه «**معيار العدائية**» على صعيد الممارسة ـــ مضرب المثل في جميع لغات العالم الغربي. ومن هنا فنحن نجد في المعجم الإنكليزي تعريفاً للـ«**يهودي**» بأنه «**الذي يمارس الابتزاز، ويقود الصفقات الصعبة**»، ونجد أن فعل «**هاد**» فعلاً متعدياً يعني «**غشّ وخدع**». (انظر مختصر معجم أوكسفورد).

إن جميع الحقائق المتعلقة بالعلاقات المضطربة دائماً وأبداً بين اليهود وغير اليهود موجودة وجاهزة في متناول البحث، ولا ينقص سوى الرغبة بالبحث والقدرة عليه. واليهود في صراعهم من أجل البقاء يتنامون ويزدادون قوة، فالأمة المبعثرة في شتات الجغرافية تجد من الضروري أن تركز طاقاتها على أشكال الأنشطة الاقتصادية التي تجعلها جاهزة «**لعقد الصفقات الصعبة، وللغش والخداع**»، لتستطيع بعدها بالعمل الجماعي أن تتحكم بمنتهى السهولة بحركة تدفق الأموال والبضائع. ولهذا فقد أظهر اليهود دائماً ميلاً وتفضيلاً ملحوظاً للاختصاصات والمهن التي تتيح ممارستها على أساس محكم أعلى حد من التأثير على السكان المضيفين. بالمقابل، كان يتم بكل دقة صارمة تجنب جميع الوظائف في مؤسسة أو هيئة عامة يغلب عليها الطابع الحرفي اليدوي، كالزراعة، وخدمات التسليح وجميع أنواع التجارات الحرفية.

من هنا، نستطيع ـــ واضعين في أذهاننا ومتسلحين برؤية ثاقبة كاملة للدوافع والأساليب ـــ أن نغامر بالدخول إلى الكهوف المعتمة في متاهة كتب التاريخ اليهودي، سواء أكانت موجهة لليهود أم لغير اليهود، دون أن نصاب بالدوار أو نتعرض للضياع، متمسكين بإيماننا الراسخ ـــ كمسيحي يؤدي فريضة الحج ـــ بأن هناك حقيقة موجودة، حقيقة نحتاج إليها من أجل صحتنا وسعادتنا، قادرة على الوقوف بحزم في وجه كل قوى الإقناع بالقهر والفكر الإرهابي.

الفصل 8

التحالف الصهيو - شيوعي في الشرق الأوسط

هذا الفصل جزء من مقالة ظهرت في نشرة إخبارية عام 1984 اسمها «**ما وراء الأخبار**»، ثم نشرت فيما بعد بكتيِّب في كندا بعنوان «**حل أحجية الشرق الأوسط**»، ثم تحولت إلى فصل في الطبعة الأولى من كتاب «**العنصر الصهيوني**» الذي أعيدت طباعته نظراً لأهميته كصورة عامة للوضع في الشرق الأوسط من المنظور التاريخي العالمي، بعد إدخال ما حصل من تطورات منذ كتابته أول مرة.

لا يمكننا أن نأمل بأن نستطيع فهم الوضع الخطير الحالي، والمتدهور باستمرار، في الشرق الأوسط، إلا إذا تمثلنا في أذهاننا وتسلحنا بتفسير لأحداث التاريخ يرسم الألوان الحقيقية للعاملين المتضادين الرئيسيين: الاتحاد السوفييتي، كمؤيد بالفرض للدول العربية، وإسرائيل، كمعقل بالفرض للمقاومة الغربية في وجد التوسع السوفييتي.

بتعبير آخر، إن مغزى التطورات التي تهدد بجر العالم إلى حرائق ومذابح حرب هائلة أخرى، لن نجده في الشرق الأوسط اليوم، بل في تطورات من نوع مختلف تماماً بدأت مع نهاية القرن التاسع عشر.

وطبقاً لهذا التفسير للتاريخ، لن نجد في تقارير أجهزة الإعلام، ولا في أي من كتب التاريخ، جميع المتغيرات السياسية الرئيسية التي حدثت في القرن العشرين، والتي تعود في جذورها إلى متغيرات ثورية بدأت تتجسد ـ في ذلك الوقت ـ في حقل التوظيف والتمويل المالي.

تتضمن المستجدات السياسية المتواكبة بشكل متلاحم مع هذه المتغيرات المالية: الثورة البولشيفيكية، وما تلاها من قيام الاتحاد السوفييتي كعملاق

على الصعيدين الصناعي والعسكري، والحرب العالمية الثانية، وما تلاها من تفكك الإمبراطوريات الاستعمارية وتأسيس منظمة الأمم المتحدة، وقيام عدد لا يحصى من الدول، بعضها بالغ الصغر، ليس بينها من يملك اكتفاء ذاتياً اقتصادياً، لكنها جميعاً ممثلة في برلمان عالمي جديد.

أما المتغيرات في حقل التوظيف والتمويل المالي، التي خلقت كل هذه التغيرات الثورية وغيرها، فيمكن إيجاز وصفها فيما يلي:

على مدى مرحلة طويلة من الزمن تلت بداية الحقبة الصناعية الجديدة، تمركز النظام الرأسمالي ـــ دون أن يتأثر بالرساميل والملكيات الخاصة ـــ في مراكز محلية، فكان هناك تمويل وتوظيف رأسمالي بريطاني تشرف عليه حكومات بريطانية مسؤولة بدورها أمام هيئة ناخبين. وكان مثله في ألمانيا وفرنسا وهولندا وغيرها، وكلهم يشارك في حكومة محلية مسؤولة بالنهاية أمام هيئة ناخبين محلية.

في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، دخلت هذه المراكز المحلية للتوظيف والتمويل المالي في منافسة ضارية، لعل أبرز مثال عليها هو التسابق على الاستيلاء الاستعماري في أفريقيا، وفي كل مكان في العالم غير متطور على الصعيد الصناعي. وثمة مثال آخر هو الحرب العالمية الأولى، التي أشعلها التنافس على السلطة بين مراكز المال المحلية في بريطانيا وألمانيا.

فالذي حدث وقتها، هو أن العديد من مراكز التمويل والتوظيف المالي المحلية اندمجت معاً لتقيم شكلاً جديداً في التاريخ، هو **«الرأسمالية الدولية»**، قرر بكل ضراوة أن يتحرر من التبعية لأية حكومة محلية وهيئة ناخبة.

بدأت عملية الاندماج هذه فعلياً مع حرب البوير، لكن تأثيرها الهام على الأحداث العالمية بدأ بالوضوح في العقدين التاليين.

آخر مركز من مراكز الرأسمالية المحلية ألقى سلاحه واستسلم، كان الولايات المتحدة الأمريكية، حين خسر خليط من الأسر الغنية الأمريكية ـــ في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين ـــ بقيادة ج. ب. مورغان سيطرتهم على وول ستريت لصالح أصحاب الأموال الدوليين، حسبما ورد مسجلاً عند الدكتور كارول كيغلي.

لاشك أبداً في أن أحد أهم العوامل التي حملت معها المتغيرات الثورية في مجال التمويل والتوظيف المالي، وجود أسر مالية مصرفية ضمن مختلف الأمم الأوروبية تخصصت دائماً في أعمال التمويلات المصرفية خارج الحدود المحلية، حسبما يحدثنا الدكتور كيغلي عن تاريخ العالم في زمننا بكتابه «**مأساة وأمل**»، يقول:

أعظم هذه الأسر والسلالات الحاكمة مالياً دون منازع كانت أسرة ماير روتشيلد (1943 - 1812) من فرانكفورت، التي ظل أسلافها الذكور ــ على مدى جيلين على الأقل ــ يتزوجون بنات أعمامهم أو بنات إخوتهم. أبناء روتشيلد الخمسة الذين أسسوا فروعاً في فيينا ولندن ونابولي وباريس إضافة إلى الفرع الأصلي في فرانكفورت، تعاونوا مع بعضهم بطرق نقلتها عنهم الأسر والسلالات المصرفية الأخرى حرفياً، لكنها نادراً ما نجحت في التفوق عليهم فيها.

حين يتحدث الدكتور كيغلي عن الأسر المصرفية الدولية الأخرى، يسمّي لنا: بارينغ، لازارد، إيرلانجر، شرودر، سيليغمان، سبايرز، ميرابو، ماليت، فولد. وقد تمتد هذه القائمة لتشمل: فاربورغ، كون، لوب، شيف، وغيرها.

ليس ثمة حاجة للبحث عميقاً في سلسلة نسب هذه السلالات الحاكمة المصرفية المتوزعة بين الدول، لأنها كما يقول الدكتور كيغلي:

.. ومع مرور الوقت، انضمت إلى شبكتهم المالية جميع المراكز المصرفية الإقليمية بما فيها المصارف التجارية وبنوك الادخار، إضافة إلى شركات التأمين، لتشكل بمجموعها نظاماً مالياً واحداً على أساس دولي يسيطر ويتلاعب بالسيولة المالية بشكل يجعلها قادرة على التأثير ــ إن لم نقل التحكم ــ بالحكومات من جانب وبالصناعات من جانب آخر.

الكل يعرف أن جميع هذه الأسر المصرفية ــ عدا النادر ــ كانت دائماً، ومازالت، أسر يهودية. حتى تلك القلة النادرة من أمثال مورغان وروكفيللر، فإنها تدعم النظرية القائلة بأن السيطرة على التمويل والتوظيف المالي الدولي على شكل نظام مندمج موحد إنما هي يهودية بالأصل. إن موضوع نشوء توظيفات مالية دولية بأيد يهودية يقتضي بعض التوسع في الإطلاع على

المراجع، وهذا ما تمت الإشارة إليه في حاشية بنهاية هذا الفصل، مع ذكر المزيد منها في فصول أخرى[1].

في خضم هذا كله بالنسبة للغرب، ومع تزايد الخطر يومياً، فقد حان الوقت لنقرر بوضوح جلي أن أي إذعان إضافي للدعاية، وللضغط الهادف إلى إثباط وعرقلة الحوار الكامل الصريح حول الدور اليهودي في السياسة هو إهمال للواجب وتملص من المسؤولية لا يغتفر.

إن جميع التغيرات الرئيسة التي حصلت في قرننا، من الثورة البولشيفيكية ونتائجها الكارثية إلى التردي في الحرب العالمية الثانية مروراً بانهيار الإمبراطوريات الاستعمارية ونشوء أكذوبة «**عالم البرلمانات**»، كل هذه التغيرات وكثير غيرها يمكن وصفها بأنها تغيرات أملتها حاجات ومطامع سلطة مالية دولية جديدة. إذ كان من الواضح أنه ليست هناك طريقة لضمان أمن وازدهار هذه السلطة المالية، المسيطر عليها يهودياً، بوجود حكومات قوية في أوروبا وروسيا تفرض هيمنتها بشكل تكون فيه هذه السلطة المالية مسؤولة أمامها وخاضعة لها.

وحدهم أصحاب الرؤوس المتصلبة، الذين اعتنقوا ـ بشكل أعمى ـ الاشتراكية كدين بديل، هم الذين يقفون في وجه كل من يحاول أن يكتشف لنفسه أن الثورة البولشيفيكية، و«**ديكتاتورية البروليتاريا**» كما يسمونها، كانت تجربة خادعة على الصعيد التطبيقي ليس لها مثيل مواز في التاريخ.

لقد تم تمويل وتخطيط الثورة البولشيفيكية وتوجيهها من خارج البلاد، وتم إنشاء الاتحاد السوفييتي، وحفظه من الانهيار، وجعله قوة عظمى على الصعيدين الصناعي والعسكري، من قبل ذات السلطة المالية الدولية التي أنشأت وحفظت وسلّحت دولة إسرائيل، وهناك من الأدلة والبينات لدعم هذا القول ما يكفي ليملأ مكتبات بكاملها، أدلة وجدت أجهزة الإعلام أن من الأسلم تجاهلها بدلاً من كشفها.

---

[1] أنظر الفصل التاسع «الرابطة الشيوعية ـ الرأسمالية». فدور السلطة المالية في حرب البوير مشروح في كتاب توماس باكينهام «حرب البوير» الصادر عام 1979 عن فايدنفيلد ونيكولسون. وانظر أيضاً كتاب ج. آ. هوبسون «الحرب في جنوب إفريقيا» الصادر عام 1905 عن جيمس نيزبيت، لندن، وسيرة حياة السير ويليام باتلر بقلمه، الفصل 12 – 16 والفصل 23,22، الصادر عام 1911 عن كونستابل.

بنفس الطريقة يمكن وصف انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية بأنها «**الحرية التي ضمنتها السلطة المالية الدولية لنفسها**» لتبتلع مناطق شاسعة من أيدي القوى الاستعمارية الأوروبية، وتسيطر عليها عن طريق أنظمة قمعية مفوضة يسهل تحريكها والتعامل معها وإزاحتها بانتهاء الحاجة إليها، مع إضعاف الدول الأوروبية المحلية، وخلق أصوات عديدة في منظمة الأمم المتحدة قابلة للسيطرة عليها تضاف إلى مكاسب أولئك الدوليين.

مع عدم وجود أحد لديه أية طموحات لمعرفة التاريخ، يجرؤ على التحدي والقول بنظرية أن الثورة البولشيفيكية شكل تطبيقي يهودي إلى حد كبير، وأنه لا مجال لتحويل الثروات الغربية والتقنيات الصناعية إلى الاتحاد السوفييتي دون موافقة ومشاركة الأموال الدولية المسيطر عليها يهودياً، فقد دار جدال حواري مشوش على مدى السنوات حول الهوية العرقية لأسياد السياسة في الاتحاد السوفييتي، وخصوصاً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد قامت سياسة الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط على أساس الوقوف بقوة في وجه نظرية أن السلطة اليهودية مازالت هي المسيطرة على الاتحاد السوفييتي. فكما تبين فيما بعد ــ حسب تعبير أحد الكتّاب ــ لم يكن التظاهر بصداقة العرب، وضخ الأموال في أقنية دول الشرق الأوسط المعادية للصهيونية، يأخذ الشكل الواضح «**لتأييد السامية**». هكذا كانت الأمور تبدو في الظاهر، ولكن كيف أمكن خداع العديد من العرب ــ إضافة إلى بقية العالم ــ إلا بهذا الظاهر المزيف للأمور؟

وحين نتوقع الخداع، كما في حالة الدعم السوفييتي المزعوم للعرب، أليس من واجبنا أن نعير اهتمامنا للنتائج، لا لنوع المساعدة المقدمة؟ فإن كان ذلك كذلك فما هي نتائج سياسة الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط؟

والجواب أن الصهاينة والسوفييت حققوا مكاسب هامة في الشرق الأوسط. فأوضاع العرب ــ وخصوصاً الفلسطينيين ــ أصبحت بوجود «**المساعدات السوفييتية**» أسوأ من قبل. واستطاع الاتحاد السوفييتي أن يضمن لنفسه قدماً راسخة في شرق المتوسط، واستطاعت إسرائيل أن تنتزع المزيد من الأراضي العربية، سواء من داخل فلسطين أو من الدول المجاورة.

إن من الصعب أن نتخيل قدرة الإسرائيليين على تحقيق مثل هذه المكاسب دون هذا «**الدعم السوفييتي المزيف للعرب**».

كان من الواضح أن الإسرائيليين بحاجة إلى «**بعبع**» التوسع السوفييتي في الشرق الأوسط، ثم هم بحاجة إلى إظهار أنفسهم كحصن من حصون المقاومة الغربية في وجه هذا التوسع، لتبرير المساعدات الهائلة من الأموال والأسلحة التي يتلقونها من دول الغرب، وخصوصاً من الولايات المتحدة. فأعطاهم الاتحاد كل ما هم بحاجة إليه، دون أن ينقص ذلك ـ في الوقت نفسه ـ من اهتمامه بمصالحه التوسعية.

بعبارة أخرى، لقد تصرف الاتحاد السوفييتي تماماً كما هو متوقع من مجموعة تعرف أنها مازالت في أرفع مستوياتها تحت السيطرة السرية اليهودية، صداقة مزيفة للعرب، ومعارضة ضعيفة مزيفة أيضاً للإسرائيليين.

لم يكن الملك الراحل فيصل يشك أبداً بوجود تحالف دائم بين الاتحاد السوفييتي والصهاينة في الشرق الأوسط. ففي مقابلة له بتاريخ 21 كانون الأول 1971 مع مجلة نيوزويك قال «**الصهيونية والشيوعية تعملان يداً واحدة لمنع أية تسوية تحقق السلام». ثم تابع واصفاً الصهيونية بأنها «أم الشيوعية» وأضاف «إنها تساعد على نشر الشيوعية في كل أنحاء العالم، وهي تحاول الآن إضعاف الولايات المتحدة، وإذا قدر لمخططها أن ينجح فسترث العالم»**.
ولدى سؤاله: كيف استقامت له هذه النظرة في حين أن الروس والإسرائيليين يقفون على طرفي نقيض في النزاع الشرق أوسطي، أجاب الملك فيصل:

> *ذلك جزء من مخطط كبير.. من مؤامرة كبيرة. إنهم يتظاهرون فقط بالوقوف ضد بعضهم بعضاً في الشرق الأوسط. فالصهاينة يخدعون الولايات المتحدة والشيوعيون يخدعون العرب بدفعهم إلى الاعتقاد بأنهم في صفهم، لكنهم عملياً في فريق واحد مع الصهاينة.*

أما الجنرال السير جون غلوب (غلوب باشا) في كتابه «**أزمة الشرق الأوسط**»، فلا يذكر شيئاً عن النفوذ اليهودي المؤثر في الكريملين، إلا أنه لا يشك أبداً لحظة واحدة بأن السياسة السوفييتية عام 1967 «**هي التي دفعت بالولايات المتحدة في طريق لا عودة منه إلى جانب إسرائيل، وإلى استدراج العرب إلى فخ هزيمة نكراء زادت من يأسهم واعتمادهم على الدعم السوفييتي**».

الأهم من ذلك، أن وجهات نظر مسؤولين مثل الملك فيصل والجنرال غلوب باشا تعتبر دليلاً على ما كان يجري فعلاً في الشرق الأوسط. فمن هو الجانب الذي أيده الاتحاد السوفييتي يوم تم الإعلان عن قيام إسرائيل؟ يجيب عن هذا السؤال الباحث اليهودي البولندي الأصل إسحاق دويتشر ــ مؤلف سيرة حياة ستالين ــ في كتابه «**اليهودي الذي ليس يهودياً**» فيقول:

في عام 1948، حين كانت إسرائيل تعد نفسها لتصبح دولة، شهدنا موقفا طريفا وضع فيه الضدان الروسي والأمريكي أيديهما معاً. فقد قرر الطرفان إزاحة بريطانيا من الشرق الأوسط، وكلاهما لعب دور ممرضة التوليد في يوم ولادة إسرائيل.

لكن هذا لم يكن «**موقفاً طريفاً**» من وجهة نظر دوغلاس ريد، مراسل التايمز اللندنية، الذي رأى ما يحدث بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة:

المسرح معدٌ اليوم لعرض الفصل الثالث المخصص لاستكمال العملية. فالسلطتان المادية والثورية تم إعدادهما وتزويدهما بالإكسسوارات الرمزية الخادعة (الرأسمالية والشيوعية)، كما تم بكل دقة تعريف القلاع والحصون (أمريكا وروسيا)، ولترهيب العقل الجماهيري بشكل ملائم. فقد جاء العرض كما رأته الجماهير كئيبا عدوانياً لا أمل في حل نزاعاته...

ولكن، ماذا لو أن رجالا من نوعية واحدة، لديهم هدف مشترك واحد، يحكمون سرا كلا المعسكرين؟.. أعتقد أن أي دارس مجتهد في زمننا هذا سيكتشف أن المسألة هي على النحو[1].

إلا أن دور الاتحاد السوفييتي، كصديق لإسرائيل، لم يقف عند حد وضع يده مع يد الولايات المتحدة في مساعدة دولة إسرائيل الوليدة الملطخة بدماء المخاض. فقد قال رئيس وزراء إسرائيل دافيد بن غوريون في خطاب له أمام طلبة الجامعة في حيفا «**لقد زودتنا روسيا بالأسلحة التي ساعدت صمودنا وبقاءنا في حرب الاستقلال**» وأضاف قائلاً «**إن السياسة السوفييتية الحالية ليست أكثر من مجرد مرحلة عابرة**». (نص الخطاب منشور في جريدة شيكاغو تريبيون، 8 حزيران 1970).

---

[1] أنظر كتاب «الأهداف البعيدة والعريضة» تأليف دوغلاس ريد، جوناثان كيب 1951.

ومضى السيد بن غوريون إلى أبعد من ذلك في تبرئة الاتحاد السوفييتي من اللوم، إذ يقول كاتب المقال في شيكاغو تريبيون متابعاً **«قال بن غوريون إنه لا يقبل الاتهامات الشائعة بأن الاتحاد السوفييتي ساعد إسرائيل منذ البداية على أمل استغلالها كموطئ قدم في الشرق الأوسط»**.

لماذا يقول دافيد بن غوريون مثل هذا الكلام، عقب حرب تم فيها تحريض العرب أعداء إسرائيل وتسليحهم من قبل الاتحاد السوفييتي، إن لم يكن يعني أنه يعرف أكثر مما يصرح؟

ملايين الناس في الغرب نسوا ــ إن كانوا يعرفون شيئاً بالأصل ــ أن الدور الذي لعبه الاتحاد السوفييتي في طرد وإبعاد بريطانيا عن الشرق الأوسط، كان يشمل تسليم الجماعات الإرهابية مثل عصابة شتيرن، وإرغون برئاسة مناحيم بيغين، وما نتج عن ذلك من قتل الجنود البريطانيين، واغتيال الكونت برنادوت السويدي واللورد موين السفير البريطاني، وتفجير فندق الملك داوود بالقدس. كانت الأسلحة والذخائر الحربية المقدمة من الاتحاد السوفييتي هي التي استخدمها أتباع بيغين ورجاله في حملة الإرهاب التي بدأت بمذبحة المدنيين في دير ياسين، وتم استخدامها في طرد مليون فلسطيني إلى صحراء النقب وإلى الدول العربية المجاورة بما فيها لبنان[1].

كان من المستحيل على السيد بن غوريون، لعدد من الأسباب الواضحة، أن يعلن علناً أمام جميع الطلبة اليهود أن هناك تحالفاً على أعلى المستويات بين الاتحاد السوفييتي وإسرائيل، لكنه لامس الموضوع بأقرب ما يستطيع، لينقل إليهم قناعته الخاصة المؤكدة بأنه ليس لدى إسرائيل أي خوف من تلك الناحية.

لم يصدر أي استنكار جدي ينفي تورط الاتحاد السوفييتي في حرب الأيام الستة التي انتهت بكارثة على المصريين، إذ ليس ثمة شك بأن

---

[1] تفاصيل أحداث دير ياسين وغيرها من الأعمال الإرهابية تجدها في كتاب «الطرد من الديار: محنة الفلسطينيين 1917 - 1980» بقلم دافيد غيلمور، دار سيدجويك وجاكسون. وفي كتاب «تناقض صهيون» بقلم دوغلاس ريد، مطبعة دولفين، وفي كتاب «العلاقة الصهيونية» بقلم ألفريد ليلينتال، فيريتاس / أستراليا. وكتاب «الحصاد المر» بقلم سام هادواي. وانظر أيضاً مقال الدكتور ر. غاير في مجلة مانكايند كوارترلي، المجلد الرابع العدد 2، تشرين الأول ــ كانون الأول، 1963، بعنوان «العوامل الأوروبية الشمالية في شرق المتوسط».

ذلك حصل. فالاستخبارات العسكرية في موسكو أعلمت المصريين أن الإسرائيليين يخططون لشن هجوم على سورية، شريكة مصر في حلف الدفاع العربي. وكان من المعروف وقتها، حسبما أكد إسحاق دويتشر خبير الشؤون السوفييتية، أن ثمة نتيجة واحدة لهذا التحذير، هي أن يأمر البكباشي عبد الناصر قواته بالتحرك والتمركز على حدود سيناء، بهدف ردع إسرائيل عن مهاجمة سورية.

هل هناك احتمال أن يكون تصرف قادة الكريملين نابعاً من صداقة حقيقية لمصر وعبد الناصر وهم يقدمون له هذه النصيحة؟

هناك ملابسات معينة مريبة، لا يلحظها سوى الخبراء بالشؤون السوفييتية، أخذت طريقها للنشر في الصحافة الروسية. يقول دويتشر:

مازالت أبواق الدعاية السوفييتية تتابع تشجيع العرب علناً. إلا أن مقررات مؤتمر الأحزاب الشيوعية الشرق أوسطية المنعقد في أيار (نشرت هذه المقررات ملخصة في جريدة برافدا) كانت متحفظة بشكل غريب غير مألوف بشأن الأزمة، وفيها انتقاد ضمني لعبد الناصر. والأهم من ذلك المناورات الدبلوماسية المثيرة للفضول وراء الكواليس. فبتاريخ 26 أيار، وفي منتصف الليل، أيقظ السفير السوفييتي عبد الناصر ليسلمه تحذيراً حاسماً بأنه على الجيش المصري ألا يكون البادئ بإطلاق النار. وأذعن عبد الناصر للتحذير، وكان الإذعان شاملاً إلى حد أنه لم يقتصر على التوقف عن البدء بالاعتداءات، بل بعدم اتخاذ أية احتياطات من أي نوع لمواجهة هجوم إسرائيلي محتمل. وترك عبد الناصر مطاراته دون حماية، وطائراته دون تمويه، حتى أنه لم يكلف نفسه مشقة وضع الألغام في مضائق تيران أو نصب بضعة مدافع على شواطئها، الأمر الذي أدهش الإسرائيليين أنفسهم حين وصلوا إلى هناك.

(من كتاب «اليهودي الذي ليس يهودياً»).

يحاول دويتشر شرح ما حدث في ضوء هذا التخبط الأخرق بالكريملين، إلا أنه في الحقيقة يزودنا بملف كامل عن خيانة مدبرة متعمدة. يتابع قائلاً:

بعد إشعال نار المخاوف العربية، وتشجيع العرب على القيام بتحركات خطرة، ووعدهم بالوقوف إلى جانبهم، وجلب وحدات بحرية إلى البحر

الأبيض المتوسط مقابل تحركات الأسطول السادس الأمريكي، قام الروس بتكبيل عبد الناصر من يديه ورجليه. فلماذا فعلوا ذلك؟ لأنه أثناء تصعيد التوتر في الموقف، كان «الخط الساخن» بين الكريملين والبيت الأبيض يعمل بكل طاقته، واتفقت القوتان العظيمتان على تجنب التدخل المباشر، وعلى كبح جماح أطراف النزاع.

قرار عدم التدخل المباشر هذا، تم نقله بالاتصالات فوراً إلى الحكومة الإسرائيلية، وكان ذلك كل ما تحتاج لمعرفته قبل شن الهجوم على القوات المصرية العاجزة عن الرد في الطرف الآخر من الحدود، المخدرة بالإيمان بالدعم والحماية الكاملة من حليف يؤكد لها أن الإسرائيليين لن يجرؤوا على الهجوم.

هل يعقل أن يكون قادة الكريملين أغبياء إلى حد لا يعرفون معه أنهم بموافقتهم على عدم التدخل المباشر يمنحون الجيش الإسرائيلي المتفوق «**كرتاً على بياض**» لتدمير الجيش المصري ومخازن أسلحته التي زوده بها الاتحاد السوفييتي؟ هل كانت الغاية من هذا «**الحمق الأخرق**» إضعاف جميع الدول العربية، ووضعها في حالة يأس من دعم الاتحاد السوفييتي؟ يجيب السير جون غلوب باشا على هذا السؤال قائلاً:

بعد تدمير الجيش المصري في سيناء، هللت الصحافة البريطانية ابتهاجاً بالنكسة التي تعرضت لها روسيا في رهانها على الجواد الخاسر. لكن الحكومة السوفييتية لسوء الحظ لم تكن على هذا القدر من السذاجة، بل على العكس، كانت روسيا تدرك تمام الإدراك أن المصريين سيندحرون بشكل كارثي مأساوي، وهذا ما أرادته أن يكون.

(من كتاب «أزمة الشرق الأوسط»).

هل يعقل أن يكون قادة الكريملين، في تخبطهم الأخرق، تصوروا أن المصريين قادرون على الصمود في وجه الهجوم الإسرائيلي الضاري؟ مرة أخرى يجيب السير جون غلوب باشا قائلاً:

كان كل من له أدنى خبرة عسكرية في الشرق الأوسط، خلال العشرين سنة الأخيرة، يدرك تمام الإدراك أن الجيش المصري لن تتاح له أية فرصة أمام الإسرائيليين.

لم تظهر على قادة السوفييت، وقتها، أية علامة من علامات الانزعاج والغضب أمام ما بدا أنه فشل ذريع مروع لسياستهم في الشرق الأوسط. فبعد بضعة أيام، وتحت أنظار جميع العرب المذعورين في العالم العربي، يصوّت المندوب السوفييتي في الأمم المتحدة ـ بكل انسجام مع المندوب الأمريكي ـ على وقف إطلاق النار دون ذكر لأي انسحاب إسرائيلي من المناطق المستولى عليها. ويكتب إسحاق دويتشر قائلاً:

لقد دقت الكارثة أجراس الخطر في أوروبا الشرقية أيضاً، وأثارت التساؤل التالي: إذا استطاع الاتحاد السوفييتي أن يخذل مصر على هذا النحو، ألا يفعل ذلك بنا أيضاً لو أننا تعرضنا لهجوم عدواني مرة أخرى من قبل ألمانيا؟ هذا ما قاله البولنديون والتشكيك، بالإضافة إلى اليوغوسلاف الغاضبين. فقد هرع تيتو وغومولكا وقادة آخرون إلى موسكو يطلبون تفسيراً، ويطالبون بعملية إنقاذ للعرب. والملفت للنظر أن هذه المطالبة جاءت من «المعتدلين» و«الإصلاحيين» الذين يؤيدون عادة «التعايش السلمي» والتقارب مع الولايات المتحدة. هؤلاء هم من يتحدثون الآن عن تحالف سوفييتي مع أمريكا الاستعمارية.

أما حكومة الصين الحمراء فقد كانت مقتنعة بأن هناك تحالفاً ما، وقد أعلنت ذلك علناً.

إن الحكاية عن وجود تحالف على المستويات العليا بين الصهيونية والشيوعية تفسر سبب عدم غضب القادة السوفييت من الإسرائيليين على إفساد مخططهم السياسي في الشرق الأوسط. بعد حرب الأيام الستة بفترة قصيرة، نشرت جريدة ساوث أفريكان جويش تايمز الصهيونية تقريراً عن زيارة قام بها خمسة من كبار أعضاء الحزب الشيوعي الإسرائيلي إلى موسكو قالت فيه:

بصعوبة استطاع الشيوعيون الإسرائيليون الخروج من بوابات الكريملين بعد أن بدأت تنتشر الشائعات عن حصولهم على ضمانات هامة. إلا أن ثمة سبباً يدعو إلى الاعتقاد بأنهم إن لم يكونوا قد حصلوا بالفعل على ضمان، فقد فهموا أن الكريملين غير ملزم بدعم عبد الناصر في مخططاته العدوانية..

وقد تعززت هذه الإيماءة إلى مدى معين برغبة في جعل عبد الناصر يرى أن القادة السوفييت يفهمون وضع إسرائيل ويستحسنونه، فالحزب

الشيوعي فيها ممثل بالبرلمان بشكل رسمي، ولديه صحافته الخاصة، ويستطيع أن ينقد ـــ إن لم يؤثر ـــ في سياسة الحكومة، في حين أن ذلك غير موجود بمصر. ومن هنا جرت معاملة الإسرائيليين الشيوعيين كأصدقاء حقيقيين وكأشخاص ذوي أهمية.

وقد تأكدت هذه الأهمية بالاستقبال الحار الذي حظي به النواب الإسرائيليون في مكاتب تحرير جريدة سوفيتيك هابملاند. الأكثر من ذلك، أن الكريملين مضى إلى أبعد من ذلك في تهيئة وتحضير الأجواء المناسبة الدافئة لزيارة الشيوعيين الإسرائيليين.

لم ترد أية إلماحة في تقرير جريدة ساوث أفريكان جويش تايمز إلى أن المندوب الإسرائيلي الذي ذهب إلى موسكو عقب النكسة الكارثية مباشرة كان مكروهاً غير مرحب به من قبل الحكومة الإسرائيلية أو من قبل الجريدة.

مرة أخرى، إن «**العمى الاختياري**» عن رؤية هذا التضليل الشامل، هو وحده الذي يمنع المرء في كل أنحاء العالم الغربي من رؤية الأدلة الدامغة على وجود تحالف مستمر بين الشيوعية والصهيونية، والتي تملأ أمثلتها مجلدات عديدة لا تحصى لاحظها دوغلاس ريد في كتابه العظيم «**تناقض صهيون**» يقول فيه عن حاييم وايزمان في سيرته بقلمه بعنوان «**التجربة والخطأ**»:

... إنه المرجع الوحيد للمعلومات عن الجذرين التوأمين، الشيوعية والصهيونية، وهدفهما المتقارب المشترك. كان حاضراً يوم مولد الصهيونية، ثم أصبح مبعوثها الجوال المطلق الصلاحية. وكان على مدى أربعين عاماً مدلل المحاكم الغربية والمكاتب الرئاسية وقاعات مجالس الوزراء، ثم أصبح أول رئيس لأول دولة صهيونية يروي الحكاية بكاملها بصراحة مدهشة.

لم يكن ترابط المصالح السوفييتية والصهيونية، في أوروبا خلال فترة ما بعد الحرب، أوضح دلالة من نجاح رئيس وزراء بريطانيا هارولد ويلسون، الذي برره في إحدى المناسبات قائلاً: «**إن تأييد ودعم إسرائيل وصداقة روسيا أمران مشتركان لا يجوز إغفالهما في الاعتبار**» (من كتاب «**الحكاية السرية الداخلية**» بقلم تشابمان بينتشر).

يبين بينتشر في كتابه أن هذا السياسي، الذي يعتبر دعم إسرائيل وصداقة الاتحاد السوفييتي أمران يكمل أحدهما الآخر، في جميع علاقاته واتصالاته مع

الاتحاد السوفييتي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان يمر عملياً عبر وسطاء يهود **«ولاجئين لهم علاقات واتصالات خلف الستار الحديدي تمكنوا معها من جني ثروات هائلة في بريطانيا، ومن حيازة نفوذ سياسي قوي، حتى أن بعضهم ارتقى إلى طبقة النبلاء».**

ولعل أبرز نموذج لهؤلاء ــ وكلهم من «**الصهاينة المتحمسين**» ــ الليدي بلامر (اسمها الحقيقي بياتريس لابسكر)، التي كانت ضيفة دائمة مرحب بها في السفارة السوفييتية، وحازت مع زوجها اللورد بلامر ميزة قضاء العطلات في أحد منتجعات البحر الأسود، والتنعم بأشعة الشمس بصحبة خروتشيف. كانت الليدي بلامر ــ حسبما يحدثنا تشابمان بينتشر ــ:

> *ذات أثر فعال في تقديم ويلسون إلى العديد من رجال الأعمال اليهود الذين قام فيما بعد بمنحهم الأوسمة وألقاب الشرف. حتى أن ويلسون نفسه عمل لمدة تسع سنوات لحساب أحد ملوك المال اليهود، في مهمات حملته إلى موسكو مرات عديدة.*

يكشف التفحص الدقيق للشؤون العامة لفترة ما بعد الحرب في الولايات المتحدة نفسها، عن تطابق متكامل مماثل للشيوعية السوفييتية والصهيونية بين أغلبية السياسيين، لا يقل تطابقاً وتماثلاً عما لدى أغلبية المواطنين من أصول يهودية. كما يكشف عن عدم وجود أي تعارض وتضاد بين أولئك الذين يشجعون على تقديم المساعدات لإسرائيل بكل الوسائل المتاحة، وأولئك المتورطين في أنشطة تخريبية لصالح الاتحاد السوفييتي.

إن أي تفسير موجز مختصر لتاريخ القرن العشرين لن يكتمل دون الإشارة إلى مناخ الأفكار الذي جعل العديد من التغيرات الثورية ممكناً.

إنما علينا أن نتذكر أن الدوافع القوية، وليس الأفكار القوية، هي التي تصنع التغيرات الهامة، وأن غالب الأفكار تأتي دائماً في خدمة الدوافع.

ولهذا، فإن من الصحيح ــ كما لاحظ سولتز هينيتسين في خطابه عام 1976 عبر محطة الــ بي بي سي ــ أن ثمة عقائد معينة في الغرب ينتج عنها شلل كامل في الإدارة، وأن الخطر الحقيقي ليس في العقائد ذاتها أو في أنصارها وأتباعها الضالين المغرر بهم، بل في القدرة على توظيفها من قبل

أصحاب الأموال والاستثمارات الذين يعتبرون الاشتراكية المثالية سلاحاً يمكن استخدامه ضد الغرب.

إذ لم تكن هناك طريقة يمكن معها للخداع الفكري، وتضليل غير المثقفين Le trahison des clercs، أن ينتشر ويسيطر على عقول الملايين في الغرب، إلا بدعم وتمويل وتشجيع من المراكز المالية. فمؤسسة «**مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية**» باعتبارها المنبع الرئيسي للتعاليم والعقائد الاشتراكية بقيادة المليونير المصرفي السير إرنست كاسل، هي التي وضعت النموذج المحتذى لعشرات السنين التالية، وجسّدت الوجه الاحتيالي المخادع لعقيدة تخطط، من خلال الوعد بعالم جديد شجاع لجماهير الغرب، للاستحواذ على كل شيء لصالح نخبتها الأجنبية الخاصة.

الفصل 9

الرابطة الشيوعية ـ الرأسمالية

ليس ثمة حركة بروليتارية، ولا حتى حركة شيوعية، لا تعمل من أجل مصالح مالية، في اتجاه يمليه المال، ولفترة زمنية يحددها المال. وهذا كله واقع حقيقي لا يشك فيه المثاليون بمختلف درجاتهم.

أوزوالد سبينغلر

من كتاب «أفول الغرب»

ما من مسحٍ باحث، مهما كان مختصراً، للقوى التي تصوغ القرن العشرين، يرسم الظروف الاجتماعية والسياسية التي وصفها سبينغلر بدقة صحيحة بأنها «**فوضى تتحول إلى عادة**»، إلا ويبقى ناقصاً إن لم يلقَ نظرة قريبة فاحصة على العلاقة بين المتناقضين المزعومين: الرأسمالية والشيوعية.

مفتاح الأحجية هو كلمة «**رأسمالية**». فمعظم الناس، في معظم الأحيان، يغلطون في افتراض أن كلمة «**رأسمالية**» لها معنى واحد. والواقع أن للكلمة في الاستعمال العام مجموعتين من المعاني، تختلف واحدتهما عن الأخرى كما تختلف الطباشير عن الجبنة.

فإذا أردنا أن نفهم لماذا تتبنى حكومات الدول الرأسمالية أكثر المواقف تناقضاً من الشيوعية، علينا أولاً أن نتعلم كيف نفرق في أذهاننا بين مجموعتي المعاني التي تحملها كلمة واحدة هي «**الرأسمالية**».

«**الرأسمالية**» ــ كما فهمت بشكل صحيح بدلالتها الأصلية ــ تعني الملكية الفردية الخاصة للموارد والمنافسة الحرة في بيع البضائع والخدمات.

أما «**الرأسمالية الفائقة Super Capitalism**» ــ التي يمكن تعريفها برأسمالية بالغة التركيز ــ فهي لا تختلف عن الرأسمالية وحسب، بل هي

نقيض الرأسمالية الذي سرعان ما سيتحول فيما بعد بكل فعالية إلى معاد للرأسمالية Anticapitalist.

إن من غير الممكن للملكية الفردية الخاصة أن تستمر في التمركز، وللموارد أن تبقى تحت السيطرة، إلا إذا تزامن ذلك مع تناقص عدد الأفراد المالكين للموارد والمتحكمين بها. وبالتالي، من غير الممكن أن يحصل تمركز هائل في الملكية الفردية الخاصة وتحكم ضخم في الموارد، إلا بوجود منع أو قمع للمنافسة الحرة في بيع البضائع والخدمات.

وما نراه في الغرب، إنما هو تحللٌ متنامٍ للرأسمالية إلى شكل رأسمالية فائقة معادٍ للرأسمالية. كلما قلّ شبهه بالرأسمالية الأصلية زاد شبهه بالاشتراكية أو بالشيوعية.

لقد ترسخت الرأسمالية الأصلية زمناً كافياً في أقطار الغرب، وخصوصاً في الولايات المتحدة، إلى حد أصبح معه من الصعب تشويش الصورة، وجعل الناس يرون أن الرأسمالية يتم استبدالها بما هو في جوهره رأسمالية فائقة. بعبارة أخرى، إن ضعف ونضال الرأسمالية من أجل البقاء، إنما هو غطاء تمويه مخادع لرأسمالية فائقة جبارة تسيطر على الاقتصاد وتتحكم بالسياسة.

الأنظمة الرأسمالية الفائقة الحديثة ــ كالنظام الأمريكي والنظام الشيوعي ــ لها اختلافاتها ومصالحها المتعارضة، لكن ذلك كله غير ذي أهمية لدى مقارنته بالجوانب الأخرى المشتركة.

فكلاهما معاد ومناقض للقومية بشكل لا يقبل المساومة، ولهذا فالرأسمالية الفائقة والشيوعية ثوريتان في جوهرهما، وكلاهما دخل في عداوة ضارية ضد جميع الأشكال السياسية المتطورة في جوهرها.

ولما كانت القومية متلازمة لا يمكن فصلها عن تراث الشعوب وموروثها الثقافي والحضاري، فمن الطبيعي أن تتصف جميع الهجمات على القومية بالتخريب الثقافي والتدمير الحضاري، وهذا ما نراه اليوم عند كلا الجانبين خلف الستار الحديدي وخلف ستار الخيزران، يمارسه بنفس المستوى من الحماسة أصحاب الرأسمالية الفائقة هنا والشيوعيون هناك.

ثمة قومية أصلية واحدة يدعمها كلا الطرفين هي الصهيونية، التي تمثل قومية اليهود المنتشرين في أنحاء العالم. يضاف إليها، بالطبع، كل أنواع القوميات المزيفة العرقية التي نشأت وتم توظيفها واستخدامها، كـ «**القومية السوداء**» في أفريقيا، وارتبطت بقوة في جميع حالاتها مع الماركسية.

إن بالإمكان أن نفسر سبب الفزع الدائم لدى الرأسمالية الفائقة الغربية من القومية. فالمسألة الأساسية الأصلية في أية دولة، هي ما إذا كان يجب ـــ أو لا يجب ـــ وجود سلطة عليا للاقتصاد، وأي السلطتين يجب أن يسود ويحكم: السياسة أم الاقتصاد؟ ثمة شك في أن القومية ـــ رغم جميع العلل المزمنة الموروثة ـــ التي تم تفعيلها بفضل قدرات الشعوب وإراداتها، تعني سيادة سلطة السياسة، وأن الاقتصاد ـــ أياً كانت أهميته ـــ قد تراجع موقعه ليصبح فرعاً تابعاً في المرتبة الثانية[1].

ولما كان ليس ثمة طريقة لمقاومة الشيوعية ودحرها إلا عبر القومية، فقد نتج عن ذلك بالتالي أن الرأسمالية الفائقة الغربية تحولت مذعنة للتعايش مع الشيوعية، وأن الرأسماليين الفائقين في الغرب ـــ حتى لو لم يكونوا صهاينة ـــ ليس لديهم هدف على المدى الطويل سوى التقارب والتلاحم مع الشيوعية. ولاشك أبداً في أن النصر النهائي لمعاداتهم للقومية سيجسد بالنتيجة نصراً للقومية الصهيونية.

الأهم من ذلك كله، أن هناك سلاحاً سياسياً واحداً تستطيع الرأسمالية الفائقة أن تستخدمه ضد القومية، هو الفكر الاشتراكي أو الشيوعي، ينظم القوى في عوالم الرذيلة والإجرام، ويقود من لا جذور لهم في عالم الفكر، ويجهزهم لتوجيههم كالمنجنيقات لهدم الحصون القومية، عدا حصن واحد هو الصهيونية.

فما هي، إذن، العلاقة الحقيقية بين الرأسمالية الفائقة الغربية والشيوعية الماركسية؟ وهل هناك استعمار عالمي جديد واحد؟ أم استعماران؟ أم بوجود الصهيونية ثلاثة؟ وإذا كان واحداً، فما الذي يجمعها ويوحد بينها؟

---

[1] هذه النظرة إلى سلطة القومية، عالجها صاحب كتاب «حقيقة ما يجري في أفريقيا» في الفصل التاسع بعنوان «الدكتور سن يات ـــ سن ومبادئ القومية».

ليس ثمة طريقة نأمل بها العثور على أجوبة واضحة لأسئلة من هذا النوع، إلا إذا تسلحنا مسبقاً بحس فلسفي سياسي يفيدنا في ترسيخ قدم على أرض الواقع، ويساعدنا فكرياً على فحص وتحليل وتقييم جميع الظواهر السياسية.

وكما لاحظ هذا الكاتب من قبل، فإن أي فرد ـ مهما كانت أهدافه ـ يبدأ بتبني موقف ناقد شكاك غير متحيز من عالم من عوالم القرن العشرين وقيمه الغامضة، فإنه يضع قدمه على درب بعث جديد لنفسه وللمجتمع الذي ينتمي إليه.

الفصل 10

أضواء على «خطيئة الجشع»

المعركة الأخيرة بالنسبة المسيحية ستكون حول مشكلة المال، وإلى أن تنحل هذه المشكلة، فلن يتاح تطبيق المسيحية عالمياً.

هنري دو بلزاك

السؤال المطروح هو: ما هو ــ من وجهة نظرك ــ الموضوع الذي يحتاج أهل الغرب لتنويره أكثر من أي موضوع آخر؟

إنه موضوع المال والنقد، وبعبارة أكثر تحديداً، إنه مبدأ الربا، الذي يشكل حجر الزاوية في النظام النقدي الحالي، والمفتاح إلى المسألة المالية الحديثة.

لماذا يعتبر مبدأ الربا أهم جانب من أهم مسألة تقلق الإنسان الآن؟ الربا هو عين الأخطبوط في قوى الإثم والخطيئة، الذي سمّاه ألكساندر سولتزينيتسين «**خلاصة عالم الشر المركّزة**»، أو هو مركز رأس الهرم للقوى الشاذة غير الشرعية في كل أنحاء العالم.

هل هناك أي احتمال ممكن للإطاحة بنظام حكومة الربا العالمية الحالية؟ لقد قام برج بابل رمزاً للسلطة المالية، والعاملون على إعلاء بنيانه لن يتوقفوا حتى يتهاوى البرج وتسقط أحجاره على رؤوسهم. وهذا أمر يعرفه ملوك الربا وحكامه، ولهذا فهم يقومون الآن بمحاولة يائسة لإنقاذ أنفسهم وتخليد سلطانهم عن طريق تحويل سلطتهم المالية إلى سلطة سياسية وعسكرية عالمية.

ما هو بالتحديد الدقيق معنى كلمة «**الربا**»؟ إنه إقراض الأموال بفائدة. إنه يعني تحويل الأموال وتبديلها، وجعلها سلعة تباع وتشترى مثل أية سلعة أخرى. إنما يجب التفريق والتمييز بوضوح إلى أن إقراض الأموال بفائدة شيء، وبيع السلع الأخرى ذات القيمة بربح شيء آخر. فقد يقال إن المنزل

أو المزرعة المؤجرة هي عبارة عن قرض بفائدة، إلا أن هذا أمر يختلف في جوهره عن إقراض الأموال بفائدة.

هل يمكن أن نختصر ببضع كلمات ما يحتاج كل الناس لمعرفته عن حقيقة الربا؟ يمكننا أن نقول ـ كما قيل مراراً وتكراراً عبر جميع العصور ـ إن الربا إثم وشر في جوهره، لكن من غير الممكن أن نخلق ببضع كلمات بصيرة نافذة تبين معها بنظرة خاطفة سريعة الشر الكامن فيه. وهذا ينطبق على بعض الحقائق التي من هذا النوع. فقد استطاع فيثاغورس أن «**يرى**» أن مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربعي ضلعيه الآخرين، لكن معظمنا مازال «**لا يرى**» ذلك رأي العين، فنحن نؤمن به ونصدقه لكونه مشروحاً ومبرهناً على صحته بالتجربة. إن حقيقة الربا يمكن أن «**ترى**» بوضوح على شاشة المخيلة الأخلاقية فقط.

إقراض الأموال ليس دائماً مضراً بالمقترض، يلحق به الخسارة بشكل حتمي، فهناك قروض نافعة ومفيدة. إلا أن أولئك الذين جعلوا من الإقراض تجارة فرضوا لأنفسهم فائدة مركبة على المقترضين، ويرفضون ـ خلافاً لكل الطبقات العاملة المنتجة ـ أن يشاطروا المقترضين مخاطر الخسارة. ولهذا، فإن كفة النفع ترجح دائماً لصالح المقرض، تماماً كما ترجح لصالح حلبات السويبستيك في سباق الخيل، ولصالح اللاعبين المقامرين بنرد مغشوش.

إن جوهر الضرر ـ على الصعيد الاجتماعي ـ من الفائدة المركبة التي يتقاضاها ممارس الربا، يكمن في أن المرابي يحرر نفسه من القانون الطبيعي لتنمية الثروة وجمع المال. وحين يعمل البشر وينتجون ويسهمون في الرفاه العام وسعادة الجميع، يبقى هناك «**حد أقصى طبيعي**» لفوائض فضل القيمة يحد من أرباح العاملين بالحقل المالي. ومن هنا، قوي سلطان أسر الصيارفة إلى حد وضع اليد والحجز على القوى المنتجة عن طريق إقراض الحكومات. إن الأموال الضخمة بكميات على هذا المستوى لا تخدم إلا في إشباع شهوة واحدة، هي شهوة النهم إلى السلطة.

ما هو المرجع الأساس للقول بأن الربا ضارٌ ومؤذٍ؟ إننا نجد ذلك في الإنجيل المقدس، وفي القرآن المقدس، وفي كتابات أعظم علماء الغرب، وعند

ويليام شكسبير، وفي العديد من المراجع الأخرى، هذا إذا كنا ممن يهتدون بالمراجع بعيداً عن بصيرتهم الخاصة.

في الفصل الخامس عشر، وفي سفر التثنية، نجد الآية 12 والآية 13 تقول: «**عليكم أن تقرضوا أمماً كثيرة، إنما عليكم ألا تقترضوا، وسيجعلكم الرب رؤوساً وليس أذناباً، وستكون لكم المراتب العليا وليس السفلى**».

هذه الوصايا موجهة إلى اليهود من قبل ربهم القبلي وليس من قبل إله الناس وخالقهم[1]. فسفر التثنية، مثل كل أسفار العهد القديم، يميز بوضوح بين معيارين أخلاقيين Moral Codes يختلف أحدهما عن الآخر في أساسه وجوهره. معيار للعمل الصالح والعدل يجب ممارسته داخل المجتمع، ومعيار عدواني مختلف يجب ممارسته ضد جميع الذين لا ينتمون إلينا ولا ننتمي إليهم. ومن الواضح أن كتّاب سفر التثنية فهموا بكل تأكيد أن الربا ــ أي الإقراض مقابل فائدة وتحويل المال إلى سلعة ــ هو في نتيجته بعين التحليل مبدأ عدواني يسيء إلى توحد الجماعات وتفاهمها، ويخلق حتماً عاجلاً أم آجلاً علاقات ظالمة شريرة. الربا يؤدي في النهاية إلى الاغتصاب. ومن هنا، فإن إقراض الأموال بفائدة لإخوانك ممقوت في سفر التثنية، الفصل 23، الآية 20.

الإسلام ــ بالمثل ــ مطلق في إدانته للربا، حين يعتبر المقرض والمقترض وكاتب العقد آثمين. من جانب آخر، فإن الإسلام الذي يعبد إله الناس جميعاً لا ينصح باعتماد الربا كشكل من أشكال الحرب السياسية وتوظيفه لتمكين مجموعة من الناس بأن تتعالى على الآخرين وتتحكم بهم. ولاشك أبداً في أن النبي محمد رأى في الربا سماً اجتماعياً يتناقض ولا ينسجم مع الإيمان الذي يشجع ويعزز مبدأ الإخوة بين الناس وتساويهم في عين خالقهم، وهذه هي تعاليم عيسى المسيح.

وقل مثل ذلك في كل أنواع القروض التي تتيح لإنسان أن يتقاضى ربحاً من إنسان محتاج طمعاً بالاستيلاء على ممتلكاته. وشكسبير في نفوذه الأصيل

---

[1] لم نجد في نهاية الفصل ــ حسبما عوّدنا المؤلف ــ حاشية أو شرحاً، بل وجدنا حاشية يعدد فيها المؤلف أسماء 15 كتاباً ينصحنا بقراءتها لمزيد من التعرف على الأنظمة الاقتصادية والمصرفية. **المترجم**

الصادق إلى أعماق النفس البشرية، لم يكن أقل وضوحاً وتحديداً في فهمه للربا، فمسرحيته «**تاجر البندقية**» رسالة جامعية مبدعة في هذا الموضوع، لم يترك فيها أمراً يجب أن يقال إلا قاله. فهو يسلط الضوء بكل دقة على الجانب الأساسي الشرير من الربا في الحوار بين أنطونيو وشايلوك، الذي يحاول شايلوك فيه أن يبرر الربا كشكل من أشكال الاقتصاد يقره القانون ويتعذر تبريره أخلاقياً، كالحيلة التي قام بها يعقوب للحصول على أكثر من أجوره من أغنام عمه لابان (سفر التكوين 31).

كيف، والحالة هذه، نفسر استمرار بقاء هذا المبدأ الشرير عبر العصور، الذي فضحه معظم كبار الفلاسفة؟ إن ذلك يرجع لأسباب تشبه أسباب استمرار صناعة المخدرات، فهي تعود على مروّجها بالربح، وتمنح متعاطيها شعوراً ـــ أو قل وهماً شعورياً ـــ مؤقتاً بالخفة والانتعاش.

فكما أدى شيوع تجارة الأفيون في الصين إلى وقوع قسم كبير من السكان في شرك الاعتماد على المخدرات، كذلك دفع الربا معظم السكان في البلدان الصناعية المتطورة إلى الاعتماد على القروض.

وكما تنجذب برادة الحديد بفعل مغناطيس قوي، انجذبنا جميعاً، معاً، بفعل عواطف مشوشة تحركها مصالح شخصية، حقيقية حيناً وموهومة أحياناً، للإسهام بدرجات متفاوتة كمقرضين ومقترضين وكتّاب عقود بوضع مبررات للربا، في وقت يعلم فيه الجميع أن أي «**ارتداد**» عما اعتدناه سينتج أعراضاً مؤلمة، تنتاب الأمم المدمنة تماماً كما تنتاب الأفراد المدمنين.

وهذا يعني أن خلاص أمة من الأمم من الإدمان يتطلب إجراء دقيقاً للتخلص من السموم دون أن يعرض سياستها للأخطار. ولكن في الوقت الذي يوجد فيه لدى الفرد الكثير مما يفعله لخلاصه شخصياً، لا توجد أية إمكانية لتحرك جماعي فعال يماثل تحرك الفرد للدفاع عن نفسه بعد الانتباه للأخطار.

بصراحة واضحة، إن ما ظهر إلى حيز الوجود في عالم العلن هو سلطة إجرامية هائلة لا تحكمها الالتزامات الأخلاقية، أشبه بالسلطة الإجرامية السائدة في العالم الخفي، مع روابط بينهما لا تخطئها العين، يتم بها دفع حثالة

المجتمع وتمويلهم وتجنيدهم في إطار ثوري هدام ضد كل من يقاوم طموحاتها في العالم.

هذه السلطة الإجرامية كسبت أرباحاً طائلة من إنشاء وإقامة الدول الشيوعية، ثم كسبت مرة أخرى أرباحاً طائلة من بيع الأسلحة لما يسمى بالدول المتحررة لتدافع بها عن نفسها.

لقد انتشر إقراض الأموال مقابل ربح وتضاعف ألف ضعف بفضل نظام يشرع ويقونن التزوير والسرقة، ويسمح بجني الأموال الطائلة بلا مقابل، ومضاعفتها ضمن نظام اقتصادي تحت عنوان «**فوائد الديون الاستثمارية**». إذ كيف يصادف وجود كمية من الديون، هي بالمقارنة مع الموجودات والأموال المتداولة أشبه بالجبل مع كومة تراب أخرجها الخلد من حجره، تحول النظام المصرفي إلى سرطان لا يشبع وينمو ويتغذى على أجساد البشر؟

كيف صدف أن تمكن الغرب من التسلل عبر الأقنية إلى الأقطار الشيوعية وبلدان العالم الثالث وضخ مئات البلايين من الدولارات على شكل بضائع وخدمات، تعود بعدها في النهاية على شكل تضخم وضرائب إلى جيوب قلة قليلة في الغرب تعمل على صنع وإنتاج وتغيير المسار الأصلي لهذه الخدمات؟

وإذا كان ما ذكرناه صحيحاً، فكيف يمكن تفسير أن العقل الغربي الأوروبي ـ الذي أثبت قدرته على إيصال الإنسان إلى القمر ـ أخفق في اكتشاف أن الربا هو الذي أفسد الغرب وجعله خاضعاً خضوع العبيد؟

الجواب ـ في جانب من جوانبه ـ هو أن العقل الإبداعي الغربي كان على مدى أكثر من قرن كامل يركز اهتمامه ويحصره بالمسائل العلمية والإشكالات التقنية، وكان ثملاً بالنتائج التي حققها في هذا المجال مما دفعه إلى المضي قدماً.

الجانب الآخر من الجواب، هو أن ضخامة دخل الأنظمة المالية المخادعة غير المشروعة، تجر الطيبين والبسطاء للمشاركة في عملية النهب هذه، كالعاملين في مجالات السياسة والصحافة والمصارف، الذين تتم مكافأتهم بسخاء. فالطبيعة البشرية مفطورة على حب المنفعة الخاصة، وقليل هم الذين

يصمدون أمام إغراءاتها، سواء أكانت نقدية عاجلة أم عينية آجلة. إن كارثة فساد غرائز التملك لدى أهل الغرب تتجلى في أوضح أحوالها في وقتنا الحاضر بجنون الاستهلاك الذي يربط الجموع أكثر فأكثر بنظام المديونية، حين تعميهم نشوة التملك والاستحواذ عن كل الاعتبارات الأخرى.

كل هذا مفهوم بوضوح جيد وتام. ولكن ماذا عن الاقتصاديين وخبراء المال؟ ألم يستخدموا كل فروع معارف وخبرات العلم الحديث في السعي لحل إشكاليات توزيع وتبادل ما ينتجه الإنسان، تساعدهم على ذلك حواسيب علمية تضاعف القدرات البشرية آلاف المرات؟

الجواب باختصار، هو أن الاقتصاد علم مزيف. ويتجلى جانبه التضليلي المخادع في تهربه من واجبه الأخلاقي بتحديد مصطلحاته وتعريف مفرداته. كمصطلح «الأموال النقدية» مثلاً، أو مصطلح «الديون». إن من الصعب على الاقتصاديين أن يجدوا حلاً لإشكاليات هم عاجزون بالأصل عن تعريفها، ووضع مصطلحات مفهومة لها.

لكننا ــ لنكون أكثر دقة ــ نقول: قبل أن نستطيع وضع حل لمشكلة ما، علينا أن نعرف ما هي المشكلة التي نحاول حلها. إلا أننا لن نستطيع وضع الحل، حتى بعد التعرف على المشكلة، إلا إذا كنا قادرين على جمع كل المعلومات المتعلقة بها. ففي مسألة إرسال إنسان ووضعه على سطح القمر، كان واضحاً أن العلماء الأمريكان لديهم جميع الوقائع والمعطيات المتعلقة بإرسال إنسان إلى القمر، ثم إعادته إلى الأرض مرة أخرى. ولو تصرف أولئك العلماء كما يفعل الاقتصاديون لتحوّل رجال التجربة إلى رماد على الأرض، أو لضاعوا في الفضاء إلى الأبد.

ليست المسألة في فشل الاقتصاديين بجمع كل المعلومات المطلوبة وحسب، بل في استبعاد أهم هذه المعلومات على الإطلاق كما سنرى لاحقاً.

فكتّاب سفر التثنية، والنبي محمد، وشكسبير، وآخرون، لم تكن لديهم «كمية» المعلومات المتاحة لعلماء الاقتصاد المعاصرين، ومع ذلك استطاعوا بما لديهم أن يحلوا مشكلة الربا، بفضل معلومة واحدة هي مفتاح كل المشكلة معلومة الإنسان نفسه وطبيعته الأخلاقية.

ومن هنا، فإن المبدأ العلمي من «**تجرد**» و«**موضوعية**» الذي يتباهى به علماء الاقتصاد ـ في ضوء استبعاد الإنسان نفسه، واستبعاد شهوته للتملك والسلطة، واستبعاد ضعفه أمام الإغراءات ـ لم يفشل في تحقيق نتائج جيدة وحسب، بل أسهم أيضاً وبشكل خطير في دمج وتوحيد مفاسد الربا بدلاً من كشفها وتعريتها.

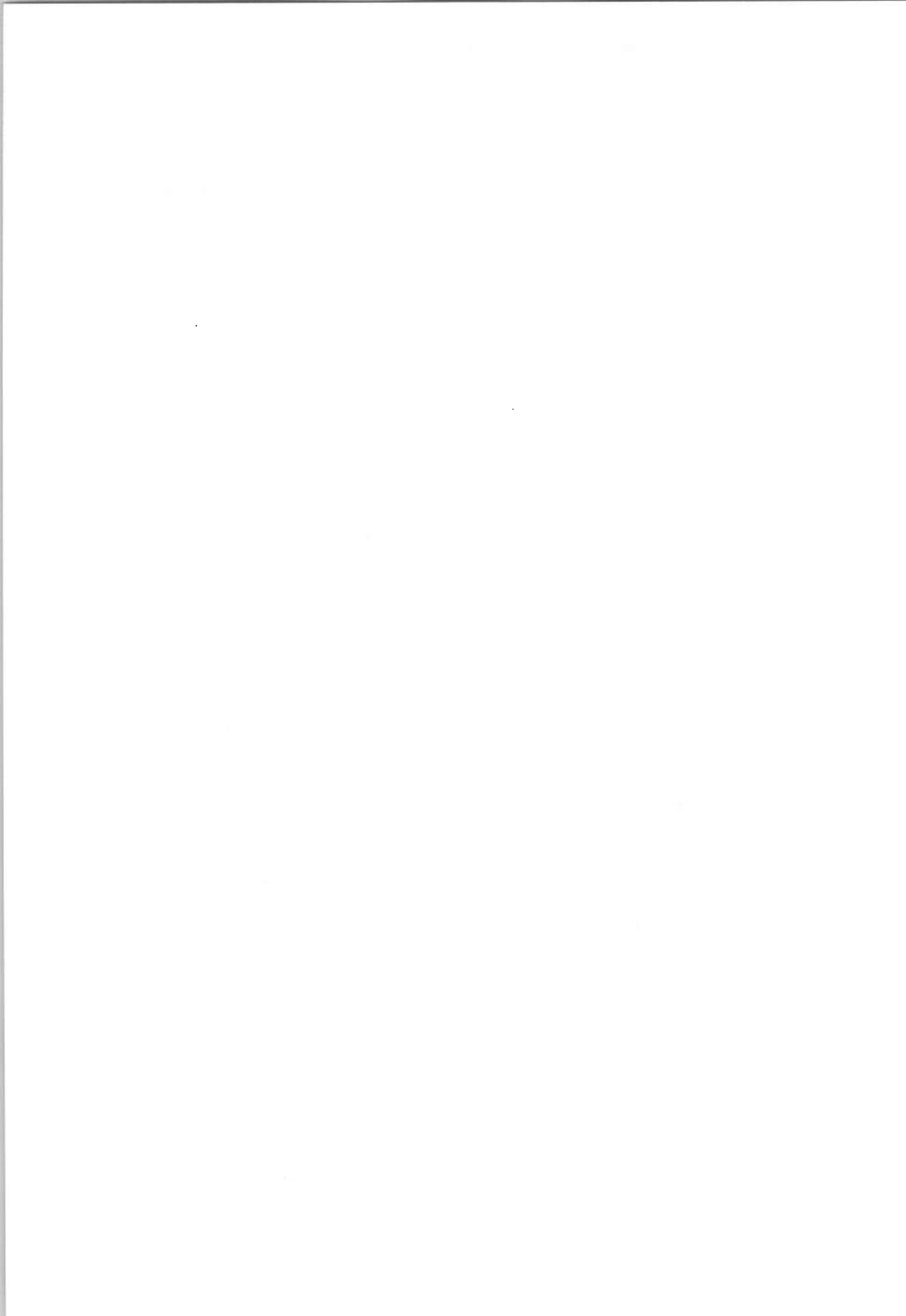
إن الأمر الوحيد الذي يجعل عين العالم المتأمل أكثر شمولية وعمقاً، هو التركيز على عالم الاقتصاد في جهله وعدم إدراكه، هذا الجهل الذي لا يلقى عقاباً على نتائجه الطبيعية كما في العلوم الدقيقة والتقنية، بل يثاب عليه بالمقام الرفيع والدخل العالي.

الاقتصاديون يرون في الربا بكل وضوح جانباً ضرورياً لازماً من جوانب آلية العملية المالية التي يأملون أن تثمر وتنجح. بينما لم ير فيه الحكماء على مر الأجيال إلا دعماً لا يمكن منعه للإثم والخطيئة، وسلاحاً عدوانياً ظالماً ضد «**الغرباء**»، و«**خطوة ممقوتة مدمرة**» إذا ما مورست مع الأصدقاء أو الإخوة.

سؤال أخير: كيف يستطيع الفرد أن يفهم بشكل تام كامل حقيقة الربا، في مجتمع يجعل من الربا شرطاً من شروط البقاء.

الجواب باختصار، هو أن طلب معرفة الحقيقة ـ في كل الأحوال والظروف ـ يشكل عند الفرد قوة تدفعه إلى التحرر، حتى لو لم يعرف سوى أنه غير حر، وأن المعرفة وحدها ستجعله حراً.

بتعبير آخر، ليس هناك من هو محصن في روحه وعقله، ومؤهل في فكره وأخلاقه لحل إشكاليات التأقلم مع مجتمعه ببصيرة تنفذ عبر تلك المؤثرات التي تنتشر بكل وضوح كمرض روحي ينشر الإحباط بين أهل الغرب.



الفصل 11

جغرافية العقل

قد تبدو جملة من الجمل أو عبارة من العبارات واضحة تماماً، إلا أننا حين نتفحص معانيها بعناية تتضح فجأة الأغلاط والخفايا الدفينة تحت وضوحها الظاهري.

جون بيكر

كان الدكتور ناثانيال ويل وزوجته سيلفيا كاسليتون ويل فعالين في تأييد نظرية أن اليهود هم صفوة «**النخبة المبدعة**» في الولايات المتحدة الأمريكية، وأن تفوقهم هذا إرث موروث.

في مقال لهما بمجلة «**مانكايند كوارترلي**»[1]، يفترض آل ويل أن منبع التفوق اليهودي هو «**الدراسات الدينية الراقية، وتطور مراكز البحث، والتركيز في هذه الأبحاث الدينية على الزواج المبكر والإكثار من الإنجاب**»، يقولون فيه:

> *باختصار، إن أصحاب العقول الذكية المرهفة، التي غربلتها عملية التنافس الثقافي لدى الجموع اليهودية، الذين عليهم أن يتزاوجوا مع الأباعد في زواجهم المبكر، يسعون بكل حماس في العائلات التجارية الغنية إلى الزواج من الأقارب. ومن هنا، وبفضل ما يوفره ذلك من ميزات الحمية والحماية من الأمراض والسكن والملابس والعناية الصحية والمعرفة المسبقة بما سيحصل من مضايقات، فهم ينجحون بتربية المزيد من أطفالهم إلى حد النضج.*

---

[1] مجلة بهذا الاسم تصدر كل ثلاثة شهور في إيدينبورغ باسكتلندا، نشر فيها الدكتور ناثانيال ويل مقالاته بانتظام باسم الدكتور ر. غاير خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

لقد بحث الدكتور ويل هذه الفرضية بشيء من الشمولية في الصحف العلمية وفي كتابين له أحسن توثيقهما هما: «**النخبة المبدعة في أمريكا**» و«**جغرافية العقل**» الذي شاركه في تأليفه الدكتور ستيفان بوسوني[1].

ثمة باحث آخر أسهم في هذا الفرع من الدراسات الاجتماعية هو البروفيسور إرنست فان دين هاغ، الذي ترافق كتابه «**الباطنية السرية اليهودية**» عام 1970 بضجة هائلة في الأوساط الأكاديمية؛ وكان على الجانب النقيض الآخر مقبولاً لدى العديد من كبار المتحمسين من أنصار نظرية «**المساواة العرقية**»، بمن فيهم البروفيسور آشلي مونتاغيو، مما أعطى ثقلاً إضافياً للعقيدة التي أعلن عنها جورج أورويل في كتابه «**مزرعة الحيوانات**»، والتي تقول «**إن جميع الحيوانات متساوية، لكن بعضها متساوٍ أكثر من بعضها الآخر**».

لا يمكن للمرء أن يعثر على أي خطأ في الإحصائيات التي استخدمها الدكتور ناثانيال ويل وزوجته سيلفيا في إظهار الهيمنة اليهودية بمجال معايير الأداء المحسوبة على أساس نسبة مئوية في مختلف فروع الدراسات الأكاديمية. لكن ذلك يطرح التساؤل عما إذا كانت جميع الوقائع والحقائق التي قدماها يمكن قبولها كدليل على نظريتهما الأساسية بأن التفوق اليهودي يعود إلى عوامل وراثية.

هل قدّما لنا كل الشواهد والأدلة؟ هل أخذا بالاعتبار كل الشواهد، بما فيها تلك التاريخية التي استنتجا منها وجود المواهب الفكرية اليهودية؟ يبدو أن كل دراستهما تمت ضمن إطار فكري محدود، وقامت على مراجع معينة محدودة محصورة.

طبقاً لما تذكرنا به دائماً تعاليم حكماء الصين، فإن الحقيقة غالباً ما تغيب عنا، إلا إذا بحثنا عنها في «**كل**» ما يتعلق بها. نجمع مجموعة من الحقائق فنصل إلى نتيجة من النتائج، نزيد عدد الحقائق لدينا فنحصل على نتيجة أخرى مختلفة تمام الاختلاف. من هنا، فإن المهم في الأمر أن نكون متأكدين

---

[1] «النخبة المبدعة في أمريكا» تأليف الدكتور ناثانيال ويل، مطبعة الشؤون العامة، واشنطن، 1966. «جغرافية العقل» تأليف ناثانيال ويل وستيفان بوسوني، شركة هنري ريجينري، شيكاغو، 1963.

ـ في ضوء كل فرضيات وبيانات ما نعتبر أنه حقيقة ـ من توفر جميع الوقائع المطلوبة.

ولابد لإنصاف الدكتور ويل من الإشارة إلى أنه في كتابه «**جغرافية العقل**» أعطانا مفتاح الدليل على وجود إطار مرجعي واضح آخر، في قوله «**لقد أسهم كلاً من سبينغلر وتوينبي في تقديم عداءٍ ثقافي للسامية**». ويعني ـ بالطبع ـ أن هذين الباحثين الرائدين الغربيين لم يقرا بوجود تفوق فكري يهودي موروث لدى اليهود. كتب ويل وبوسوني في كتابهما المشترك:

كانت الديانة اليهودية عند سبينغلر «ديانة فلاحين» ظلت ميتة تسعة قرون على الأقل. وكان اليهود عند سبينغلر أيضاً متفسخين منحلين لتأثرهم بثقافة وحضارة مجوسية استنفدت طاقاتها الخلاقة وحوافزها الإبداعية منذ وقت طويل.

أما توينبي، في الجهة الأخرى، فقد اكتشف أن اليهود كانوا «شظايا متحجرة من الحضارة السورية». بعبارة أخرى، إنه يتبنى أفكار سبينغلر إنما بعد تغيير مفرداتها.

كارل غوستاف يونغ، العالم النفساني السويسري الألماني، لفت إليه النظرات الشذراء بملاحظاته وتعليقاته على بعض الصفات التي تجعل العقل اليهودي «**يختلف كثيراً**» عن مثيله الأوروبي الغربي. فهو يقر دون أي قيد بوجود أنشطة يميل اليهودي العادي إلى التنافس فيها، ويقول:

اليهودي ـ كفرد من أفراد حضارة عرقية عمرها ثلاثة آلاف عام ـ شأنه كشأن الصيني المثقف المتحضر يملك هامشاً من الوعي النفسي أعرض مما لدى غيره. ولهذا، فاليهودي بالتالي ـ بشكل عام ـ أقل تعرضاً لخطر تأثير القيم السلبية على لا وعيه.

واليهودي الأشبه بالبدو الرحل لم يسبق له أن أبدع شكلاً حضاريا خاصاً به، ولن يمكنه ـ في ضوء أبعد ما تصل إليه رؤيتنا ـ أن يفعل. نظراً لأن جميع غرائزه ومواهبه تحتاج ـ قليلاً أو كثيراً ـ إلى أمة متحضرة تستضيفها وترعاها.

هذه المقتطفات الشواهد من سبينغلر وتوينبي ويونغ تشير على الأقل إلى وجود إطار فكري يستطيع ذوو العقول الموهوبة معه أن يخلصوا إلى نتائج

مختلفة غير التي بذل الدكتور ويل وزوجته سيلفيا جهدهما في استخلاصها من أرقام وزارة الصحة وإحصائيات وزارة الثقافة ووزارة الخدمات الاجتماعية.

إن أي بحث تحقيقي شامل لمقارنة الأوضاع الفكرية حسب التصنيف العرقي يحتاج بداية إلى الاتفاق على معاني مصطلحات وتعابير مثل «**الذكاء**» و«**القدرة على التأمل**» و«**الأداء**»، التي تستخدم كلها عند مقارنة مستويات الإنجاز لدى مختلف الأعراق.

فالدكتور جون بيكر في كتابه «**العرقية**» بحث في بعض المعاني العديدة لكلمة «**ذكاء**»، كما وردت عند علماء النفس وغيرهم. أما ألفريد بينيت، الذي منح اسمه لأحد أنظمة اختبارات الذكاء الجاري تطبيقه حتى الآن مع بعض التعديلات، فقد وضع معنى عادياً مبتذلاً للكلمة قائلاً:

يتجلى الذكاء في أوضح صوره بحسن توافق الفرد مع محيطه. وبإمكان المرء أن يجد في الآثار الأدبية عدداً من التعاريف المنطبقة على هذا الخط (ثم يمضي ليضرب لنا بعض الأمثلة).

لن تصادفنا أية صعوبات في تطبيق مصطلح مثل «**التوافق مع المحيط**» في المجال الحيواني والنباتي أو حتى في المجال البشري ضمن مجموعات صغيرة وبدائية. ولكن كيف يمكن تطبيقه في محيط بشري معقد ودائم التغير إلى حد خطير، من النوع الذي نجده في معظم البلدان المتحضرة اليوم؟

إن مفهوم «**التوافق**» هنا يقتضي معنى مادياً ملموساً غير نظري. ففي ألمانيا، قبل الحرب العالمية الثانية، كان من السهل مقارنة النخب اليهودية بمثيلتها في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها ــ كما أظهرت الأحداث فيما بعد ــ لم تبرهن على وجود «**توافق مع المحيط**» لديها.

حتى على المدى القصير ــ في ضوء أداء الفرد ضمن جماعة متجانسة يجمعها الموروث الجيني ــ فـ «**المحيط**» عامل ديناميكي مراوغ ومحير يمكنه خلق الفروقات في العالم. ومن هنا يأتي القول المأثور الإنكليزي «**تدوم الإعاقات لثلاثة أجيال**»، ليعني أن الإنسان العادي ــ حتى من طراز ريفي جاهل ــ قد ينجب ابناً ناجحاً رائع الأداء، ينجب بدوره ابناً فاشلاً يخيب الآمال رغم كل مزايا المحيط الذي أنشأه فيه أبوه الناجح.

إن عامل البيئة والمحيط، في حالة الابن الناجح، يجب أن ينظر إليها كواقع ديناميكي أساسي، أو شكل من أشكال الدوافع المحفزة يثير سلسلة من ردود أفعال الطاقة المتحررة، تحوّل المزايا السلبية المحبطة في البيئة المحيطة إلى مزايا إيجابية، دون أن يخرج ذلك كله من وعاء الموروث الجيني.

كان من المتوقع من الدارسين غير اليهود في المؤسسة الأكاديمية أن يفردوا مساحة أعرض للمسائل التي أثارها الزوجان ويل وبوسوني وفان دين هاغ، وكان عليهم ــ حسبما ثبت بالتجربة ــ إما أن يوافقوا بكل جوارحهم على الخلاصات والنتائج التي رسمها الدارسون المذكورون آنفاً، أو أن يفعلوا ما فعله سبينغلر وتوينبي ويونغ وكيث، ويعرضوا أنفسهم لخطر الوسم بمعاداة السامية.

إن من المستحيل تماماً إجراء مقارنة تحليلية كاملة وصحيحة دون أن نعرف ــ من وجهة نظر الأداء ــ أن اليهود والمسيحيين غير اليهود قومان مختلفان لديهما دوافع محفزة مختلفة. بعبارة أخرى، إنهما مجموعتان ليستا على مسار واحد، بل على مسارين متوازيين، تسيران بشكل مختلف، وتختلفان في الأهداف المنظورة.

فكيف يمكن إذن ــ على أساس نسبة مئوية ــ مقارنة إنجازات النخب في مجموعتين مختلفتين تماماً في الصفات، ومختلفين تماماً في الموقع؟ ولدينا في الجانب الأول أغلبية تحتاج من أجل بقائها الحضاري إلى مخزون من الحرفيين المهرة وإلى العمال العاديين، إضافة إلى طبقة فلاحين ومزارعين ترسخت جذورهم في الأرض، ولدينا في الجانب الآخر أقلية صغيرة، أعصابها متوترة دائماً، ملتزمة بكاملها بالمحافظة على هويتها القومية ووحدتها حتى وهي متوزعة في بلدان مضيفة ضمن سكان أكثر عدداً.

لقد بيَّن يونغ أنه فهم الخيط الرفيع والهام للفرق بين «**الدافع**» و«**الأداء**»، حين لاحظ أن لدى اليهود مساحة أعرض للوعي، وأنهم بالتالي «**أقل تعرضاً لخطر تأثير القيم السلبية على لا وعيهم**».

لكن من الواضح أن هناك فائدة لا يمكن تجاهلها من تأثير القيم السلبية على اللاوعي. يبقى لابد من التساؤل عما إذا كان الشعب اليهودي يدفع سعراً

عالياً مقابل هذه الفائدة في مجال التطبيق على المدى البعيد. ويبقى ثمة سؤال جدير بالطرح هو: أليسوا يتخلون بذلك عن تقدير حجم ما يتعرضون له ذات يوم في المستقبل من خطر اللاوعي لديهم؟

الواقع أن الأثر، الذي منح النخب اليهودية النجاح في المجتمع الغربي، جاء عن طريق أشخاص من أصل يهودي سعوا دائماً إلى التحرر ليصبحوا قادرين على العمل في جو فكري أرقى، أشخاص من أمثال موسيس مانديلسون وابنه الموسيقار، وسبينوزا ودزرائيلي، ناهيك عن موسى بن ميمون وآخرين، بما فيهم اليهود الشجعان في زمننا الحاضر المذكورة أسماؤهم في مواضع أخرى من هذا الكتاب.

من هنا، يبدو أن الدرجة العالية من التميز الفكري عند اليهود كانت نافعة وضارة بالنسبة إليهم في آن معاً، لكنها في مراحل كثيرة من تاريخهم الصعب الشاق كانت ضارة إلى حد محزن.

وقد يرى الشعب اليهودي تنبيهاً في ملاحظات فريدريك شيللر عن الأضرار الناتجة من الإفراط في التميز الوظيفي وهو يقول:

حين يرسم الكومنولث وظيفة للإنسان أو يضع معياراً لأدائه، فهو ينطلق بالنسبة لمواطنيه حين يفعل ذلك من الذاكرة عند أحدهم، ومن تصنيف الذكاء عند الآخر، ومن القدرة الميكانيكية عند الثالث. وبينما يتوجه هنا ــ بعيداً عن الصفات الشخصية ــ نحو المعرفة فقط، فإنه يشجع السلوك الروحي المنضبط مع القانون دائماً الغائص في أعماق الغموض الفكري، ويريد ــ في الوقت نفسه ــ لهذه الإنجازات الفردية في هذا الموضوع أن تتحقق بكل تركيز قوي يعفيها من التوسع والامتداد. أليس عجيباً أن تهمل القدرات العقلية الباقية الأخرى وأن ينصب الاهتمام على شخص بعينه بالتكريم والمكافأة؟

لقد رأى شيللر «**أعماق الغموض الفكري**» آتية لا ريب فيها، في التكريم الزائد والمكافآت السخية لنخبة التطور الفكري الأحادي الجانب، المتواكب بما لا يقبل الشك مع الغموض الفكري العام.

إننا نرى بعدين آخرين يمكن لدراسة بحثية من هذا النوع أن تشملهما. أولهما هو عامل التأييد المتبادل والتزكية بين الأكاديميين لتشكيل وعي

عرقي ذاتي، أو أقلية قومية. والثاني هو التفوق اليهودي فيما يمكن تسميته **«العلوم الثانوية الفرعية»** مثل علم أصل الأعراق الإنسانية من الناحية الاجتماعية وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والنفسية، التي يعتبر كل علم منها ـ عند اليهودي وغير اليهودي على السواء ـ غابة غموض لا يمكن فهمها واختراقها.

ولابد هنا من التفريق بوضوح بين مجتمع يحوي قدراً بارزاً من التمايز الوظيفي، ومجتمع كالمجتمع اليهودي يخضع في مجموعه للتمايز الوظيفي. بعبارة أخرى، لقد تم تسخير القدرة اليهودية المتطورة على التفكير المجرد لصالح مجموعة من الأهداف.

لقد أنتجت التجربة اليهودية على مر العصور ـ عند شعب يحافظ على وحدته وهويته رغم توزعه بين الأمم ـ كماً هائلاً من الخبرات المتراكمة، أتاح لهم ما يهدفون إليه من استحواذ على السلطة، مهملين في الوقت ذاته كل ما له علاقة باستخدام هذه السلطة وتوظيفها. فالإبداع يقتضي ـ سواء على صعيد الفن أو السياسة أو الزراعة أو غيرها ـ تطابقاً متجانساً ومتعاطفاً مع الأشياء والناس، والسلطة يجب استخدامها بشكل إبداعي وإلا زالت وتلاشت. لقد توفرت للشعب اليهودي مهارة متميزة خاصة مكنته من الحصول على سلطة هائلة في روسيا، لكنه بعد حصوله عليها لم يتمكن من استخدامها بشكل خلّاق، نظراً لأن الإبداع يتطلب توافقاً متعاطفاً متجانساً مع الشعب الروسي، وهذا موقف لا يتفق مع الحفاظ على الهوية القومية اليهودية مستقلة.

ولعل ما ذكرناه سابقاً يساعد على توضيح ما عناه يونغ حين وصف اليهودي بأنه **«أشبه بالبدو الرحل... لم يسبق له أن أبدع شكلاً حضارياً خاصاً به»**. إن الصفة البارزة في البدوي المترحل هي أنه يحتل إقليماً من الأقاليم لكنه لا يقيم معه أية علاقة حيوية تربطه به. إنه جامع منتجات وليس منتجاً. إلا أن متعة التوافق المتجانس مع الأشياء تبقى مجرد **«ظاهرة جماعية»** للفرد فيها ـ كما يقول مانديلسون وماهلر وسبينوزا وآخرون ـ كامل الحرية بأن يختارها أو لا يختارها.

هناك أسئلة لابد أن الزوجين ويل وفان دين هاغ وآخرين غيرهم قد طرحوها قبل أن يلزموا أنفسهم بمقولة أن النخبوية اليهودية تعود إلى عوامل جينية. مثلاً: ما هي السمة الحقيقية المميزة لهذه النخبة اليهودية؟

لقد خضعت النخبة اليهودية لتحولٍ حاد في زمننا. فقد كانت في العديد من الأقطار دينية في المعابد اليهودية، أما الآن فهي نخبة في الجامعات ومكاتب الحسابات والوساطات. وبحكم كونها نخبة قادرة على تشكيل بعض قيم اللاوعي، فقد أصبحت الآن مسيطرة إلى حد أنها قادرة على وضع القيم السلبية في اللاوعي، طامسة بذلك العوامل الميتافيزيقية التي كانت دائماً الرباط أو الإسمنت الذي يربط ويشكل الإجماع اليهودي.

تعيش النخب اليهودية وغير اليهودية الآن مرحلة متسارعة الخطى تدفع أنبياء العهد القديم للتنبيه إلى أن «**الله لا يمكن خداعه والسخرية منه**»، هذا التنبيه الذي يترجمه علماء النفس الحديث بقولهم «**اللاوعي لا يمكن أن يسمح بطمسه أو بالاستخفاف بقيمه**». فاللاوعي المهان بهذه الطريقة يستطيع إعادة تأكيد ذاته لدى النخب بأشكال بغيضة وكريهة، كالعصاب والإدمان على الكحول وغيرها. وبالنسبة لليهود اليوم، لدينا سبب وجيه يدفعنا إلى الاعتقاد بأن اللاوعي اليهودي الغاضب ــ أي الإله اليهودي والقبيلة اليهودية ــ الذي يؤدي إلى أخطر ردة ضد الفطرة في إطار قومية صهيونية عنيفة متطرفة، هو لاوعي بدائي لافتقاره إلى أي مضمون ديني، يستطيع تحريك الجماهير، لكنه لا يسهم بتوسيع المنابع والمراجع الأخلاقية لدى الأفراد كأفراد.

ومن هنا، في غمرة عطالة العقل للروح الجماعية الملتهبة، نرى السكين المرهفة القاطعة للعقلية اليهودية تتجه نحو صدور اليهود أنفسهم.

لقد لاحظ كارل ماركس أن الرأسمالية الغربية «**تخلق يهوداً في أحشائها**»، ويعني أن البيئة المحيطة قد تشكلت بحالة أصبحت الطبقة العليا فيها من يهود وغير يهود مجبورة على التفكير والسلوك بالطريقة ذاتها، فجميعهم يضعون القيمة العليا الإيجابية للعقل، والقيم السلبية للاوعي الذي هو مسار الإبداع في الحياة.

يتبنى سبينغلر هذه الفكرة في كتابه «**انحطاط الغرب**» فيقول:

إن هذه الأمة الوثنية (ويعني اليهود) ــ بدينها وأحيائها المنعزلة المغلقة ــ تتعرض اليوم لخطر الانقراض، ليس بسبب التقارب بين الثقافات على الصعيد الميتافيزيقي (لكونه مستحيلاً) بل بسبب شيوع العقلانية بين نخب هذه الثقافات بحيث لم يعد فيها جانب ميتافيزيقي على الإطلاق. لقد أضاعت كل أنواع التماسك الداخلي، ولم يبق لديها سوى تلاحم من أجل الأهداف العملية.

ثمة سؤال آخر لابد من طرحه: أليس من الأسهل عزو الهيمنة اليهودية في سباق النخب إلى مجموعة من المكاسب الخاصة الناتجة عن الوجود اليهودي في الغرب؟ بعبارة أخرى، أليس محتملاً ألا يكون التفوق اليهودي نتاجاً جينياً موروثاً، بل يأتي نتيجة لظروف من نوع لم يوجد مثله في الماضي، وقد لا يوجد في المستقبل؟

مع تقدم الثورة الصناعية في الغرب، نشأ عن الرأسمالية الفردية الخاصة ــ التي أطلقت عدداً مذهلاً من المشاريع والطاقات في الغرب وخصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية ــ رأسمالية مالية خالصة على صعيد قومي محلي في بداية الأمر، ثم على صعيد دولي فيما بعد. وكان لابد لهذه التطورات ــ التي أسهم غير اليهود في حدوثها بشكل أساسي ــ من أن تحصل ولو بتسارع بطيء، حتى لو لم يكن هناك يهود في العالم.

لكن اليهود ــ كشعب تمركزت طاقاته وقدراته الفكرية على الأعمال المالية، وكأمة متلاحمة متماسكة رغم توزعها بين باقي الأمم ــ كانوا مؤهلين بشكل مثالي لممارسة تأثير متفاوت الدرجات في تمركز الرأسمالية المالية ليس في الولايات المتحدة وحدها، ثم مع الوقت في ابتلاع وهضم الأسر الغنية غير اليهودية المتمثلة بأسماء مثل مورغان وفورد وكارنيجي وفاندربيلت وروكفيلر وغيرهم.

ثمة ميزة تحققت على هذا النحو في الولايات المتحدة (كما شرحها الدكتور كارول كيغلي في كتابه «**مأساة وأمل**»)، وكان لها أثر راسخ هناك، هي الهيمنة التي امتدت بسرعة على الثقافة العليا والمثقفين بدءاً من جامعة كولومبيا، بالإضافة ــ طبعاً ــ إلى الهيمنة في حقل الملكية الفردية الخاصة،

والتحكم في وسائل الإعلام والأخبار، والتأثير بالوسائل المالية على الأحزاب السياسية في البلاد وعلى الأجهزة الحكومية والقضائية فيها.

لقد تشكلت على هذا النحو سلطة قادرة مخيفة تجعل من السخف إجراء مقارنة بين النخبتين اليهودية وغير اليهودية، بعد أن أعطت الأحداث إحداهما أفضلية لا تقاوم، ولا علاقة لها بأي موروث جيني، تماماً مثلما منحت الظروف والأحداث التاريخية الأفضلية لجماعات عرقية بعينها دون غيرها من جماعات لا تحصى تتألف منها شعوب أفريقيا السوداء، وأعطتها القدرة على اضطهاد باقي الجماعات التي حكمت أوطانها زمناً طويلاً في السابق.

هناك ميزة وأفضلية هامة أخرى اكتسبها اليهود في آخر أيام الرأسمالية الغربية هي التماسك في المجموعة والتلاحم القائم على الثقة المتبادلة وعلى التعاون المشترك، تحققت لليهود بفضل ما وصفه الدكتور كيث «**بالمعيار المزدوج**» في علاقاتهم مع «**الأغراب**»، وبفضل تشرذم هيمنة النخبة الغربية التي شغلها التنافس بين أفرادها عن التفكير في التصدي للتحدي اليهودي، وعن العمل معاً بشكل متناغم وموحد.

باختصار، ماذا يهمنا في معرفة أي النخبتين ستفقد صدارتها، إذا كان كل منها لا يعرف إلى أين يمضي، وإذا كانت جميع الدلائل تشير إلى أن السباق يسير بالطرفين نحو كارثة؟

الفصل 12

كشف وتحليل غوامض المسألة العرقية

لا يجوز لأحد أن يغفل عن المسألة العرقية، لأنها مفتاح تاريخ العالم، ولأنها بالتحديد سبب افتقار التاريخ المكتوب إلى الوضوح. فالتاريخ كتبه أناس لا يعرفون المسألة العرقية ولا يفهمون ما يتعلق بها. اللغة والدين لا يشكلان عرقاً، رابطة الدم وحدها هي التي تفعل ذلك.

بنيامين دزرائيلي

هناك موضوع هام أصبح شائعاً في عدد من الصحف الثقافية في الولايات المتحدة، بعد نشر الدكتور إرنست ڤان دين هاغ لكتابه «**الغوامض اليهودية**»، هو الزعم بتفوق «**أدوات الفكر**» اليهودية كتفسير محتمل لهيمنتهم المدهشة في مجال الثروة والسلطة، ولتأثيرهم كأقلية في العالم الغربي.

ولعلنا متأكدين من أن هناك بعض الحقيقة في مزاعم الدكتور ناثانيال ويل (الذي ناقشنا أجزاء من كتابه في الفصل الحادي عشر السابق) وآخرين، بأن قروناً من «**الاصطفاء الفكري**» لعبت دوراً هاماً في نشوء وارتقاء عرقٍ وأمةٍ يهودية، تتميز غالبية أفرادها بمستوى غير عادي من الذكاء، مع قلة نادرة من الحمقى والعاجزين عن التكيف. كما لعلنا نعرف أيضاً أن «**الجهاز العقلي**» ذاته يختلف أداؤه باختلاف الظروف، وتختلف استجابته باختلاف الدوافع والمحركات المثيرة، ونعرف أيضاً ـ أو يجب أن نعرف ـ أن الظروف الخاصة بالشعب اليهودي، كأقلية صغيرة في مناخ إنساني تشعر بأنه قد يكون عدوانياً، لابد لها من أثر فاعل مثير على حدة أذهانهم وأنشطتها.

إن ما نريد اكتشافه واستنتاجه هو ما إذا كان هذا التفاوت غير العادي الماثل أمامنا ناتجاً عن «جهاز عقلي فائق» فقط، أم أن هناك عوامل أخرى هامة لها علاقة بذلك.

على سبيل المثال، كيف يستقيم لدينا أن ما نراه أمامنا من أداء متفاوت غير عادي ـ كحقيقة لا تقبل الجدل ـ في كل أنحاء الغرب، بحضارته التي امتد تأثيرها اليوم ليشمل العالم، إنما هو أساساً نتاج الطاقة الإبداعية الأصلية لدى الشعب الأوروبي الغربي المسيحي، وأن اليهود على مدى ثلاثة آلاف عام لم يستطيعوا إنتاج شيء يشبهه ولو من بعيد؟

إن إحدى الميزات البارزة في الشعب الأوروبي ـ كعرق ـ هي أنهم، إلى درجة غير عادية، «**بناة حضارة**»، وأن بينهم أفراداً لا يحصيهم العد يضحون بمصالحهم الخاصة للإسهام والمشاركة في المخزون من كنوز الثقافة. أما اليهود، في الطرف الآخر من المقارنة، فهم ـ كما وصفهم سبينغلر وتوينبي ـ «**شعب بدوي فلاح**» يتكيف مع حضارات وثقافات الآخرين.

كيف نوفق بين انعدام الكفاءة والتلاؤم لدى الأوروبيين الغربيين وبين وجود قوى عقلية وروحية مازالت إنجازاتها في كل حقل من حقول الأنشطة الإنسانية ـ وخصوصاً في العمارة والفن والموسيقى والأدب ـ ماثلة إلى يومنا هذا، بعد قرون من النضال، علامة بارزة في المنجزات الإنسانية؟

لن نستطيع أن نأمل بأن نفهم العالم الذي نعيش فيه، وموقعنا منه، إذا كنا نعجز أو نخاف من محاولة الإجابة عن أسئلة من هذا النوع.

إننا نعرف أيضاً أن هناك حقباً زمنية في التاريخ كان الشعب اليهودي فيها ـ بمرتبته المتدنية ـ يختلف كثيراً بشكل ملحوظ من حيث الجرأة والألمعية في الإنجاز عن الشعوب التي يعيش معها، ولا ندرك أن مثل هذا التدني في المرتبة كان سببه دائماً التدني في «الجهاز العقلي» اليهودي.

يقودنا هذا التفسير الواضح التناقض ـ في جانب من جوانبه ـ إلى حقيقة راسخة مؤكدة، هي أن العقل الإنساني يمكنه أن يعمل وظيفياً بطرق متطرفة مختلفة. إنه يعمل فقط في خدمة الفرد، وعندها يستحق أن نصفه بـ «الجهاز». أو يمكنه أن يعمل في خدمة الجماعة، وعندها لا يعود مجرد

جهاز يمثل ظاهرة فردية، بل يصبح إعصاراً على شكل قمع يجتذب إلى مركزه المنجزات الحضارية للعرق ويعبر عنها.

لم يسبق للإنجاز الأوروبي أن اعتمد من قبل على الأنشطة العقلية العالية المستوى، بل اعتمد دائماً أكثر على الأداء المتميز لحفنة ملهمة من الأفراد. أما أولئك الذين يشكلون الجسد السكاني فيتابعون بكل ارتياح ويشاركون في المسيرة على الشاطئ مستمتعين بما تقدمه لهم تلك الحفنة الملهمة من فوائد، آخذين بالدعم والمساندة يد من قد يفشل في متابعة المسيرة، وحاملين معهم إرثاً من الجينات قادراً على رفد المزيد من هؤلاء الأفراد المتميزين حين تدعو الحاجة إليهم.

ظاهرة التميز الفردي هذه تظهر بشكل أفضل ــ كميزة عبقرية مبدعة ــ حيث تندفع سيول المد الكبير للطاقة لدى العرق، وقوة إرادته وعزيمته، في الأقنية الضيقة للعقل الفردي، لتصبح شاطئاً مخيفاً خطراً عند هذا الفرد.

وهذا كله يقودنا إلى أن الظروف التاريخية السائدة، بما فيها التحكم التام للدافع الاقتصادي بالحياة، بقدر ما كانت مفيدة وموائية للشعب اليهودي، كانت غير مفيدة ومواتية للشعب الأوروبي، فقد توجه اليهود غالباً نحو العلوم والتقنيات وغيرها من الحرف التي لها علاقة بتصنيع البضائع وتوزيعها، واستمر التفاوت في الاتساع مع انحطاط وتدهور الرأسمالية الفردية الخاصة، وسيرها في تسارع نحو رأسمالية التمويل بالخفاء.

ويرجع «التسارع» ــ بالطبع ــ إلى حقيقة أن تنمية الرأسمالية الفردية الخاصة تمثل إحدى النتائج الآثمة للخداع والتضليل الذي تمارسه الحكومات في واحد من أهم مسؤولياتها الاجتماعية، هي منع تعاظم السلطة الاقتصادية وتمركزها بشكل طاغ وكاف للسيطرة على الحكومة ذاتها، وهذا كله جزء من عملية خسر بسببها الأوروبي الغربي ــ سواء في أوروبا أم في أي مكان آخر ــ قدرته على التحكم بمصيره الخاص.

بسبب هذه الأوضاع لم يجد الأوروبي الغربي أحداً يستحق اللوم سوى نفسه. لأنه في تكوين الثروات والملكية المادية خلق معياراً قيمياً وعلاقات إنسانية معقدة مواتية ومفيدة لطاقات الأقلية اليهودية المعتمدة على نفسها أكثر مما هي مواتية ومفيدة للشعب الأوروبي الغربي.

والنتيجة هي ما نراه حولنا في جميع الأنحاء. فالأوروبي الغربي الأصل ـ إنكليزياً كان أم فرنسياً أم ألمانياً أم أفريقياً أم جنوب أفريقي ـ يعاني من نوع من أنواع المرض الروحي يدمر أخلاقه ويخنق ملكة التخيل لديه ويقمع أنشطته الفكرية بكل أشكالها. ومن الطبيعي أن تختلف حدة المرض بين شخص وآخر باختلاف الظروف الشخصية المحيطة.

لقد أصبح الأوروبي الغربي العاجز عن الصدق مع ذاته ضحية التشوه الثقافي والسياسي، وصار أهم الأعراض الظاهرة عليه فقدان كل إحساس بالاتجاه والهدف. أو بعبارة أخرى، أصبح يتلبسه شعور بعبثية الوجود، تحولت الجماهير المثقفة معه ـ وبخاصة الشباب منهم ـ إلى عجينة ثورية لينة يمكن توظيفها من قبل القوى المسيطرة وتوجيهها نحو أي هدف كان.

إلا أنه لا يكفي أن نقول إن الأوروبي الغربي اليوم مصاب بمرض روحي، وأن نضع قائمة تفصيلية بأعراض وتواليات ذلك المرض.

إننا بحاجة ـ إذا أردنا بأنفسنا خيراً ـ إلى أن نكتسب بصيرة ثاقبة تنفذ في أعماق أسبابه، وإلى أن نستقصي بكل دقة طبيعة التشوه والأسباب الكامنة خلف الأعراض.

إن تاريخ الجنس البشري المعروف لدينا بكامله يؤكد جازماً أن الإنسان حيوان اجتماعي، ولهذا فهو يحتاج، على رأس احتياجاته من أجل صحته الأخلاقية، إلى إحساس بالأمن أو الانتماء تقدمه له الجماعة، إحساس لم يسبق له أن وجده حتى الآن إلا ضمن مجموعات أو جماعات محدودة ضيقة تتألف من أفراد يشبهونه تماماً.

مع هذا النمط من الوجود المترسخ عبر آلاف السنين، والذي يشترك فيه الإنسان مع القسم الأعظم من المملكة الحيوانية، هناك معيار مزدوج للموقف والسلوك رسمته الطبيعة بشكل واضح للحفاظ على ذلك النمط، هو الصحبة والتعاون والتعاطف المتبادل ـ داخل الجماعة ـ حتى ولو خالطه شيء من التنافس بين أفراد الجماعة، أما تجاه جميع من هم خارج الجماعة، فالموقف مختلف، وقد يشتد في العداوة والخصومة حسب ما تقتضيه الظروف.

والفرد الذي يعيش في مناخ من هذا النوع ليس لديه مطلقاً أي تضاد أو اضطراب على الصعيد الأخلاقي، فهو ــ عملياً ــ يقول لنفسه: «**هؤلاء هم جماعتي وشعبي، وهم الذين أستطيع أن أثق بهم ويثقوا بي، وأن أساعدهم ويساعدوني**». إنه يلتمس إحساساً راسخاً بالأمن من معرفته بأن هناك أناساً معه يشاطرونه مجموعة من المصالح والالتزامات. وانطلاقاً من أرضية آمنة راسخة، فهو مستعد للمخاطرة بحياته، لا بل للتضحية طائعاً، ومستعد لأن يعطي كل شيء للجماعة التي منها يستمد كل شيء.

ولهذا، فإن ما يسميه الفرد «**وعياً**» عنده، هو جزء من آلية نفسانية يحتاج إليها لضمان استمرار بقائه نحو الأفراد الآخرين في المجموعة، أو نحو المجموعة ككل. إنه معيارٌ لموقفٍ وسلوكٍ محسوبٌ ليحقق أفضل المصالح للمجموعة ولجميع الأفراد الذين تتألف منهم تلك المجموعة.

إن التشوه الأخلاقي والسياسي الذي ابتلي به أهل الغرب ذوو الأصل الأوروبي، يمكن أن يعزى ــ على هذا الأساس ــ إلى زوال الحدود القديمة بين مجموعات منفصلة لأناس لديهم الوعي الذاتي نفسه، والمضامين المفروضة نفسها داخل وحدة سياسية أكبر ذات عناصر مختلفة ومتغايرة.

هذا الفرد المحكوم بنفسية تطورت عبر آلاف السنين من التجارب والممارسة، يجد نفسه الآن أمام مشكلة عويصة. فهو مجرور رغماً عنه إلى مناخ معقد متغاير العناصر صنعه بنفسه، ولا يستطيع بذات الوقت الانفصال عن جذور الحاجة لديه إلى مناخ إنساني متنوع العناصر.

ولكن، كيف يستطيع الفرد ــ في مجتمع متنوع العناصر بقالب علاقاته الجديد الغريب الذي تمليه النواظم الاقتصادية ــ أن يميز بين «**نحن**» و«**هم**»، بين من ينتمون إليه وينتمي إليهم وبين من هم ليسوا كذلك؟ إن مشكلته تصبح أكثر إيلاماً حين يجد نفسه في بلد كبير مستقل سياسياً، يضم أناساً يختلفون تمام الاختلاف في العرق وأسلوب العيش، بل يختلفون في حالات كثيرة بلغتهم التي تختلف عن لغته الخاصة.

والنتيجة بالنسبة للفرد الأوروبي الغربي هي صراع داخلي واضطراب. فاستجاباته ــ بدلاً من أن تكون بسيطة واضحة وقاطعة، كما يجب أن تكون في

أبسط أشكالها الاجتماعية، نجدها مختلطة بطريقة تنتج عنها مشاكل نفسانية كعقدة الشعور بالذنب أو كضعف الجانب الأخلاقي. إنه ممزق في داخله، يخبو إبداعه وتتناقص طاقاته الفكرية بشكل كبير، وتقل قدرته على التوافق الفعال مع أفراد آخرين من نوعه.

ولا تنتهي المشكلة عند هذا الحد، بل تذهب إلى أبعد من ذلك. ففي المجتمع ذاته تظهر علائم انقسام عميق بسبب ميل كثير من الأفراد من ذوي النفوس المريضة إلى الضوضاء والصياح معاً، حسب الطريقة التي يبحثون بها بشكل فردي عن حل لمعضلة المعيار المزدوج المعطل عن العمل، مما يسمح في النهاية بقيام تجمعين رئيسيين يمكننا تصنيفهما تحت مصطلح **«اليمين»** و **«اليسار»**.

فعلى اليمين، أولئك الذين يأملون بالعثور على الخلاص في إعادة إنشاء وحدات إنسانية أصغر وأكثر تنوعاً، يمكن لسايكولوجية المعيار المزدوج فيها أن تعود إلى العمل مرة ثانية بكل حرية، أو لتقاوم ــ بدرجة أو بأخرى ــ كل تلك المؤثرات التي تميل نحو إقامة وحدات سياسية أكبر وأكثر تنوعاً، هادفة في ذروة توجهاتها إلى إقامة عالم ذي دولة واحدة.

أما على اليسار، فيتربع أفراد تطورت عقولهم على حساب غرائزهم، يبحثون عن الخلاص في عالم يتخيلونه، كل الناس فيه متساوون لا تمييز بينهم، ويمكن فيه للمعيار المزدوج الأساسي الموروث أن يستبدل بمعيار أحادي غير مزدوج، هو معيار الصحبة و **«الأخوة العالمية»**.

وبذلك يتحول الصراع الذي ينشأ داخل الفرد إلى المجتمع نفسه، رغم الانقسام الأسري، فيخلق بذلك وضعاً تستطيع أية أقلية أجنبية غريبة أن توظفه لصالحها الخاص.

إننا لا ندري كيف ستسير الأمور في السنوات القادمة، لكننا نعرف بالتأكيد أن ثمة إشكالات ومقومات نفسانية ستنشأ من تطبيق معيار أحادي للصداقة والمساواة العالمية، في عالم معايير مزدوجة لا يملك أحد لها تغييراً، تشتمل على شكل من أشكال المرض الروحي يقضي على الأخلاق في كل مكان، وعلى القدرات السياسية لأهل الغرب الأوروبي، وتخلق أوضاعاً عالية النفع لأقلية يهودية صغيرة اتحدت في الشتات للحفاظ على أخلاقها المزدوجة المعايير.

حجر الأساس في هذه المنفعة الفريدة من نوعها نظام لمأسسة التعلم وتنظيمه، مازال مفروضاً حتى اليوم من قبل الدين، يتيح للشعب اليهودي الحفاظ على وعي ذاتي عرقي حاد وعلى وحدة قومية في الشتات، في حين تقوم الوحدة العرقية ــ لدى آخرين ــ على حدود جغرافية. لقد أصبح الوعي العرقي اليهودي والوعي القومي أكثر تركيزاً وكثافة لأنه في مجموعه وليد العقل.

لقد جرى تزييف وتلميع علم أصل الإنسان إلى درجة تثير الدهشة بالفعل لمنع معلومة من هذا النوع من أن تفهم وتعرف بشكل عالمي. وكثير من تلك العلوم التي تهدف لمساعدة الإنسان على فهم أصل نوعه، مثل علم أصل الإنسان وعلم النفس وعلم الوراثة وغيرها، يعاني اليوم من حالة الكسوف التي عاناها علم الفلك والعلوم الأخرى في العصور الوسيطة، والسبب واحد في الحالتين. فالاكتشافات في هذه المجالات العلمية هددت وجود أركان السلطة القائمة، الدينية منها والسياسية والمالية.

إن المعلقين السياسيين الذين يميلون ــ لسبب أو آخر ــ إلى ترسيخ دعائم الأسباب الخفية لما يحدث في العالم اليوم، ويبتعدون كثيراً عن كل ما من شأنه تنوير العامة، يساهمون فقط في تسميك ضباب التشويش الذي يتخبط فيه الملايين من ذوي النفوس المريضة.

ثمة شعور قوي بهوية الجماعة، وبالاعتزاز بالعرق، وبالقومية ــ سمِّها ما شئت ــ يعطي الناس إحساساً بالهدف وبالاتجاه يجعلهم محصنين في وجه المؤثرات المدمرة على الصعيدين الثقافي والأخلاقي التي تفشت في العالم الغربي، والتي تسعى لتدمير صحة وسعادة البشرية.

نخلص مما سبق إلى أن اليهود، في كل انحراف حضاري، ومع كل توقف في عملية البناء الثقافي ــ يستطيعون بوعيهم العرقي القوي واستعدادهم للمشاركة الفعالة عملياً برسم الخواتيم أن يحققوا منفعة هائلة لا يمكن مجاراتهم فيها.

الفصل 13

الإصلاح والأصولية : زاويتان للنظر إلى الشرق الأوسط

مع بزوغ الأمة اليهودية في القرن العشرين، بفضل ثرواتها الهائلة وقدرتها على التأثير، انقسمت الجماعة اليهودية بشكل حاد تحت شعارات «**الإصلاح**» و«**الأصولية**»، أو «**الصهيونية**» و«**نقيض الصهيونية**»، التي هي شعارات متضادة تقابل مصطلحي «**العلمانية**» و«**التدين**».

هذا الانقسام الحاد داخل صفوف الجالية اليهودية، بكل أشكال السلطة الدنيوية المهيمنة على جانب الإصلاحيين، تسبب في ظهور وضع غريب غير عادي وجد الإصلاحيون ـ الرافضون بصراحة لكل تفسير توراتي للتاريخ ـ أنفسهم فيه اليوم دون أي دعم ديني لطموحاتهم الصهيونية، عدا ما يمدهم به المسيحيون الذين استمروا في الاعتقاد الآن بأن اليهود «**شعب الله المختار**» في عملية تحقق ما جاءت به النبوءة.

وكما يقر المؤرخون اليهود صراحة (من أمثال أبرام ليون زاكار في كتابه «**تاريخ اليهود**»، وهاوارد مورلي زاكار في كتابه «**مسار تاريخ اليهود الحديث**») فقد تأثر كل من اليهودية والمسيحية ـ بشكل متساو ـ بما يسمّى حركة التنوير الفلسفية في القرن الثامن عشر، على يد مفكرين أوروبيين من أمثال كانط وهيغل وفيخته وتشارلز داروين. وفي ظل العلمانية الناتجة، استغنى الإصلاحيون اليهود ـ الذين يشكلون اليوم الأغلبية المسيطرة ـ عن جميع ما في العقيدة القديمة القائمة على أساس مبدأ تجسيد «الله»، حتى أن كثيرين منهم، كما قال أبرام ليون زاكار، «**يأخذهم الغرور بشكل يثير العدوانية ويعتبرون الله مجرد معبود**».

بعد نزاع مرير بين اليهود، استقرت الأمور وساد بعض النظام في جامعة سينود ببرلين، حين تم الاتفاق على أن تترك الحرية لليهود في تفسير «**الكتاب**» كما يشتهون، وحتى في أن يكونوا لا أدريين أو ملحدين منكرين

لوجود الله، على شرط أن يبقوا على ولائهم للأمة. ولهذا، فبينما يتمسك كثير من المسيحيين اليوم بفكرة «**إله يهو ــ مسيحي**»، نجد أن المثقفين اليهود الجدد، أصحاب الآراء الحدية القاطعة في الشؤون العامة، لم يعودوا يؤمنون بإله ذي صفات بشرية، إله يرضى ويغضب، ويختار لنفسه شعباً يمنحه أرضاً تكون ملكاً مطلقاً له إلى الأبد. كل هذا استبعده الإصلاحيون اليهود واعتبروه مجرد رمز مجازي، واستبدلوه بمفهوم أمة ليس عليها أن تنتظر «**المسيح الموعود**»، وقادرة على أن تكون هي الله وهي المسيح.

فلماذا هذا الانشقاق والانقسام بين اليهود إذن؟ ولماذا لا يصبحون جميعهم علمانيين؟ الجواب على مثل هذه الأسئلة هو أن اليهودية، التي كانت دائماً عقيدة عرقية تنادي بهوية قومية لشعب يعيش في الشتات، فيها عنصر ديني تحديداً ذبلت شعلته الأصلية القديمة في أزمنة «**العهد الجديد**» بحاجة إلى بعث وإحياء. ومن هنا، فالمسألة عبارة عن تمسك بشيء في اليهودية أكثر من مجرد قومية خالصة. وهذا يفسر التركيز التواق المتحمس لدى أقلية قليلة من اليهود اليوم تسمى «**الأصولية المتشددة**»، الذين يمضي بعضهم بعيداً ليصبح في عداد خصوم الصهيونية من غير اليهود.

يبقى أن الحفاظ على التلاحم الجمعي لدى شعب يعيش في الشتات بين «غرباء» يتطلب دائماً معياراً أخلاقياً مزدوجاً، جانبه الأول «**لنا**»، والآخر «**لهم**»، مجموعة أولى من الأوضاع والمواقف بين بعضنا بعضاً، ومجموعة أخرى بيننا وبين الآخرين.

إن أكبر إغراء للصهيونية لا يمكن مقاومته اليوم، وخصوصاً لدى الشباب الذين فقدوا كل شعور ديني، هو أنها دافع يثير طموح الجماعة وتبجيلها، ويحرك الشهية بفضل الإنجازات غير المسبوقة التي تم تحقيقها خلال المئة وخمسين عاماً الأخيرة.

كان لهذه الحقائق والوقائع تأثير هام على التطورات في الشرق الأوسط، حين قام الصهاينة المحتفلين بالنصر في عام 1982 باستعراض مدهش لسلطتهم وتأثيرهم، وحين وقفوا في وجه المعارضة اليهودية على صعيد لم يشهد مثله من قبل في أي مكان من العالم.

فقد لخص عنوان في إحدى الصحف بتاريخ 21 أيلول أحداث ذلك اليوم: «**قوات الولايات المتحدة تهرع لإنقاذ بيروت في حال موافقة إسرائيل**». لم تقم أجهزة الإعلام بأية محاولة للإجابة عن التساؤلات الواضحة التالية:

- لماذا يجب على الولايات المتحدة ـ الدولة التي تعتمد عليها إسرائيل بشكل كامل في تمويلها بالأموال والأسلحة ـ أن تخضع للإذلال انتظاراً ـ مثل فرنسا وإيطاليا ـ للسماح لها بإرسال قوات حفظ السلام لديها إلى لبنان؟
- لماذا لم تصدر صيحة غضب واحدة عن أعضاء الكونغرس الأمريكي ومجلس الشيوخ على الاعتداء المخيف القاسي الذي قامت به إسرائيل، مزدرية بذلك جميع الشروط التي وضعها الكونغرس والمتعلقة بالمساعدات العسكرية الأمريكية، أحدها أن هذه الأسلحة لا يجوز استعمالها إلا في الأغراض الدفاعية؟
- لماذا لم ينبس القادة الجبناء للدول الصناعية المتطورة بالفرض بحرف واحد رداً على الاستعدادات الإسرائيلية قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ثم على الغزو ذاته، وعلى عدم تقيد إسرائيل بكل وقاحة بجميع قرارات الأمم المتحدة، ناهيك عن وقاحتها ولامبالاتها بقوات حفظ السلام الدولية المتواجدة فعلاً في الجنوب اللبناني؟

على نفس الصفحة التي جاء فيها العنوان المشار إليه آنفاً، نجد عنواناً آخر يقول: «**لم تعد إسرائيل تمثل داوود، إنها الآن تمثل طالوت**»، اقتبس عبارة قالها الرئيس ريغان بعفوية غير مدروسة يصف فيها سياسة خرقاء في الشرق الأوسط كلفت الأمريكيين بلايين الدولارات، منذ قيام إسرائيل في عام 1948، وأدت الآن إلى زج القوات المسلحة الأمريكية في المعركة على أرض لبنان.

في الوقت ذاته تقريباً، أي في عام 1982، أعلن معهد الدراسات الاستراتيجية العالمي في لندن أن إسرائيل تحتل المرتبة الرابعة في العالم من حيث القدرات العسكرية، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وجمهورية الصين الشعبية. دولة صغيرة، جميع أموالها وأسلحتها تقريباً تأتي كتبرعات ومنح من الولايات المتحدة، أصبحت الآن أقوى عسكرياً من دول صناعية كبرى مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان.

ثمة تفسير واحد لا غير لحل مشكلة هذا التناقض: هو أن هناك نوعاً آخر من القدرات تأتي فيه إسرائيل بمرتبة أعلى من الرابعة في العالم. وهل هناك نوع من القدرات سوى القدرة المالية، التي تخضع لها كل القدرات الأخرى من صناعية وتجارية وسياسية؟

وهذا يعني أن إسرائيل الصغيرة، إن لم يكن من حقها أن تكون ذاتها قوة عظمى، فهي امتداد يتفرع عن إحدى القوى العظمى، شأن جميع التفرعات المتمثلة باللوبيات القوية في جميع الدول المتقدمة والتي تشارك وتؤثر في إداراتها وحكوماتها، وتسيطر بالكامل تقريباً على شبكة الاتصالات العامة والصحافة في العالم، والتي أحسن ألكساندر سولتزهينيتسين وصفها بقوله: **«إنها أقوى من السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية»**.

كان من المفهوم، والحالة هذه، أن يصبح ظهور نوع جديد من القدرة والسلطة في الغرب، متمثلاً بالصهيونية من منظورها السياسي، أحد أهم أحداث القرن العشرين التي لم يتم رصدها، فبقيت صعبة التعريف وصعبة الوصف، لكونها ـ خلافاً لكل القوى العظمى الأخرى التي سبق أن ظهرت ـ ليس لها أرض إقليمية وليس لها حدود. إن قيام دولة إسرائيل بذاته ليس أكثر من مؤشر بين عدد لا يحصى من المؤشرات الدالة على وجودها.

ومع ذلك كله، فإن بالإمكان بكل بساطة توضيح كيفية ظهور هذا النوع الغريب المختلف من القوى العظمى لأولئك الذين لا يملكون معرفة عميقة بالتاريخ، رغم أن حكاية ما حدث في منتهى الغرابة عند الكثيرين، حكاية يصعب فهمها، ويصعب أن تتكرر دائماً.

ففي القرن التاسع عشر الماضي، وحتى البواكير الأولى من القرن العشرين، ظهرت إلى الوجود سلطة مالية عظيمة على شكل تمركزات محلية تميل إلى تحقيق أهداف محلية ومقاصد قومية. ومن هنا نشأت سلطة مالية بريطانية كانت هي الأعظم لسنوات عديدة، وسلطة مالية أمريكية، وأخرى بلجيكية، وغيرها. ولم تكن هذه التكتلات المالية منفصلة بعضها عن بعض وحسب، بل كانت واحدتها في تنافس حاد مرير مع الأخريات، ويشهد على ذلك الاندفاع الاستعماري في القرن التاسع عشر نحو ما أُطلق عليه اسم الأقسام المتخلفة غير المتطورة من العالم.

الذي حدث وقتها، هو أن البيوتات المصرفية اليهودية التي عملت طويلاً في مختلف البلدان الأوروبية في تساوق وانسجام، استطاعت أن تجر كل تلك التمركزات المحلية للسلطة المالية إلى نظام مالي دولي أو عالمي واحد، يسيطر عليه اليهود ويأملون بأن يتمكنوا من تحويله إلى سلطة سياسية عالمية واحدة.

إن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا. تبدو جميعاً مع غيرها وكأنها أمم ودول منفصلة ومستقلة، ولكن دعونا لا ننخدع، فقد أضاعوا جميعاً استقلالهم الاقتصادي، وهم خاضعون لسلطان سحر ساحر حكيم تحركهم سلطة مالية عالمية واحدة.

إحدى السمات التي تجعل من هذه القوة العظمى الجديدة مختلفة عن جميع سابقاتها، هي أن تأثيرها المسيطر نابع من كونها تمارس عبر العقل، ولهذا فهي تعتمد على التضليل والخداع، ومن هنا فهي لا تحتمل الانفتاح والوضوح والصدق والأمانة في عملياتها وتوجهاتها ونواياها. ولهذا أيضاً فإن منبع قوتها هو ذاته منبع عجزها ونقطة الضعف لديها، وهذا بدوره يفسر سبب هياجها ولجوئها أحياناً إلى العنف حين تنكشف الستارة الورقية التي تغطي زيفها.

ضخمة هي، وكثيفة ومستمرة، المعلومات المشوهة المحرفة التي تصف الوضع في الشرق الأوسط، إلى حد أصبحت الصورة معه في أجهزة الإعلام لا تكاد تشبه حقيقة ما يجري.

إن التطورات في الشرق الأوسط، بما فيها اجتياح لبنان، والاستيلاء، على مرتفعات الجولان من سورية، واحتلال الشريط الساحلي لغزة والضفة الغربية في الأردن، ذات أهمية عظيمة، لأنها تمثل ــ مع ردود أفعال القوى العظمى عليها ــ صورة مصغرة لمجمل عصر النزاع الذي نعيشه.

ومن الواضح، حين يندفع قادة إسرائيل بجيش قوي في لبنان، غير مبالين بكل فظاظة بقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام التي تدعمها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، يعرفون بالتأكيد أنه ليس ثمة ما يخافونه من جانب هاتين القوتين العظيمتين، وليس ثمة ما يخافونه على الإطلاق من جانب الأمم المتحدة.

لم يبق ثمة ما يخشاه الإسرائيليون من جانب الاتحاد السوفييتي هذه المرة، ألم يكن الاتحاد السوفييتي هو الوحيد الذي مدَّ إسرائيل بالأسلحة خلال معارك 1948، التي انتهت بطرد ما يقارب مليون مواطن فلسطيني من أرضه إلى الصحراء أو إلى المنفى في الدول العربية المجاورة؟ أم لعل أولئك القادة الإسرائيليين نسوا دهشة العرب بعد حرب الأيام الستة عام 1967 وهم يرون المندوب السوفييتي في الأمم المتحدة يصوّت مؤيداً المندوب الأمريكي داعياً إلى وقف إطلاق النار بلا شروط تنص على انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية التي استولوا عليها.

المعارضة الوحيدة التي واجهها مناحيم بيغن في تلك الأيام جاءت من جانب الأقلية الأصولية في إسرائيل، التي قام أفرادها بمظاهرة في تل أبيب مطالبين باستقالته*.

حتى الدكتور ناحوم غولدمان، الذي أمضى سنوات عديدة رئيساً للمؤتمر اليهودي العالمي وللمنظمة الصهيونية العالمية، وكرّس حياته للدفاع عن مصالح الشعب اليهودي، وقف مؤخراً موقفاً سلبياً تجاه إسرائيل وقادتها.

إن ما تراه الغالبية العظمى اليهودية الإصلاحية نصراً يحتفل به للقومية اليهودية في الشرق الأوسط، يعتبره كثير من الأصوليين اليهود، وبخاصة من يعيش منهم في إسرائيل الحالية، انحلالاً مدمراً لليهودية كدين، وأسلوباً في حياة الجماعة اليهودية يصعّد العدوانية في كل أنحاء العالم ضد اليهود على مستويات وأبعاد لم يسبق لها مثيل.

---

* انسحب بيغن من حكومة غولدا مائير عندما قبلت بمشروع روجرز، لمعارضته الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة آنذاك. — الناشر —

الفصل 14

خلف الكواليس مع الدكتور غولدمان

لم يكن بوسع الدكتور ناحوم غولدمان أن ينتقي لكتابه أفضل من عنوان «**التناقض اليهودي**»[1].

ما هو التناقض؟ تعريف التناقض في معجم أوكسفورد الوجيز متناقض بذاته إلى حد ما، يوضح أن التناقض إما أن يكون «**أمراً سخيفاً منافياً للعقل في ظاهره رغم احتمال كونه مبرراً بشكل راسخ**» أو أن يكون «**متناقضاً بذاته، سخيفاً منافياً للعقل في جوهره**»، ولك أن تختار بينهما. إن القسم الأول من كلمة «**paradox** **التناقض**» جاء من اليونانية، وتعريفه في المعجم لا يحمل أياً من المعنيين المذكورين، فهو يعني: «**بجانب ومحاذاة**»، «**وراء**»، «**خطأ**»، «**شاذ غير نظامي**».

إلا أننا نستطيع أن نتعلم المزيد عن معنى التناقض من الطريقة والسياق الذي تستخدم فيه هذه الكلمة من وقت لآخر من قبل أصحاب الخبرة والمهارة، من أمثال المرحوم جورج برناردشو والدكتور ناحوم غولدمان.

التناقض ببساطة ـ كما أوضحه الخبراء ـ هو الحقيقة مقلوبة، واقفة على رأسها. فالكاتب يعمد في شد الانتباه لما يريد قوله إلى وضع عبارة مثيرة بارزة بسخفها ومنافاتها للعقل، لكنه يخفي وراءها حقيقة هامة يندهش لها القارئ أو السامع. فالعقل يجفل فزعاً في البداية ثم يغمره النور فجأة فيفهم.

ويمكن استخدام التناقض من أجل مقاصد عديدة ومختلفة، كما فعل الدكتور غولدمان في كتابه حين استخدم نوعاً من أنواع التناقض المزدوج. وكذلك إجفال العقل ثم تنويره من حيث هو كلمات تستخدم ببراعة متناهية

---

[1] «التناقض اليهودي» وايدينفيلد ونيكولسون 1978.

لتنوير القراء، بينما في الوقت ذاته تدفع بقراء آخرين إلى غياهب الجهل وأعماق التشويش.

ولكنّ، من هو الدكتور ناحوم غولدمان؟ إنه باختصار اليهودي الأول في العالم، فقد جمع لسنوات عدة بين رئاسة المؤتمر اليهودي العالمي ورئاسة المنظمة الصهيونية العالمية. إنه الناطق الرسمي باسم يهود العالم، مع جميع قادة العالم، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية.

غولدمان نفسه عبارة عن تناقض يمشي على قدمين، وقف حياته بعد البلوغ على تحقيق النبوءة التوراتية عن عودة لليهود إلى فلسطين، معلناً بكل صراحة قائلاً:

أنا لست يهودياً أصولياً... لقد أقلعت عن التدين بمعناه التقليدي منذ أن كنت في السابعة عشرة من العمر، بمعنى أنني تركت الحفاظ على التعاليم والشعائر من اقتصار على أكل الأطعمة غير المحرمة وذهاب إلى المعبد....

ومن الواضح الثابت أن هناك يهوداً كثيرين آخرين نفروا وابتعدوا عن الدين الأصولي الأصلي، بدلالة أن غولدمان يقول:

العلاقات بين الدولة والدين تشكل إحدى أهم الإشكالات التي لا حلَّ لها في إسرائيل، حيث الفصل بينهما يؤدي إلى تقسيم السكّان بين مؤمنين وكافرين...

وبعد أن يعلمنا أن اليهود ليسوا جميعاً مؤمنين متدينين، يمضي غولدمان ليقول لنا إنهم متفقون موحدون حول الإيمان بأن الاستيلاء على فلسطين من العرب مبرر لأسباب دينية.

ما وجب على غولدمان أن يقوله حول «**الهوية اليهودية**» يذكِّرنا بالممرات المتعرجة للمتاهة الكريتية التي استطاع البطل الأسطوري تيسيوس أن ينجو بنفسه منها بفضل خيط مرشد أعطته له أريادن ابنة ملك جزيرة كريت. يقول غولدمان تمهيداً للدخول في متاهة «**الهوية اليهودية**»:

أذكر أنني ألقيت محاضرة عندما كنت طالباً قدمت خلالها أكثر من عشرين تعريفاً: اليهودية دين، اليهودية شعب، اليهودية أمة، اليهودية جماعة ثقافية، وغيرها من التعاريف، ليس فيها تعريف دقيق صحيح... فحجر الأساس

لدى البعض هو الدين، ولدى آخرين هو عظمة شعب أعطى العالم التوحيد والأنبياء وسبينوزا وماركس وفرويد وأينشتاين والعديد من العباقرة الآخرين. أما لدى غيرهم فهو احترامهم للمعاناة والآلام اليهودية في الماضي والحاضر التي تعتبر ملاطاً يرص صفوف وحدتهم.

ثم يرفض غولدمان تعريف جان بول سارتر، أحد أخلص المدافعين عن اليهود، «**اليهودي هو أي إنسان يعتبره الآخرون يهودياً**» لأن مثل هذا التعريف يفيد في إثبات أن سارتر لم يكن يهودياً[1].

إن التناقض، بشكل أو بآخر، أن تضم قائمة العباقرة اليهود شخصاً مثل سبينوزا، الملعون المحروم من قبل مجلس الحاخامات في أمستردام عام 1632. يقول دوغلاس ريد:

لقد أنزلوا عليه جميع اللعنات المكتوبة في التوراة، فهو ملعون في الليل وملعون في النهار، ملعون في ذهابه وملعون في مجيئه، لا يجوز لمخلوق أن يكلمه، ولا لمخلوق أن يكتب له، ولا لمخلوق أن يظهر له أي عطف[2]...

من جانب آخر، فالزعم بأن اليهود قدموا التوحيد للعالم لا تناقض فيه، لكنه ببساطة كذب وبهتان، لأننا نقرأ في «**كتاب الموتى**» المصري القديم، الذي يعود تاريخه إلى عام 2600 قبل الميلاد تقريباً:

أنت هو الواحد الأحد، الإله منذ بدء البدء في الزمان، أنت الوارث الذي لا يفنى، تلد ولا تولد، أنت خالق الأرض وصانع الإنسان... (ترجمها إلى الإنكليزية عالم الآثار المصرية واليس بادج البريطاني).

ويمضي غولدمان قائلاً:

لقد تألف الفكر اليهودي والفلسفة اليهودية من عدد من التناقضات المتشعبة، أحدها أننا ـ في آن معاً ـ أحد أكثر الشعوب انفصالية وأكثرهم شمولية وخلاصاً في العالم.

ثم يستشهد، لدعم عبارته التقريرية هذه، بعبارة من التلمود تقول: **«الإيمان والهدى مثل صخور الأرض، ثقيل على حامله».**

---

[1] من كتاب «التناقض اليهودي» لغولدمان، وانظر أيضاً الفصل الثالث السابق «مشكلة الهوية».

[2] «تناقض صهيون» تأليف دوغلاس ريد، ص101، كما وردت في حكم اللعن والحرمان الصادر عن مجلس الحاخامات في أمستردام عام 1632.

إلا أن لديه بعض العبارات تريح ونطمئن أولئك الذين يخشون ألا يكونوا بين من اختارهم «**الرب اليهودي**» ـــ حسب تعبير غولدمان ـــ، يقول:

تلك هي السمة المميزة العظيمة لشعبنا، التي تجعلنا بمعزل عن الباقين، لكننا في الوقت نفسه مقدر لنا أن ننجز مهمة تشمل العالم كله، وأن نكون خدماً للبشرية..

والتناقض هنا يتركز في كلمة واحدة هي «**خدماً**»، التي تصبح ـــ حسب مقلوبها ـــ «**حاكماً**». إذ هل هناك حاكم، مهما بلغ استبداده وفساده، لا يعتبر نفسه خادماً ومحسناً لشعبه؟

هناك ما هو أكثر من ذلك في المجال ذاته. ففي نفس الفقرة من المقدمة المقتطفة آنفاً يقول «**اليهود أكثر الشعوب انفصالية في العالم، يقوم دينهم بأكمله على اعتقادهم بأنهم الشعب المختار**». ويقول أيضاً إنه ليس هناك دين آخر «**يعلن أن جميع الأعراق والطبقات متساوية أمام الله**». وهذا يعني بعبارة أخرى «**إن جميع الحيوانات متساوية، لكن بعضها متساوٍ أكثر من الآخرين**»، ويعني أنه لابد من وجود تميز خارق في النوعية لدى أولئك الجديرين بأن يكونوا «**مختارين**».

ليس ثمة بالطبع أي ذكر في كتاب غولدمان لحقيقة أن أولئك الذين يسمون أنفسهم يهوداً اليوم لا علاقة لهم بيهود التوراة والإنجيل، فهم سلالة مغولية ـــ تركية، وأحفاد خزر جنوب روسيا الذين اعتنقوا اليهودية خلال القرن الثامن الميلادي.

لو أننا ـــ بدلاً من السير وراء الدكتور غولدمان في كهوف متاهة «**مقولته الثورية**» عن شعب يهودي تحول دفعة واحدة إلى «**انفصالي وعالمي**» ـــ حاولنا أن نمضي قدماً عبر نفق يملؤه النور في هذا الجبل الهائل من المتناقضات، فماذا نجد؟

سنجد أن اليهود عبارة عن شعب شوفيني متعصب شرقي الأصل، تعلم أفراده كيف يحافظون على وحدتهم وتماسكهم رغم تبعثرهم جغرافياً، وهو درس تعلموه خلال الأسر البابلي ثم تعمق واتسع مع مر القرون ليصبح محور التعاليم في التلمود. وبفهمنا لهذه الحقيقة الواقعة نضع أيدينا على مفتاح يفتح أمامنا كل ما يمكن تصوره من مغاليق «**التناقض اليهودي**».

إن التنافس القومي يدفع حتماً ـ حسبما أوضح البروفسور السير آرثر كيث ـ إلى ممارسة معيارين أخلاقيين توأمين، الأول باطني داخلي والثاني ظاهري خارجي. الأول «**لنا**» والثاني «**لهم**».

والمدهش أن الدكتور غولدمان صريح في هذا الموضوع أيضاً، إنما ـ طبعاً ـ بذات الطريقة المتضادة المتناقضة. ومن هنا، يقتبس هذا الرجل، الذي يفخر بأنه يحمل ثمانية جوازات سفر وثمان جنسيات لبلدان مختلفة، عبارة له في إحدى المقابلات مع دين أتشيسون وزير خارجية الولايات المتحدة، يقول فيها: «**اسمع يا سيد أتشيسون إنني أتحدث إليك الآن ليس بصفتك يهودياً، بل بصفتك أمريكياً، فأنا مواطن أمريكي**».

ثم يمضي غولدمان في كتابه بعد ذلك، ليتحدث عن تأثيره على قادة السياسيين الغربيين فيقول:

> *قد يتحول الإغواء إلى عاطفة حب وشغف. فحين يقوم إنسان بإغراء امرأة، قد تثور عواطفه وتشتد، لكن إغواء السياسيين أمر مختلف وإن كان قريباً منه. وحين أقنعت دين أتشيسون بقبول فكرة تقسيم فلسطين، رغم قناعاته الراسخة بمعاداة الصهيونية، شعرت بالابتهاج... كان نجاحاً يجعلك تشعر أنك أذكى من خصمك.*

إنه يستخدم هنا ـ بالطبع ـ المعيار الأخلاقي الظاهري الخارجي، في تعامله مع وزير خارجية الولايات المتحدة على أنه عدو، لابد من أن يتفوق عليه بالحيلة والدهاء وأن يهزمه.

لكن الدكتور غولدمان لم يكن ـ بالطبع ـ بحاجة لأن يكون «**أذكى**» من خصمه. كل ما كان عليه أن يفعله، هو أن يضع دين أتشيسون تحت وطأة ضغوط من قبل اللوبي الصهيوني الأمريكي لا يمكن مقاومتها.

وهناك أمثلة لا تحصى عن الممارسات التي وصفها ليون أبراموفيتش، في مقدمة لكتاب غولدمان يكيل فيها له المديح، بأنها «**مجموعة توليفية من التأمل والتدبر الحكيم والتواضع والدهاء الماكر**». ومن هنا نفهم كيف توصل الرئيس ترومان «**الرجل البسيط المستقيم الذي يضرب المثل بصدقه**» إلى قرار تاريخي عالي الأهمية «**خلافاً لنصائح جميع مستشاريه، عدا واحد منهم كان يهوديا**». قال ترومان: «**إن أصدقائي يهود، واليهود يريدون التقسيم، فليكن لهم ما يريدون**».

إن من الصعب العثور على كتاب آخر يعلمنا المزيد عن طريق السلوك عند القوى السياسية الحديثة، ويقدمها لنا بشكل نحتاج معه إلى فن ترجمة المتناقضات بلغة إنكليزية مبسطة ومباشرة. يكتب غولدمان قائلاً:

كنت ألاحظ خلال حياتي كلها شيئاً واحداً بالذات، هو أن الدبلوماسيين دائماً ضد مسألة إحياء إسرائيل وانبعاثها، وأن كبار السياسيين يؤيدونها. فلولا بلفور ولويد جورج وويلسون، ما كان بوسعنا أن نحصل على وعد بلفور عام 1917 وما نشأ عنه. كانت جميع الهيئات الوزارية معادية للمشروع، وجميع المؤسسات التنفيذية قالت: إنه أمر لم يسمع به أحد من قبل.

إن ما نستنتجه من هذا التناقض اللغوي بعد ترجمته، هو أن من الأسهل «**إغواء حفنة من كبار المسؤولين**» الذين يعتمدون على أصوات اليهود في الانتخابات، وعلى الدعم اليهودي لهم مالياً وإعلامياً، بدلاً من إغواء مئات من الناس في المراتب الدنيا من السلطة، الذين ليس لديهم ما يكسبونه مقابل تخليهم عن احترامهم لأنفسهم، والذين يصعب ـــ في كل الحالات ـــ على من يريد إغواءهم الوصول إليهم.

ثمة مناهج وأساليب أخرى ـــ يعلمنا بها غولدمان بافتخار غير مخفي ـــ تم استخدامها لإقناع ليندون جونسون، تضمن له الحصول على مليوني دولار لصالح وكالة التطوير الدولي (AID) على شكل قرض منخفض الفائدة من أجل تمويل مشروع «**الموسوعة اليهودية**». يقول غولدمان:

كان أحد أصدقاء ليندون جونسون يهودياً بولندياً اسمه جيم نوفي... وكان أميناً للصندوق في الجمعية التي تمول حملته الانتخابية للرئاسة، مفوضاً بالدخول إلى البيت الأبيض ساعة يشاء ليلاً أو نهاراً، ومفوضاً حتى بأن يبيت هناك، كما يبيت في أي فندق.

ثم يمضي غولدمان مرة أخرى ليحدثنا كيف استطاع ـــ وهو شاب في ليتوانيا ـــ أن يتجنب التجنيد في الجيش:

من حسن الحظ، كان هناك قانون يعفي «الأبناء الوحيدين» من الخدمة العسكرية، وكان ثمة حاخامات في التجمعات اليهودية يسجلون المواليد. وحين صار لأبي ثلاثة أبناء، تم تسجيلهم في السجلات تحت أسماء مختلفة.

(تلك هي ترجمة مقولة «ما هو خير ومفيد لنا، ليس خيراً ومفيداً لهم»).

أما في موضوع الاتحاد السوفييتي، فإن غولدمان يقدم لنا بعض الاعترافات الطريفة قائلاً:

بعد ثورة عام 1917، كانت هناك حركة ثقافية مركزة باللغتين: اليديشية والعبرية. فلا يجوز أبداً أن ننسى أن المسرح القومي الإسرائيلي الحالي (هابيما) تأسس ونشأ في روسيا.

ثم يقتطف مستشهداً بقول لبن غوريون، بأن الفضل في وجود إسرائيل يعود إلى الاتحاد السوفييتي أكثر مما يعود إلى الولايات المتحدة. وحول مسألة أن إسرائيل «**معقل**» المقاومة الغربية في وجه التوسع السوفييتي في الشرق الأوسط يقول غولدمان:

لو لم تبق لدى الروس اليوم أية مصلحة في وجود الدولة اليهودية، لكان ذلك تناقضاً. لأن إسرائيل هي التي حققت لهم نصراً سياسياً انتظروه لمدة قرون، مكنهم من كسب موطئ قدم لهم في الشرق الأوسط.

كتاب غولدمان خزانة كنوز مثالية للمتناقضات. فهو يحدثنا عن أن «**إسرائيل هي أكثر بلدان العالم محافظة واعتدالاً**» وأن «**اليهود ثوريون لصالح الشعوب الأخرى وليس لشعبهم**». وهذا تناقض يعني بعد ترجمته أن الشعوب الأخرى تستخدم لصالح المقاصد الثورية اليهودية.

اليهود ــ كما يحدثنا غولدمان ــ هم أول من يعمل ضد التمييز والتعصب ...

في الولايات المتحدة مع الزنوج، في البلدان الكاثوليكية مع البروتستانت، وفي البلدان البروتستانتية مع الكاثوليك. أي بعبارة أخرى، في كل مكان يوجد فيه تمييز وتعصب. فللأقلية كل الحق في أن تكون لها ــ مثلاً ــ مدارسها الخاصة بها.

والتناقض هنا يكمن في أن للأقلية الحق في الحفاظ على الهوية، والحق في أن يكون لها مدارس، أما الأكثرية فلا.

ثمة موضوع طريف آخر. فهناك أعداد لا تحصى من الكاثوليك يعرفون أن التدخل الخفي الذي مارسه الدكتور ناحوم غولدمان على الفاتيكان هو السبب في أن هناك الآن:

لجنة مؤلفة من أعضاء كاثوليك ويهود، تجتمع ثلاث مرات في كل عام لشطب أو تعديل المقاطع المثيرة للخلاف والجدل في مختلف الكتب الكاثوليكية. بدءاً من كتب التعاليم للمراحل الابتدائية وانتهاءً بكتب النصوص المقررة في الجامعات والمعاهد اللاهوتية. مروراً بشكل خاص بشعائر القربان المقدس والجمعة الحزينة.

ونتساءل بالتأكيد: ما الذي فعلوه بالعهد الجديد الأكثر إثارة للجدل والخلاف بين الكتب كلها على الإطلاق؟ لكن الدكتور غولدمان لا يحدثنا عنه.

ذروة التناقض هنا هي إسرائيل ذاتها الموجودة كما هي الآن، فالدكتور غولدمان لا يؤمن بها، ويرى أنها يجب أن تكون شيئاً آخر مختلفاً، شيئاً يقبله حتى العرب. يحكي لنا غولدمان أن بن غوريون ذاته كان متشائماً إلى أبعد الحدود حول قدرة الدولة الجديدة على البقاء، فيقول:

لماذا يجب على العرب أن يسعوا إلى السلام؟ لو أنني زعيم عربي لما أقمت معاهدات مع إسرائيل، وذلك أمر طبيعي. فقد استولينا على بلدهم. صحيح أن الرب وعدنا بها، لكن ذلك لا يعني عندهم شيئاً، فربنا غير ربهم.

الفصل 15

التجارة الضخمة السرية في الاتحاد السوفييتي

أحد أهم أسرار الاتحاد السوفييتي، المحروسة بكل غيرة وعناية بعيداً عن الشعوب غير الشيوعية في العالم، هو الامتيازات العالية التي تمتعت بها الأقلية اليهودية خلال سبعين عاماً تقريباً بعد الثورة. ومع حلول عام 1981 فقط أصبح معروفاً في الغرب أن الملكيات الخاصة للأنشطة التجارية والصناعية استمرت في الاتساع والازدهار، وأنها جميعاً تقريباً بأيدي مواطنين يهود.

حكاية أصحاب الملايين والثروات السرية في روسيا رويت لأول مرة بتاريخ 29 حزيران 1981، حين نشرتها مجلة «**فورتون**» الفخمة الغالية والأخت التوأم لصحيفة «**تايم**» برئاسة كونستانتين سيميز، أحد خبراء القانون الدولي في وزارة العدل السوفييتية، المقيم حالياً في الولايات المتحدة.

«**كيف تنجح في التجارة في بلدٍ التجارة فيه جريمة**» كان هذا هو العنوان الرئيسي الثاني على غلاف مجلة «**فورتون**» الكتاب من تأليف سيميز سيصدر للنشر قريباً. يقول سيميز:

الجميع يعرف أن الدولة السوفييتية هي المالك الوحيد لكل أدوات الإنتاج، وأن المشاريع الخاصة جريمة. لكن الحقيقة الجديرة بالملاحظة هي أن في الاتحاد السوفييتي العديد من المشاريع الخاصة التي تعمل وتجني أرباحا طائلة. إنها في الواقع شبكة من المعامل تديرها إدارات خاصة تنتشر في كل أنحاء البلاد، وتنتج سلعاً وبضائع بملايين ـ إن لم نقل ببلايين ـ الروبلات.

ثم يمضي سيميز قائلاً إن المشاريع الخاصة لا يمكنها ـ لأسباب واضحة ـ أن تتعامل بأصناف مثل السيارات والآلات، وعليها أن تركز على أصناف من النوع الذي يطلبه الناس ويستطيعون شراءه، كالملابس والأحذية والسلع المصنوعة من الجلد الصناعي والنظارات الشمسية ومجوهرات تزيين الثياب وتسجيلات الموسيقى الغربية الشعبية وغيرها..

ولكن كيف استطاعوا ترتيب الأمور لذلك في بلد تحكمه بوليسية صارمة من قبل لجنة الأمن السوفييتية (KGB) التي تشجع كل مواطن في البلد للتجسس على جاره؟ ويعطينا سيميز الجواب قائلاً في قسم منه:

كان لابد للمشاريع الخاصة أن تحمل اسم معمل تابع للدولة وأن تعمل تحت غطائه، لأنها لا تستطيع بغير ذلك أن تعمل. ضمن هذه العلاقة التكافلية تنتج معامل الدولة البضائع اللازمة حسب الخطط الموضوعة من قبل الدولة. هذه البضائع تندرج في كتالوكات المعامل ويتم توزيعها عبر القنوات التجارية لبيعها. إنما إلى جانب هذه البضائع النظامية الرسمية، يقوم المعمل ذاته بإنتاج سلع غير مسجلة في أي من الوثائق والمستندات.

وليس ثمة سبب يدعونا للاعتقاد بأن أمثال هذه المشاريع الخاصة قد اختفى من الوجود في الاتحاد السوفييتي مع مجيء «**البيريسترويكا**». البضائع من النوع الأول يطلق عليها اسم «**المعدة للتسجيل**»، أما البضائع المغلفة بالغموض والسرية فتحمل اسم «**النخب الثاني**»، ويحكي لنا سيميز ليس فقط عن عشرات الألوف من أمثال هذه المعامل في كل أنحاء الاتحاد السوفييتي، التي تجمع معظمها في المدن الكبرى مثل موسكو وأوديسا وتيفليس وريغا وطاشقند، بل أيضاً عن شبكات التوزيع الواسعة التي تقوم على تجارة سلع من النخب الثاني تبلغ قيمتها بلايين الدولارات في العام.

ثمة «**شركة**» واحدة ورد ذكرها، هي جزء من «**إمبراطورية غلاتزينبورغ**»، التي تملك عدداً كبيراً من المعامل إلى حد أنها وجدت نفسها مرغمة على إنشاء مجموعة تسويق خاصة بها تقوم بتنظيم وإدارة منتجاتها الخاصة في 64 بلداً ومنطقة، إضافة إلى جميع المنتجات الأخرى التي تزودها بها الدولة.

فمن هم رجال الأعمال الجريئون النشيطون الذين يبدون كأنهم يلبسون «**طاقية الإخفاء**»؟ يقول سيميز:

لأسباب تاريخية، كانت التجارة السرية الداخلية في المدن الروسية الكبرى والأوكرانية وجمهوريات البلطيق تحت الهيمنة اليهودية. ومع أن زبائني بعضهم من جورجيا وأرمينيا وغيرهما، إلا أن الأغلبية كانوا يهوداً مثلي.

فما هي هذه «**الأسباب التاريخية**»؟ يقول سيميز إن اليهود الروس، الذين تعرضوا للتمييز العنصري من قبل النظام القيصري، تحرروا على يد الثورة البولشيفية، ثم ألقوا بأنفسهم بحماس في مجالات الحياة التي كانت مغلقة أمامهم في السابق من علوم وفنون وآداب وغيرها. ثم يحكي لنا كيف أن ستالين، خلال وبعد الحرب العالمية الثانية، انقلب على اليهود، فاضطر كثير منهم إلى أن يبحثوا لأنشطتهم عن مردود في «**تجارة سرية**».

لكن سيميز يحكي لنا في مكان آخر من مقاله عن شخص اسمه اسحق باك، انطلق في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين لتأسيس مجموعة شركات، أصبحت في الأربعينيات (حين كان ستالين في ذروة سلطانه) تملك «**دزينة معامل على الأقل تنتج الألبسة الداخلية، والهدايا التذكارية، والسلع الرخيصة الصغيرة كالدبابيس والإبر والعصائب، وتدير في الوقت ذاته شبكة من المحال التجارية في جميع جمهوريات الاتحاد السوفييتي**».

بعض هؤلاء المتعهدين اليهود، بما فيهم باك وواحد من ثلاثة من الإخوة غلاتزينبورغ، تمت محاكمتهم وسجنهم، إنما لم يكن ذلك كافياً لردع البقية. فتقرر ــ كما يقول سيميز ــ التضحية بالشاب لازار غلاتزينبورغ، الذي كانت مهمته الدفاع عنهم أمام المحكمة:

> *يعود هذا القرار ــ في أحد جوانبه على الأقل ــ إلى أسلوب حياته الماجن المستهتر، الذي انعكس على تزيينات ملابسه الفاخرة وعلى خزائن ثياب زوجته...*

ورغم أن المشاريع التجارية الخاصة كانت دائماً وعلناً تعتبر في الاتحاد السوفييتي أحد أخطر أشكال التخريب، لكونها تتناقض مع الاشتراكية الماركسية، فليس هناك أي ذكر لهذه الطبقة من كبار المسيئين بين مئات الحالات الفردية التي بحثها ألكساندر سولتزهينيتسين في المجلدات الثلاثة من كتاب Gulag Archipelago. والواقع أن سولتزهينيتسين نادراً ما ذكر المساجين اليهود بأسمائهم، بينما شاعت عنده أسماء اليهود بين قادة معسكر السخرة أمثال: آرون سولتز وياكوف رابابورت وماتفي بيرمان ولازار كوغان، وأهمهم وأبرزهم على الإطلاق نافتالي فرينكل، الذي يقال إنه العقل المدبر لعملية معسكرات السخرة.

كما لم يذكر أيضاً أسماء كبار رجال الأعمال في المحاكمات الشهيرة التي سمح للإعلام الغربي أن يرصدها ويحولها إلى مسرحيات مأساوية، ويوظفها في خدمة خصوم ستالين اليهود ومنافسيه في الصراع على السلطة داخل الحزب الشيوعي على مدى عقدين من الزمن بعد الثورة البولشيفية.

السؤال التالي هو: لماذا يقتصر هذا النوع من الأنشطة ـــ بما فيه من أرباح هائلة وأخطار ـــ حصراً على المواطنين اليهود في الاتحاد السوفييتي؟ يجيب سيميز على الجانب الهام من السؤال قائلاً:

الشعور بالهوية القومية بين اليهود العاملين في التجارة السرية شعور قومي، أقوى بكثير من مثيله بين النخبة المثقفة من اليهود السوفييت. فقد لا يوجد بينهم كثيرون يفهمون ما تعنيه الصهيونية، وقليل منهم مستعد للتخلي عن ثروته والهجرة إلى إسرائيل. إلا أنني لم أصادف أحداً يختلف في مصير ذلك البلد، ولا يشعر نحوه برابطة دم ونسب. ولم يدهشني أن التجارة السرية ـــ خلال حرب الأيام الستة ـــ في العديد من المدن تبرعت بمبالغ ضخمة من الدولارات لإسرائيل، من الدولارات وليس من الروبلات.

وبوسعنا أن نؤكد أن زعماء التجارة السرية هؤلاء استفادوا من ظرف آخر، كشف لنا عنه سيميز قائلاً:

.. ومع ذلك، فقد انضم بكل حماس العديد من أصحاب المشاريع التجارية السرية من مختلف الأعمار إلى الحزب الشيوعي، مدفوعين بدوافع عملية بائسة: هي تعزيز نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية والحصول على درع ـــ عدا ما توفره لهم الرشوة ـــ يحميهم من التقديم للمحاكمة على يد الـــ DCMSP.

يبدو أن سيميز نسي ما قاله لنا قبل فقرات قليلة، من أن اليهود كانوا مضطرين للجوء إلى التجارة السرية بسبب التمييز العنصري الذي أبعدهم عن الحزب وعن وظائف الدولة.

يشرح لنا سيميز كيف كانت دواليب صناعة «**النخب الثاني**» يتم تزييتها بالرشاوي. فقد كان يتم رشوة العمال ذوي الياقات الزرقاء في المعامل، إضافة إلى ما يحصلون عليه من دخل معفى الضريبة، كي يعملوا لحساب المتعهد الخاص وأفواههم مقفلة. وكذلك الأمر مع موظفي الذاتية ومراقبي العمال. أما

المسؤولون الكبار فكانت تدفع لهم رشاوى أكبر، إذ كانت مهمتهم تحديد نوعيات وكميات ومواصفات البضائع التي يجري تصنيعها للدولة، وتسليم المتعهد الخاص المواد الأولية اللازمة له على شكل فضلات فائضة لا تدخل في السجلات. وأما أكبر الرشاوى على الإطلاق فكانت تذهب إلى مسؤولي الـ DCMSP، الذراع اليمنى للجنة الأمن السوفييتي (KGB)، الذين كانت مهمتهم الأولى «**محاربة سوء استخدام الممتلكات السوفييتية**».

يبدو أن أصحاب التجارة السرية الذين ألقي القبض عليهم وعوقبوا، هم من الذين أصبح القائمون بأعمالهم مكشوفين، مثل شخص يدعى غوليدزيه «**كان يملك منزلين غاية في الفخامة، مؤثثين ومزينين بالتحف الأثرية التي اشتراها من عملائه في موسكو ولينينغراد، يستقبل فيهما المسؤولين ويستضيفهم على مآدب وحفلات تمتد لساعات ...**».

يحاول الزعماء السوفييت ألا يتباهوا كثيراً وهم يخفون معظم ثروتهم على شكل قطع أجنبي وأحجار كريمة ومعادن ثمينة وذهب. ويحكي لنا سيميز عن صالون أليزابيث ميركين الذي اشتهر في موسكو خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، يستطيع رجال الأعمال من ذوي الأعمار المتوسطة أن يحصلوا فيه على وجبات فاخرة، مع شعور غامر بالثراء وهم يخسرون مبالغ ضخمة على طاولات الورق والروليت. ويتساءل سيميز بأسلوب بلاغي منمق «**ولكن ما هي نهاية ذلك كله؟**» ويقول:

> *المتعاملون بالأحجار الكريمة في موسكو وطاشقند وريغا وغيرها من المدن يتابعون عملهم بكل جد وإتقان حتى اليوم، مالئين الخزائن الخفية لأصحاب الملايين السريين بسلعهم. هذه الخزائن التي أصبحت كنوزاً هائلة تعادل كل غنائم القراصنة في البحر الكاريبي. ولكن، ماذا عن أصحابها؟ وما الذي ينتظرونه؟ هل ينتظرون مستقبلاً خرافياً يستطيعون فيه استخراج ثرواتهم ليستمتعوا بها؟ أم ينتظرون انهيار النظام في الاتحاد السوفييتي؟.*

ماذا يعني هذا؟ وكيف يمكن تفسيره وحل تناقضاته؟ يبدو أن سيميز ذاته لا يعرف، لأنه يترك كثيراً من الأسئلة الملحة دون جواب.

إذا ما طمعنا بالوصول إلى المعنى الحقيقي النهائي لقصة سيميز، فعلينا أن نتسلح بالخبرة التي تعلّمنا أننا هنا ــ بمهاراتنا التحقيقية ــ أمام منطقة بلغ

فيها التشويه والتزييف والتكتم أقصى درجاته، وأن أدوات التضليل والخداع المستعملة نتاج مئات بل آلاف السنين من الممارسات والخبرات المتراكمة.

من الواضح أن مجلة «**فورتون**» في نقدها للكتاب اعتمدت على النسخة الخطية الأصلية منه، أو على إحدى «**بروفاته**»، لأن الكتاب حين صدر، جاء خالياً نظيفاً من العديد العديد من النقاط التي استهدفها النقد ووردت فيه.

فكيف، إذن، يمكن لك أن تنجح بالتجارة في بلد التجارة فيه جريمة؟ من الواضح أنه لابد لك أولاً من أن تكون مقبولاً كعضو فيما يسميه سيميز وحدة يهودية سرية يجمعهم شعور بالهوية القومية. وكان هؤلاء في معظم الحالات يحتلون فعلياً مناصب مدراء في مشاريع الدولة، ويتشاركون في ذلك الشعور بالهوية القومية مع الرجل الذي ظل لسنوات عديدة رئيساً للمجلس الاقتصادي في الكريملين، وقيصراً لجميع الأنشطة التجارية والصناعية في الاتحاد السوفييتي. إنه فينيمين ديمشيتز في منصب شغله في السابق منذ عصر الثورة لازار م. كاغانوفيتش، الذي كان يهودياً وأخاً لزوجة ستالين. إضافة إلى سلسلة من اليهود ترأسوا الشرطة السرية المخيفة تحت اسم تشيكا Ckeka في البداية، ثم تحت اسم لجنة الأمن السوفييتي KGB فيما بعد.

ثمة نبذة عن حياة المؤلف في مقال مجلة «**فورتون**» تحكي لنا أن سيميز عمل في عام 1953 كمحامي دفاع عن عشرات رجال الأعمال السريين المشاهير، ثم تخلى عن عمله هذا في عام 1971 لينضم إلى وزارة العدل كخبير في القانون الدولي. وفي عام 1976 داهمت لجنة الـــ KGB شقته وصادرت مخطوطة عن الفساد السوفييتي، الذي وصلت مسودته إلى أيدي أحد الناشرين الأمريكيين. ثم قيل لسيميز وزوجته المحامية دينا أنهما إن لم يغادرا الاتحاد السوفييتي فسيتم إرسالهما إلى معسكر الأعمال الشاقة.

لم يكن صعباً على سيميز أن يعتبر هذه العقوبة خفيفة مقابل ما ارتكبه من إثم خطير، فقد كان بوسعه أن ينضم إلى ابنه الذي كان وقتها مديراً لبرنامج الدراسات السوفييتية في جامعة جونز هوبكينز في الولايات المتحدة، محققاً لنفسه قاعدة انطلاق لهجومه الأدبي على النظام السوفييتي.

فكيف أمكن، إذن، لهذه الحقائق التي جرى إخفاؤها طويلاً أن تتكشف في عام 1981؟ ثمة جواب على هذا السؤال تقدمه لنا الطبعة الأولى من كتابنا هذا، التي

تمت كتابتها بعد فترة قصيرة من صدور مقال مجلة «**فورتون**»، يمكن الاطلاع الآن عليه ورؤية أن الأحداث التي تلت قد أقرته وصدقته، وملخصه كما يلي:

- الرواية التي حصل عليها وتداولها أهل الغرب منذ ما قبل الثورة البولشيفية، هي الآن قيد التعديل لتتوافق مع المعلومات التي تتسرب ولتصبح قريباً ملكاً عاماً متاحاً للجميع، أما بالنسبة لتثقيف وتنوير رأي عام مخدَّر بشكل متعمد في الغرب، فلابد أن تقام «**جولات اطلاعية موجهة**» في المناطق التي مازالت حتى الآن «**محظورةً وممنوعٌ دخولها**»، ضمن إطار الريبورتاجات الصحفية والحوار العام وكتابة التاريخ المعاصر.
- يجب البدء بتحضير الفكر الجماهيري من أجل التغيرات داخل الاتحاد السوفييتي، ومن أجل العلاقات الوشيكة بين الشرق والغرب، والمنوي إقامتها. هذه التغيرات التي قد يكون كل جزء منها لا يقل خطراً وأهمية وضرراً عن معاهدة موسكو ـ برلين عام 1939، أو عن عملية نقض الستالينية بعد الحرب العالمية الثانية.
- الافتراض الضمني في المناهج السياسية والعملية لدى القوى الغربية الكبرى، وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية، أن الجميع يعملون في اتجاه فكرة مثالية عن التقارب بين العالمين الأوروبي والأمريكي، إلا أن هذه الفكرة المثالية لا تستبعد احتمال قيام حرب عالمية ثالثة.
- في غضون ذلك، يتوضح أكثر فأكثر أن الاشتراكية الاقتصادية، من النوع الذي طبقه في الاتحاد السوفييتي لينين وخلفاؤه، لا يمكن أبداً إعادة تطبيقها.
- من هنا، فإن من الملاحظ بوضوح في الاتحاد السوفييتي ـ عملياً منذ قيام الثورة البولشيفية ـ نشوء شبكة واسعة من الرأسماليين الأغنياء تشبه إلى حد كبير من عدة نواحي الرأسماليين الأغنياء في الغرب.
- ألا يفسد هذا القرار أموراً كثيرة جداً؟ بما في ذلك المساهمة الضخمة للتجارة الغربية الكبيرة في بناء القدرات الصناعية والعسكرية للاتحاد السوفييتي، والتي لم يتم تسديد قيمة معظمها حتى الآن، فجاءت على حساب العمال ودافعي الضرائب في الغرب. وتبدأ «**أحجية تشرشل السرية الملفوفة بلغز سري غامض**» تتهاوى مهشمة، ونحن نرى شبكة الرأسماليين الأغنياء هذه

وهي تتأهب بشكل كامل ومثالي للاستيلاء على كل شيء، والتحكم بكل الأمور بعد انهيار النظام الرسمي، هذا الانهيار الذي لابد واقع إن عاجلاً أو آجلاً (مقتطفات من كتاب «**العامل الصهيوني**» طبعة 1986).

بولنديون معزولون في بولندا:

ثمة سر لظاهرة مماثلة في بولندا الشيوعية، حرصت أجهزة الإعلام الغربية على إخفائه بكل عناية. ففي كانون الثاني من عام 1984 فقط تم السماح بتسريب أخبار عن وجود ــ في بولندا أيضاً ــ مشاريع تجارية مزدهرة، ومعامل تصنيع، ومراكز توزيع لبضائع استهلاكية، قائمة بانسجام تام إلى جانب هيكلية اقتصادية اشتراكية صارمة.

قال توني باربر في رسالة لرويتر من وارسو:

بينما بولندا تصارع للخروج من أزمتها الاقتصادية، كان حوالي خمسمئة من رجال الأعمال في التجارة الخارجية الخاصة يحققون نجاحات أبهجت وأقلقت السلطات الشيوعية. إنهم يسمونها مؤسسات «بولندية»، باعتبار أن مالكيها ــ عدا 40 منها ــ من أصول أمريكية شمالية وأوروبية وأسترالية وبولندية ...

ويتابع باربر قائلاً:

لقد تم ضمان حقها بالعمل في عام 1976 كجزء من مخطط لتشجيع الغربيين ذوي الأصول البولندية على إقامة روابط لهم مع بلدهم الأم. كانت كلها مشاريع تجارية متوسطة الحجم، يبلغ وسطي العمال في كل منها 40 عاملاً، تنتج الملابس والأحذية والسلع الجلدية والعطور والمفروشات، وسلسلة من البضائع التي يتلقفها البولنديون المتعطشون في أسواقهم المحلية المتضورة جوعاً.

كانت قائمة البضائع المذكورة آنفاً تشبه إلى حد بعيد القائمة التي أعطانا إياها كونستانتين سيميز عن التجارة الخاصة في الاتحاد السوفييتي. وكانت الشركات البولندية ــ حسب قول باربر ــ تساهم في الناتج القومي البولندي مساهمة صغيرة جداً، لكنها كانت تتنامى، وكان نجاحها يسبب «**حرجاً طفيفاً**» للسلطات المحكومة بإيديولوجية لا تقر بوجود المشاريع الخاصة.

ثم يقتبس باربر عبارة لرئيس الحزب الشيوعي ورئيس الوزراء وقتها، الجنرال جاروزيلسكي، يقول فيها:

سوف نستمر في ضمان ظروف عملهم وأنشطتهم، إنما يجب عليهم ألا يكونوا جزيرة أجنبية تتمتع بامتيازات لا مبرر لها في محيط الاقتصاد.

تعتبر هذه العبارة مثالاً نموذجياً كاملاً عن الكلام «**الأورويلي**» المزدوج، لأن جاروزيلسكي كان يعرف تماماً أن تلك المشاريع الخاصة كانت بالفعل جزراً أجنبية ذات امتيازات ومكاسب لا يشاركها فيها المواطنون في البلد.

كانت المشاريع الخاصة مزدهرة وقتها في بولندا. فالإحصائيات التي قدمها السيد ميروسلاف غالتزينسكي، الناطق الرسمي باسم غرفة التجارة البولندية، تشير إلى أن عدد المشاريع «**المستقلة**» قد تزايد من ثلاثة في عام 1977، دخلها الإجمالي حوالي 180000$، إلى خمسمئة في عام 1983، دخلها الإجمالي 400000$. ولابد أن التوقعات في مجال الفقر والديون في بولندا كانت مشجعة مشرقة، تمكن معها باربر من أن يقول في تقريره:

لقد وظفوا أرباحهم في بولندا واستثمروها، واستمروا في تشغيل العاملين، واستفادوا من أنشطتهم...

هذا غيض من فيض من الحقائق الصعبة. ولكن، ما معنى هذه الحقائق؟ إننا بحاجة للإجابة عن هذا السؤال، لأنه يلقي بعض الضوء على سلسلة أنظمة شيوعية استطاعت ـ منذ قيام الثورة البولشيفية ـ أن تؤسس لعلاقات متناغمة منسجمة مع بعض الرأسماليين، مع استمرارها في ذات الوقت بمهاجمة الرأسماليين والسخرية منهم في دعاياتها الماركسية اللينينية.

من هم أولئك «**الأمريكيون الشماليون والأستراليون والأوروبيون ذوو الأصول البولندية**» الذين عادوا إلى بولندا ليمارسوا التجارة؟ كيف جرى تجنيدهم، ومن الذي قام بذلك؟ هل أحضروا معهم رساميلهم، أم قدمتها لهم الدولة الاشتراكية؟ إن لدى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وبريطانيا، والعديد من الدول الأخرى بما فيها جنوب أفريقيا، جمعيات مهمة للمهاجرين البولنديين لم يسبق أن صدرت عنهم إشارات تدل على رغبتهم بالعودة إلى الوطن الأم الذي مازال تحت الحكم الشيوعي.

تقرير رويتر لا يتضمن إجابات عن هذه الأسئلة وأمثالها، ولهذا لا يمكننا أن نعرف بدقة على وجه التحديد من هم أولئك المحظوظون **«الأمريكيون الشماليون والأوروبيون والأستراليون ذوو الأصول البولندية»** الذين سمح لهم بتشكيل قسم ذي امتيازات من سكان بولندا. لكننا نعرف بالتأكيد هوية أجزاء مماثلة من حيث الامتيازات في الاتحاد السوفييتي، الذين كانت غالبيتهم العظمى ـ كما أخبرنا كونستانتين سيميز ـ من اليهود مثل سيميز نفسه.

من هنا، ليس من الغريب أن نفترض ـ ما لم يثبت العكس بالدليل القاطع ـ أن الغالبية العظمى، إن لم نقل الجميع من أولئك **«الأمريكيين الشماليين والأوروبيين والأستراليين»** كانوا يهوداً، هاجروا من بولندا ثم تم الترحيب بعودتهم مع رساميلهم وخبراتهم الصناعية والتجارية وارتباطاتهم القوية مع الوسط التجاري خارج بولندا.

الفصل 16

الدور الصهيوني في روديسيا

أنا لست معادياً للسامية. فعلى المرء أن يتجنب تخيل معاداة السامية في كل مكان... فالحقيقة، أو البحث عنها، لا يمكن تسميتها معاداة للسامية.

البوفيسور روبيرت فوريسون

مجلة ستوريا إيلاستراتا، آب 1979

ثمة رواية مختلفة لمأساة روديسيا، تم فيها توضيح الدور الصهيوني بشيء من التفصيل، تم نشرها بكتاب صدر في زيمبابوي ــ روديسيا سابقاً ــ بعنوان Majuta، بقلم ب. آ. كوزمين، تحت عنوان فرعي هو «**تاريخ الجماعة اليهودية في زيمبابوي**»[1].

المؤلف لا يخفي حقيقة أن مصطلحي «**يهودي**» و«**صهيوني**»، في روديسيا قبل إعلان الاستقلال من جانب واحد بوقت طويل، كانا مترادفين يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر ــ حسب تعبير المؤلف ــ. فهو يحكي لنا أنه في عام 1967، حين كان الروديسيون يشعرون أنهم ضحية خدعة العقوبات الاقتصادية في الأمم المتحدة، ترأس رئيس المنظمة الصهيونية لوسط أفريقيا، السيد آ. إي. أبراهامسون، لجنة إلى رئيس الوزراء إيان سميث «**لإعلامه عن المعونات المالية والقوى العاملة المخطط منحها لإسرائيل**»، وقد حقق هذا التحرك ــ حسب تعبير أبراهامسون ــ «**النتائج المرجوة منه**».

ويقول كوزمين، إن الإسهامات المالية الفردية من يهود روديسيا ــ خلال الثلاثينيات من القرن العشرين ــ من أجل الهدف الصهيوني كانت الأعلى

[1] «ماجوتا: تاريخ الجماعة اليهودية في زيمبابوي» تأليف ب. آ. كوزمين، مع مقدمة بقلم البروفيسور مايكل غيلفاند، مطبعة مامبو، زيمبابوي، 1980.

من نوعها في العالم، ثم أصبحت تقليداً تراثياً في السبعينيات، رغم العقوبات الاقتصادية التي طبقت على البلاد وكأنها حالة حصار.

بالمقابل، كان اهتمام قادة الصهاينة الهائل في العالم بروديسيا ـ كما يبدو مع قلة عدد السكان اليهود فيها ـ غريباً وغير عادي. فنحن نقرأ أن زوار البلاد كان من بينهم حاييم وايزمان وفلاديمير جابوتينسكي وناحوم سوكولوف وموشيه شاريت وناحوم غولدمان ونورمان بينتويتش وسيسيل روث، ثم جاء بعدهم الجنرالات موشيه دايان وإيغال آلون وحاييم هيرتزوغ وعزرا وايزمان.

ويوضح لنا كتاب كوزمين بكل جلاء أن لجنة صهيونية روديسية جيدة التنظيم وقوية التماسك كانت تهيمن على اقتصاد البلاد وتعارض تماماً بشكل دائم الاستقلال كما يتصوره حزب الجبهة الروديسية بقيادته، مع أنها كثيراً ما تضطر، لأسباب تكتيكية واستراتيجية، إلى شغل المناصب لدى كلا الطرفين المتحاربين.

يصف كوزمين روديسيا البيضاء بأنها ديموقراطية فائقة خارقة ذات ميول سياسية خطرة إلى اليهود، ومن بينها الميل الخطر نحو البطولات الوطنية ضد الإنكليز التي نشأت مع قيام الحرب الثانية، ثم اشتدت وترسخت أكثر حين انجرّت القوات البريطانية إلى صراع مع الأرغون وغيرها من المنظمات الصهيونية الإرهابية الأخرى في فلسطين.

ثم تقرر بشكل قاطع في عام 1952، في المؤتمر السنوي لمجلس المندوبين اليهودي، تشجيع اليهود وحثهم على لعب دور أكثر فاعلية ونشاطاً في السياسات الروديسية. يقول كوزمين:

لعله ليس من قبيل المصادفة أن يعود اليهود إلى الجمعيات العمومية الفيدرالية والإقليمية في انتخابات عام 1953 ممثلين بنواب معروفين جميعا بنشاطهم وفعالياتهم الاجتماعية، وسبق لهم أن مارسوا العمل في المنظمات اليهودية.

ومع انحلال الاتحاد الفيدرالي بين روديسيا ونيازالاند[1]، وجد السكان البيض أنفسهم ـ بما فيهم الجماعة اليهودية ـ متجمعين بتركيز شديد في جنوب روديسيا، حيث كانت تتنامى علائم عدم رضى البيض عن السياسات التي ينتهجها

---

[1] هي التي حملت على التوالي اسم زامبيا وزيمبابوي ومالاوي.

حزب الاتحاد الفيدرالي (UFP) المتحكم وقتها بمقاليد السلطة في مجلس النواب والشيوخ، اللذين ـ كما يقول كوزمين ـ زادت نسبة الممثلين اليهود فيهما.

لقد تم طرد وتجريد غارفيلد تود من منصبه كرئيس وزراء لجنوب روديسيا، لاندفاعه السريع نحو سياسة المساواة العرقية، وجرى استبداله بالسير إدغار وايتهيد، المخلص للاشتراكية الغابية*، الذي لم يكن أفضل من سابقه وكان لابد من إزاحته. ثم جاءت الانتخابات العامة في جنوب روديسيا عام 1962، التي أطاحت بحزب الاتحاد الفيدرالي ومواقفه المزدوجة من المسألة العرقية، في حركة رجعية بيضاء على يد ما تأسس مؤخراً تحت اسم الجبهة الروديسية (AF) بقيادة وينستون فيلد.

من وجهة النظر الصهيونية، كان ما حدث أسوأ ما يمكن تصوره. فقد أحكمت الحكومة وقتها قبضتها على أولئك الذين بالذات قاتلوا بضراوة مستخدمين كل الوسائل للبقاء خارج هذه القبضة، ثم أصبحوا الآن لهم ممثل واحد في البرلمان هو آ. إي. أبراهامسون الذي استطاع تدبير الاحتفاظ بمقعده بفضل الناخبين اليهود في بولاوايو الشرقية.

كان من الصعب عليهم العثور على رجل أفضل يمثلهم، لأن أبراهامسون كان رئيساً لمجلس المندوبين اليهود، ونائباً لرئيس المنظمة الصهيونية لوسط أفريقيا، إضافة إلى أنه عضو في اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية.

ومازاد الأمور سوءاً بالنسبة للجماعة اليهودية في روديسيا ـ أو هكذا كان يبدو وقتها ـ أن المتشددين في الجبهة الروديسية أطاحوا بوينستون فيلد، بحركة ثورية وزارية، واستبدلوه بإيان سميث، الذي انضم إلى الجبهة قبل انتخابات عام 1962 بوقت قصير، بعد استقالته من حزب الاتحاد الفيدرالي. كان سميث ـ كقيادي ـ هو المفضل لدى الجبهة الروديسية، نظراً لما لديه من خبرات برلمانية أكبر من «**الشباب الجدد**» في الجبهة من جهة، ونظراً لما أعلنه هو نفسه بحماس شديد من التزام تحقيق استقلال مبكر لروديسيا من جهة أخرى. وكان المفضل أيضاً لقيادة الجبهة الروديسية باعتباره «**روديسي المولد**»، بينما كان وينستون فيلد من مواليد بريطانيا. يكتب الدكتور كوزمين في كتابه قائلاً:

---

* هي جمعية إنكليزية نشأت عام 1884، تسعى إلى نشر المبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية.
المترجم

كان المسرح معداً على النحو الذي ذكرناه لهجمات سياسات عرقية في كل أجواء العمل الاجتماعي. ففي عام 1964، تم استقدام إيفور بنسون، المنظر السياسي اليميني المتطرف، من ناتال كمستشار للحكومة في شؤون المعلومات. ولم يكن لدى الجبهة الروديسية ـ حتى ذلك الوقت ـ أية إيديولوجية فكرية، سوى مزيج من الأفكار عند مجموعات وأحزاب، كانت تعارض هاغينز في الماضي[1]. وفي انتخابات عام 1962 قاتلت الجبهة الروديسية ضمن برنامج أيده أكبر المتحمسين المحافظين في المقاطعات البريطانية. كان تأييد القانون والنظام هو السلاح الذي تم تزويد المرشحين به من أجل المعركة.

إلا أن بنسون قدم للحكومة الجديدة سياسة متطرفة يمينية مترابطة تناسب مشاكلها الداخلية والخارجية على حد سواء. وبدأت روديسيا تظهر كآخر معقل للمسيحية وللتقاليد الغربية في وجه هجوم قوى يسارية مشؤومة تديرها قيادات عامة مشتركة في نيويورك وموسكو. هذا النوع من الدعاية الماكرة بدأ يتسلل إلى أجهزة الإعلام الخاضعة للحكومة في الإذاعة والتلفزيون، مع هجمات على الشيوعيين والممولين الدوليين. وكان هذا ـ بالطبع ـ هو الجواب الأوروبي على فكر العالم الثالث الثوري لدى القوميين الأفريقيين...

وشعرت الجماعة اليهودية، التي كانت في واجهة المعسكر الليبرالي المتعدد الأعراق، أنها مكشوفة لا قدرة لها على الدفاع عن نفسها في هذا المناخ السياسي المتنامي ارتفاعاً وعمقاً ...

في عام 1964، وخلال جلسات مؤتمر المندوبين اليهودي، تحدث إي. ر. روزين، أحد كبار الجراحين في روديسيا، بتفاؤل شديد عن الجماعة اليهودية ومساعدتها على قيام النهضة الأفريقية. واقتبس كوزمين عبارة لروزين قال فيها:

إنني أقدم تقديري وإعجابي إلى شمال روديسا، لموقفها في قبول الوضع السياسي المتغير في البلاد.

لقد كان موقف البيض في شمال روديسيا ـ التي أصبح اسمها الآن زامبيا ـ لا يختلف في الواقع عن موقف البيض في جنوب روديسيا. الفرق الوحيد هو أن البيض في شمال روديسيا كانوا قلة لا تستطيع المقاومة.

---

[1] السير غودفري هاغينز، اللورد مالفيرز فيما بعد، رئيس وزراء سابق لجنوب روديسيا ومهندس الاتحاد الفيدرالي الذي لم يعمر طويلاً بين روديسيا ونيازالاند.

وحسبما هو متوقع كخيار وحيد، فإن آ. إي. أبراهامسون لم يتأخر أبداً في استخدام غطائه البرلماني لشن هجوم ضار يستهدف تشويه سمعة الحكومة الروديسية على استقدامها مستشاراً للمعلومات، مستشهداً في ذلك ببيانات أصدرها معهد فاينر للدراسات السياسية في لندن.

ولابد أن صهاينة روديسيا شعروا أكثر فأكثر بأنهم مكشوفين، بعد أن وجد إيان سميث ــ التوّاق إلى دعم مركزه لدى مؤيديه في الجبهة الروديسية بعد أن ساعدوه على إزاحة وينستون فيلد، وإلى تبديد الشكوك حوله كجلاد سابق في حزب الاتحاد الفيدرالي في البرلمان وكوزير في الحكومة ــ أن من الضروري تلميع وتجميل صورته المحافظة باستخدام الخطب والنصوص الإذاعية التي يعدها له مستشاره الجديد لشؤون المعلومات. والواقع أن الصورة المحافظة لإيان سميث هي التي جعلت ممكناً للجبهة الروديسية أن تلحق هزيمة مدمرة بحزب الاتحاد الفيدرالي في انتخابات عام 1965، التي حاز فيها سميث أكثرية الثلثين اللازمة لتعديل الدستور.

كان القلق في صفوف صهاينة روديسيا أمراً غير مفهوم. فقد بدا من غير المعقول ألا يقبل الروديسيون البيض بحماس العرض الذي يفتقرون إليه ويحتاجونه بشكل واضح: «**سياسة حازمة تناسب المشاكل الداخلية والخارجية على حد سواء**».

ثمة عامل آخر وجده الصهاينة الروديسيون محبطاً للعزائم، هو التعاطف والدعم لروديسيا في كل أنحاء العالم الغربي، حيث برزت إلى الوجود مئات المنظمات «**المؤيدة لاستقلال روديسيا**» بشكل عفوي وخلال أسابيع قليلة عقب إعلان الاستقلال من جانب واحد.

ويلاحظ الدكتور كوزمين أن دعم بلدان ما وراء البحار لاستقلال روديسيا «**كان مقصوراً بشكل أساسي على مجموعات من البلدان الغربية الديمقراطية ذات الارتباطات مع الصهيونية في وول ستريت، ومع الشيوعية، كجزء من هجوم ثلاثي الشعب على العالم المسيحي الغربي**». ثم يضيف قائلاً:

وفي المحصلة، ومنذ عام 1965 وما بعده، أصبحت روديسيا محل زيارة لأصحاب الدعايات اليمينية المتطرفة، وعرفت العديد من المعادين للسامية أمثال ايريك باتلر من الرابطة الأسترالية للحقوق، والميجور باندي من

الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هؤلاء في بياناتهم العامة وتصريحاتهم العلنية يحجمون عامدين عن إعلان العداء للسامية بشكل مكشوف، ويقتصرون على معالجة الأفكار العرقية الأكثر وضوحاً. ومع ذلك، فقد وضع الكولونيل كورتيس ب. دال، ومجموعة الحرية الأمريكية في زيارتهم لبولاوايو، مسألة معاداة اليهود على رأس ما قدموه للمستشارين اليهود في الاستقبال الجماهيري الذي أعد لهم هناك.

لم يكن لدى صهاينة روديسيا ـ حسبما أثبتت الأحداث ـ ما يخشونه من حزب جبهة روديسية بقي في قبضة سيطرة رئيس الوزراء إيان سميث، الذي أظهره الدكتور كوزمين في كتابه سليماً معافى دون أية شائبة، وبعيداً عن أية ملاحظة شخصية خاصة.

في الواقع، إن كوزمين ينجح في توضيح أن الفضل في انقلاب الأمور وفي إتاحة الفرص السياسية لصهاينة روديسيا، يعود بكامله إلى رئيس الوزراء إيان سميث بعد اندحارهم بشكل مهين ومخزٍ في محاولاتهم لتشكيل معارضة تقف في وجه الجبهة الروديسية، بتأسيس حزب جديد باسم «**الحزب الروديسي**» برئاسة روي فيلينسكي[1]، وبالدعم الطويل المستمر لمجموعات وأحزاب المعارضة الأخرى بما فيها «**الحزب المركزي**».

فبعد الهزيمة الساحقة التي مني بها السير روي فيلينسكي في أحد انتخابات سالزبوري المزورة، وخروجه نهائياً من دائرة الحياة العامة، بعد هذا فقط جرى الترحيب بحرارة بالصهاينة الذين ساندوا رئيس الوزراء إيان سميث، وسرعان ما زاد عدد ممثليهم في الحكومة مرة أخرى. ويكتب كوزمين قائلاً:

بعد فضيحة الانتخابات المزورة، انتهجت الجبهة الروديسية سياسة تهدف إلى كسب ود الجماعة اليهودية من أجل ترسيخ وحدة أوروبية وإقناع بعض الساخطين الذين يحترمون الآراء اليهودية في المسائل الاقتصادية. ففي

---

[1] رولاند فيلينسكي، ابن لمهاجر يهودي بولندي، أمه أفريقية. لمع نجمه في أوساط شمال روديسيا السياسية والتجارية قبل أن يخلف السير غودفري هاغينز في رئاسة الوزراء خلال الفترة القصيرة من عمر الاتحاد الفيدرالي بين روديسيا ونياز الاند.

انتخابات عام 1962 لم يتقدموا إلى الساحة بأي مرشح يهودي، لكنهم في عام 1965 دفعوا ثلاثة مرشحين ناجحين هم: السيد جويل بينكوس، مرشحهم التقليدي لمقعد اليهود عن شرق بولاوايو. والسيد برنارد بونتبر، الذي جاء نجاحه مفاجأة في دائرة ويلوفال الانتخابية بسبب النسبة العالية التي حازها من أصوات الملونين. والسيد ثيو إيلليسون، الذي فاز في سالزبوري وغرينوود... وبينما كان إيان سميث يتحايل على الأحزاب المتشددة والأحزاب المؤيدة للتسوية داخل مجلس وزرائه، ويحاول القضاء على كل معارضة بيضاء سياسية عن يمينه ويساره، بدأ قادة الجماعة اليهودية يطالبون لأنفسهم بالمزيد. فقد ظلت الجماعة لأمد طويل تتعمد جاهدة أن تتجنب الاحتكاك مع الحكومة، ولم تكن هناك اقتراحات وترشيحات للسياسيين لوظائف ومناصب اشتراكية. ولم يكن ذلك نابعا من عدوانية شخصية لدى طرف تجاه الطرف الآخر، فالجميع يذهبون إلى المدرسة معا، ويعرفون من الناحية الاجتماعية بعضهم بعضا. حتى أن إيان سميث نفسه كانت عرابته في العماد يهودية من غويلو اسمها مسز تيلي جاكوبسون.

كانت إحدى أكبر الإشكالات التي برزت أمام قادة الصهاينة في روديسيا، هي محاولة التوفيق بين استجاباتهم المتضاربة للحرب الاقتصادية المندلعة بين الحكومة البريطانية والأمم المتحدة.

كانوا يشاطرون تلك القوى الخارجية رغبتها القوية في القيام بما يطيح بحق المحليين البيض في اتخاذ القرار، لكنهم كانوا يدركون أيضاً ـ كما يحدثنا كوزمين نفسه ـ:

... أن يهود روديسيا، من وجهة نظر سياسيي ما وراء البحار، قد استهلكوا واستنفذوا. فهم يعتقدون أن بقاءهم وحياة أسرهم يعتمد على المساعي التي لا فائدة منها لموظفين مدنيين بريطانيين غارقين في حملة عقوبات اقتصادية متأزمة.

ويضيف باعتزاز واضح قائلاً:

إن من السهل التنبؤ بنتيجة هذه المعركة التنافسية، لأن هناك ـ من جهة أولى ـ أشخاص يتوهمون أن لهم حصة فيما يفعلونه، وهناك ـ من جهة ثانية ـ بيروقراطيون بلا كرامة لا حصة لهم في هذه المعركة، ولا رغبة لديهم في صرف ما يلزم من الوقت والجهد في الحرب الاقتصادية...

لقد وظف رجال الأعمال اليهود أصدقاءهم وعلاقاتهم ومهاراتهم اللغوية للتملص من العوائق والقيود التي فرضتها الأمم المتحدة على أنشطتهم.

ويليام مارغوليس هو الشخصية المحورية في أزمة العقوبات الاقتصادية. كان مستشاراً اقتصادياً لدى الحكومات الروديسية المتتابعة بعد الحرب العالمية الثانية، وهو الآن رئيس مجلس تسويق المحاصيل، الذي بلغت مبيعاته حوالي 20 مليون دولار من إنتاج الذرة في زامبيا (شمال روديسيا سابقاً) عام 1971، محققاً بذلك هدفين: الحصول على ما تدعو إليه الحاجة الماسة من قطع أجنبي، وإطعام الآلاف من إرهابيي جوشوا نكومو الذين يتم تدريبهم في البلاد.

شخصية محورية أخرى هو إيلياس (إيلي) برومبيرغ، الذي أصبح بعد أن أعيد انتخابه في عام 1974، وزيراً للاقتصاد في حكومة إيان سميث.

إلا أن الدكتور كوزمين يسدل ستاراً من الحياء المتواضع على العودة الصهيونية العظيمة في حزب لم يتوقفوا فيه ـ إلى أن انهزموا في انتخابات آرونديل المزورة ـ عن العمل على تدميره.

في عام 1976، قام رئيس الوزراء سميث ـ لمواجهة ثورة داخل الحزب واستقالة 12 عضواً في البرلمان بينهم رئيس الحزب القومي وآخرون ـ برفع إيلياس برومبيرغ إلى منصب وزير للمعلومات والسياحة، وسمح له بأن يطلق النار على مجلس إدارة الإذاعة والتلفزيون في روديسيا، وعلى مديرها العام هارفي وارد، وأن يفرض نفسه في إدارة موحدة للإذاعة الروديسية والتلفزيون الروديسي. في ذلك الوقت كانت الجبهة الروديسية قد أصبحت مجرد عملية صهيونية.

في ضوء هذه التطورات، كان لا يمكن لوم أولئك الأعضاء الذين استقالوا من الجبهة الروديسية ليؤسسوا حزب العمل الروديسي RAP، ولا الآخرين الذين طردوا من الجبهة، على شكهم في أن يكون إيان سميث قد تم زرعه عمداً في الجبهة الروديسية حين بدا واضحاً أن الجبهة ستكون أول المنتصرين في انتخابات عام 1962[1].

---

[1] لقد حلل المؤلف الصراع في روديسيا ودور إيان سميث في كتاب له بعنوان «الحقيقة في أفريقيا» الطبعة الثالثة 1995، نشر فيرتاس. وكما هو متوقع في ضوء كل المعلومات التي قدمها الدكتور كوزمين في كتابه «ماجوتا»، فقد تخلى الصهاينة عن إيان سميث ونقلوا دعمهم إلى حكومة زنجية برئاسة موغابي الذي فرضته قوى التمويل العالمي تحت اسم «التحرر» و«حق الزنوج باتخاذ القرار».

أثناء ذلك، كان الجانب الصهيوني المعادي للجبهة الروديسية ــ جزئياً ــ بيد محامين مثل بن بارون من بولاوايو (الذي تزوجت ابنته زاوني من تشيستر كروكر الذي أصبح فيما بعد مساعد وزير الخارجية الأمريكية للشؤون الأفريقية) وليو بارون، الذي عمل مستشاراً قانونياً لنكومو مرة، ثم هرب من البلاد فيما بعد، عقب سجنه فترة قصيرة (يقول كوزمين إنه تم طرده وترحيله)، ثم عاد بعد «**استقلال السود**» ليشغل منصب قاضي محكمة الاستئناف[1].

إننا نجد الآن أن الأهداف الصهيونية المشتركة أصبحت تسهيل التوفيق بين التناقضات الواضحة في الاستجابة الصهيونية للتحدي الروديسي.

وكما أثبتت الأحداث، فإن العقوبات الاقتصادية زادت من قوة اليهود بشكل كبير للاستيلاء على تجارة روديسيا وصناعتها. إذ مما لا شك فيه بأن أكبر المستفيدين من الأزمات الاقتصادية هم أولئك المسؤولون عن تدبيرها وإدارتها، وأن أكبر المتعرضين للعقوبات هم الأكبر تعرضاً لحملات الإرهاب والتخويف والضغط التي يمارسها القوميون الثوريون الزنوج داخل البلاد.

النتيجة النهائية هي أن التجارة والصناعة في زيمبابوي الجديدة أصبحتا مركزتين أكثر من ذي قبل في أيدي اليهود، على شكل شركات كبيرةٍ قوية النفوذ قادرةٍ على التأثير في الساسة الزنوج، مصممةٍ استراتيجياً لتتقاسم معهم الأموال الطائلة التي تدخل إلى البلاد على شكل قروضٍ منخفضة الفوائد، وعلى شكل ضمانات ومساعدات أجنبية[2].

---

[1] ظهر مقال في جريدة بولاوايو كرونيكل بتاريخ 11 أيلول 1967، يحمل صورة لشخصين يزوران روديسيا تحتها تعليق يقول: «السيد تشيستر كروكر (25 عاماً) طالب أبحاث من خريجي أمريكا، وزوجته زاوني البولاوية المولد، في زيارة للمدينة. والسيدة كروكر ابنة بن بارون، أما السيد كروكر فحاصل على منحة من مؤسسة فورد لدراسة مشاكل الأمن الأفريقي، وستكون دراسته هذه أطروحة لنيل درجة الدكتوراه.

[2] الطبيعة المخادعة لـــ «المساعدات الأجنبية» إلى البلدان النامية فيما يسمى بالعالم الثالث، تم بحثها بالتفصيل في كتاب بعنوان «الخروج على التطور والمساواة: العالم الثالث والوهم الاقتصادي» تأليف ب. ت. باوير البروفيسور في مدرسة الاقتصاد بلندن، نشر وايدينفيلد ونيكولسون. إضافة إلى عملين يسهمان في كشف حقيقة المساعدات الأجنبية هما: «دمار قارة» تأليف البروفيسور كارل بورغين وكاثلين كوربيت، المحاضرين في جامعة كينيا. و«مصيبة العالم الثالث» تأليف برايان ماي، نشر روتلدج كيغان بول. وانظر أيضاً «في مكان ما جنوب السويس» تأليف دوغلاس ريد، وفيه فصل كامل يبحث برنامج النقطة الرابعة للرئيس ترومان، مطبوع عام 1950.

أيضاً على الصعيد العسكري، أعلن صهاينة روديسيا أنهم يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم جيداً باعتبارهم جماعة «**مستقلة بذاتها ثقافياً، تميل إلى ترسيخ تحررها القومي**» حسب قول الدكتور كوزمين حرفياً.

بعد انحلال الاتحاد الفيدرالي بين روديسيا ونيازالاند، تناقص عدد السكان اليهود قليلاً ـ كما يقول كوزمين ـ ، إلا أن «**الخسارة الفادحة تركزت على الشباب في سن العشرين**» وهو السن الذي تعتمد عليه روديسيا في حرب الأدغال المتسعة لديها باستمرار. ثمة عبارة مأثورة يقول فيها آ. إي. أبراهامسون عام 1973: «**إننا نشهد زوال جيل بكامله من الشباب والشابات، الذين يغادروننا للدراسة في جنوب أفريقيا وبلاد ما وراء البحار، ثم لا يعود منهم سوى قلة قليلة**».

والواقع أنه بحلول عام 1969 تحديداً، وحسب مسح إحصائي اقتبسه كوزمين، لم يكن هناك أكثر من 227 يهودياً ويهودية في سن بين 20-25 عاماً في البلاد، منهم ثلاثة في الشرطة وسبعة في القوات المسلحة، يكفون في كل الأحوال لإعلام مجلس المندوبين والمنظمة الصهيونية في المنطقة عما يجري في هاتين الدائرتين الهامتين.

كان كل ما يفعله الشباب اليهود ـ كما أوضح كوزمين بكل وضوح ـ حين يرتدون لباس الجيش في الشرق الأوسط، هو القتال من أجل دولة إسرائيل.

من هنا، فإن كتاب الدكتور كوزمين إسهام قيّم ونادر في أدب العلوم السياسية، فهو يسجل بتفصيل وصراحة يستحقان الثناء ما يمكن تحقيقه على يد جماعة صغيرة متلاحمة منظمة لديها وعي جمعي متقد (لا يزيد أفرادها عن 2.2% من عدد السكّان البيض في روديسيا) في الحفاظ على ذاتها والمضي قدماً في أهدافها البعيدة المدى وسط ظروف صعبة إن لم نقل مخيفة.

ولعل الكتاب يعطي جواباً لسؤال يبدو أنه حيَّر الدكتور هنري ل. فاينغولد أستاذ التاريخ في جامعة نيويورك الذي تساءل قائلاً: «**هل يمكن أن يعزى وجود اليهود في التاريخ إلى شيء ما بمنتهى الخصوصية، مع الأخذ**

بعين الاعتبار حقيقة أنهم مجموعة تقوم على أساس فكرة وعلى أساس تاريخ يقاوم أدوات البحث ويعارض فرضيات الدراسات الحديثة؟»[1].

أما «**الممقوت الأكبر**» المستشار السابق للمعلومات في روديسيا، فجوابه عن هذا السؤال هو التالي: ليس ثمة شيء أكثر تفرداً وشذوذاً في التاريخ من وجود أمة طموحة لديها وعي ذاتي متوهج، تتبعثر متشرذمة بين أمم أخرى لا حصر لها. إذ لا يمكن لأمة من هذا النوع أن تحيا وتبقى حية ـ حسبما أوضح البروفيسور السير آرثر كيث ـ إلا باستخدام معيار أخلاقي مزدوج يميز بوضوح بين «**نحن** » و«**هم**»، ويسهم في إقامة علاقة بين الجانبين يحكمها التضاد إن لم نقل العدوانية.

إن مثل هذه العلاقة المتفردة ذات الخصوصية لا يمكن تشكلها واكتسابها إلا بالممارسة المستمرة لفنون التعمية والغموض. هذه التعمية الغموضية بالذات هي التي تجعل من الصعب ـ بل والخطير ـ على الجماعة اليهودية أن تعمل على كتابة تاريخها الخاص.

لقد شغل صراع البيض المهيمنين في روديسيا ـ لتجنب الانجراف مع القوميين في نظام اقتصادي عالمي جديد[2] ـ حيزاً صغيراً من كتاب الدكتور كوزمين، الذي أعطى الحيز الأكبر لتاريخ طائش أحمق،رصد فيه دور اليهود منذ دخولهم البلاد كباعة متجولين وسماسرة في تجارة المواشي، ثم انضم إليهم فيما بعد أعداد من «**اللاجئين**» جاؤوا من روسيا القيصرية. وكان المؤلف صريحاً بشكل ملحوظ في كشفه عن الوسائل التي استطاعوا بها أن يجدوا لأنفسهم موطئ قدم في المجال الاقتصادي: إحراق المحلات التجارية المؤمن عليها.. التفليسات المزيفة المزورة.. تهريب القطع الأجنبي بما فيه من أرباح ضخمة.

إلا أن السر الحقيقي في نجاح يهود روديسيا ـ حسبما هو مبين بكل وضوح في الكتاب ـ كان في ممارسة المعايير المزدوجة، معيار لهم، ومعيار

---

[1] كان البروفيسور هنري ل. فاينغولد يستشهد به لدى المجلس الأمريكي المحافظ الذي اقتبس هذه الفقرة عن اليهودية من نشرة «تقرير خاص مثير»، آب 1982.

[2] لم يرد ذكر النظام الاقتصادي العالمي الجديد في أية وثيقة من وثائق الأمم المتحدة، إنما أشار إليه البروفيسور ب. ت. باوير في كتابه «المساواة: العالم الثالث والوهم الاقتصادي».

عرقي صارم للآخرين «**الغرباء**». مصالح جماعية ذاتية لهم، وسياسات ليبرالية متعددة الأعراق لا تمييز فيها للآخرين. كل هذا، مع الحفاظ على أوثق روابط التعاون مع مشاركيهم بقوميتهم في الخارج.

ومع ذلك، فليس هناك فصل في الكتاب يخلو من الإشارة إلى المفاجآت المؤلمة والمشينة التي تعرض لها يهود روديسيا بين الحين والآخر، والتي تدل على أن بقية البيض في روديسيا لم يتقبلوا دائماً بروح طيبة سلوك أولئك الذين يريدون بكل جوارحهم أن يعاملوا كرفاق وكمواطنين روديسيين.

إننا نتفق بدون شك مع الدكتور كوزمين في نقطة واحدة، هي أن الإطاحة بحكم البيض في روديسيا واستبداله بنظام مؤلف من دمى زنجية، كان متفقاً تماماً في خطه مع المتطلبات الصهيونية البعيدة المدى.

الفصل 17

اتفاقيــة الإبــادة الجماعيــة

بعد الانتهاء من كتابة هذا الفصل، خضعت الولايات المتحدة أخيراً للضغوطات الهائلة، وصوتت بتاريخ 19 شباط 1986 لصالح تصديق اتفاقية الإبادة الجماعية، إنما وضعت سبعة شروط تم تصميمها لحماية سيادة الولايات المتحدة الأمريكية. يبقى أن إقرار الاتفاقية من قبل مجلس النواب لازم وضروري لوضعها موضع التنفيذ كقانون.

* * * *

إن أية دراسة للدور اليهودي في تاريخ القرن العشرين ستكون ناقصة ومضللة إن لم تشر إلى اتفاقية الأمم المتحدة حول الإبادة الجماعية، التي كانت في الأصل فكرة في ذهن محام يهودي من بولندا، ثم دعمتها أنشط المنظمات اليهودية في كل أنحاء العالم بعد أن صدقتها الجمعية العمومية للأمم المتحدة في كانون الأول من عام 1948.

تعكس اتفاقية الإبادة الجماعية ــ من حيث الشكل ومنذ مقدمتها ــ نوعاً من أنواع القلق اليهودي والتجربة اليهودية. ليس هناك سجل بأن فرداً يهودياً أو جماعة يهودية سبق أن عارضتها، كما لم يسمع أحد ــ حتى الآن على الأقل ــ بوجود أية جماعة أخرى، قومية أو إثنية أو عرقية معنية بالفرض بهذه الاتفاقية، لم تشارك القوى اليهودية في تأييدها ودعمها.

فمن الضروري، والحالة هذه، أن نستحضر في مسألة اتفاقية الإبادة الجماعية كل رؤى وتحليلات القوى السياسية التي مر ذكرها في الفصول السابقة من هذا الكتاب.

بنهاية عام 1984 تم التصديق على هذه الاتفاقية، المصممة بحسب ظاهرها لإدانة الإبادة الجماعية واعتبارها جريمة دولية، من قبل 90 دولة

عضو في الأمم المتحدة، من بينها المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا الغربية والسويد والنرويج وكندا والعديد من الدول الشيوعية. وأيضاً بنهاية عام 1984 تمت أخيراً مصادقة الولايات المتحدة على الاتفاقية، بعد أن عورضت بشدة أكبر من أي مكان أخر في العالم.

يحكي لنا جيمس ج. مارتن في كتابه «**الرجل الذي اخترع الإبادة الجماعية**» ما حدث عند عرض الاتفاقية أول مرة على مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة للمصادقة عليها، يقول:

كانت إشارة المرور في الزحام السياسي حول اتفاقية الإبادة الجماعية هي ما تم إعلانه في شهر آب من عام 1949، عن أن لجنة فرعية تابعة للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ستبدأ جلساتها حول مسألة تصديق الاتفاقية برئاسة السيناتور براين ماكماهون خلال الأسابيع الأولى من الدورة البرلمانية القادمة للكونغرس. وبتاريخ 23 آب تحرك ضغط جماعي قادته 26 منظمة قومية، كلها أعضاء في مجلس تبادل الحريات المدنية القومية، لتحية وتأييد هذا التطور الجديد، والضغط على مجلس الشيوخ للموافقة على تصديق الاتفاقية. وكان من بين هذه المنظمات: الجمعية الأمريكية للمحاربين القدماء، والجمعية الأمريكية للعمل الديموقراطي، ومنظمة بناي بريت، والجمعية اليهودية الأمريكية، ومنظمة هاداسا، وعمال الملابس الملغمة، والكنيسة البروتستانية الإصلاحية[1].

استمرت تلك المجموعات والمنظمات بالاتساع بسرعة، حتى أصبحت تضم، إلى جانب مجموعات لا حصر لها: المؤتمر اليهودي الأمريكي، المؤتمر المركزي لحاخامات أمريكا، جمعية الكتّاب والفنانين اليهود، المجلس الاستشاري للمنظمات اليهودية، الاتحاد الفيدرالي لمنظمات المرأة اليهودية، معهد الشؤون اليهودية، التجمعات الإصلاحية اليهودية، المؤتمر القومي للمسيحيين واليهود، المؤتمر القومي الفيدرالي لأخوات المعبد، المجلس الكنسي اليهودي في أمريكا، اتحاد التجمعات العبرية، وأخيراً اتحاد الحاخامات الأصوليين. وتداعوا جميعاً للاشتراك في آخر موجة من موجات الضغط الشديد، قبل أن يتقدم تقرير ماكماهون إلى مجلس الشيوخ في عام 1950، من قبل المجلس

---

[1] «الرجل الذي اخترع الإبادة الجماعية» تأليف جيمس ج. مارتن، معهد النقد التاريخي، تورانس، كاليفورنيا، 1984.

الاستشاري للعلاقات القومية الذي ترسم له سياسته ست منظمات قومية يهودية و28 مجلساً محلياً.

سنكون إذن متخلفين عقلياً لو استمرينا في اعتبار اتفاقية الإبادة الجماعية ـ من الناحية القيمية ـ أداة صادقة من أدوات القانون الدولي، هدفها حماية أعداد لا حصر لها من الجماعات القومية والإثنية والعرقية والدينية، ومن غير المعقول أن نعتبرها كذلك. لأنها من جهة أخرى قابلة للتفسير كنص قانوني على الوجه الذي فهمها عليه مؤيدوها الأساسيون، وهو تقوية وحماية مجموعة واحدة بعينها هم اليهود تحديداً.

ولابد هنا من ملاحظة أن كلمة «**الإبادة الجماعية**» كلمة جديدة لا وجود لها في المعاجم النظامية قبل حوالي عشر سنوات من انتهاء الحرب العالمية الثانية، أي قبل عام 1935. فقد جرى تعريفها فيما بعد باختصار أنها «**إبادة متعمدة لعرق أو أمة أو غيرها**». ومع ذلك، فإن كلمة «**الإبادة الجماعية**» في الاتفاقية تم توظيفها واستخدامها تحت معان أخرى لا حصر لها، الأمر الذي ينبهنا إلى وجوب الحذر واليقظة تجاه كل ما يتبعها.

لقد استخدم ليمكين في كتابه «**حكم المحور لأوروبا المحتلة**» الكلمة في البداية بمعنى الإبادة. إلا أنه سرعان ما أدرك أن اتفاقية من النوع الذي يتصوره ستكون مشلولة تحت هذا التعريف الضيق المعنى، فبدأ يعطيها معنى أوسع. يقول:

حين نقول «إبادة جماعية» فنحن نعني إبادة أمة أو مجموعة إثنية... هناك مرحلتان للإبادة الجماعية: الأولى إبادة النمط القومي للجماعة المظلومة المضطهدة، والثانية فرض النمط القومي للجماعة الظالمة المضطهدة... كانت كلمة «التجريد من القومية» تستخدم في الماضي للتعبير عن إبادة النمط القومي.

من هنا، تم استبدال كلمة «**إبادة Extermination**» بكلمة «**استيعاب وامتصاص Assimilation**» (وهي التخريجة التخديرية العلاجية التي قدمها شكسبير في مسرحية تاجر البندقية)، وهو ما يطلق عليه ليمكين اسم الإبادة الجماعية. وتظهر خطورة الأمر بشكل رئيسي مرة أخرى، في أن ليمكين كان يحمل في ذهنه فقط صورة اليهود ومقاومتهم «**للتجريد من القومية**» وهو يضع مخططاً لـــ «**اتفاقية إبادة جماعية**».

عملية إعادة التعريف، في اتفاقية الإبادة الجماعية كما أقرتها أخيراً الأمم المتحدة، حملت مرحلة إضافية:

المادة II

في هذه الاتفاقية الحالية، الإبادة الجماعية تعني أي عمل من الأعمال التالية، بقصد ونية تدمير ــ كلياً أو جزئياً ــ جماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية أو غير ذلك:

آ ــ قتل أعضاء الجماعة

ب ــ إلحاق الأذى الجسدي المادي أو الفكري المعنوي بأعضاء الجماعة.

ج ــ الإضرار عمداً بالظروف الحياتية للجماعة، بما في ذلك العدوان الجسدي المادي ــ كلياً أو جزئياً ــ.

د ــ فرض معايير وقيود مقصودة لمنع توالد الجماعة

هـ ــ ترحيل أطفال الجماعة بالقوة إلى جماعة أخرى.

المادة III

الأعمال التالية تعرض مرتكبها للعقوبة:

آ ــ الإبادة الجماعية

ب ــ التآمر للقيام بالإبادة الجماعية

ج ــ التحريض العلني المباشر على القيام بالإبادة الجماعية

د ــ الشروع في القيام بالإبادة الجماعية

هـ ــ الاشتراك في أعمال الإبادة الجماعية

إن أي إنسان في البلدان الغربية لديه معرفة أولية بالقانون وبالإجراءات القضائية يدرك خلال لحظات أن أية محاولة لتطبيق ما ورد أعلاه سينتج عنها تشويش وارتباك هائل.. لماذا؟

الجواب باختصار: لأن هاتين المادتين وحدهما تهزآن بأبسط المتطلبات القضائية كما هو متعارف عليه في جميع البلدان المتحضرة التي تملك حداً أدنى من الحرية: استخدام كلمات أو تعابير تأخذ شكل التعاريف القانونية وتعادلها. ومن هنا، فإن اختلافات التأويل التي تشغل أذهان المحامين والقضاة دائماً سوف تتضاعف ألف ضعف بسبب الكلمات والتعابير التي لم يحاول أحد تفسيرها وتعريفها.

على سبيل المثال، جميع الأعمال الضارة المؤذية المجدولة في القائمة تتوقف على كلمة «**جماعة**». ولكن ما هي الجماعة بالضبط في سياق الاتفاقية؟ إن جميع الكائنات البشرية تنتمي إلى جماعة ما أو إلى أخرى غيرها، فأيها هو المؤهل المعني بالحماية في ظل الاتفاقية وأيها ليس كذلك؟ ماذا عن النمور السود المسلمين؟ هل هم جماعة.. أم مجرد قسم من جماعة الزنوج؟ هل المونيز Moonies، والساينتولوجيست Scientologists، والدوكيبورز Doukhobors، والمينونايتس Mennonites[*] كلها جماعات يجب حمايتها تماماً مثل تشكيلة الأقليات المهاجرة في البلدان الغربية؟ فإذا قرر اللواطيون الشاذون جنسياً ــ الذين يشتكون دائماً من سوء معاملة المجتمع لهم ــ إعلان أنفسهم جماعة دينية (الأمر الذي يمكن إتمامه بسهولة نظراً لوجود كثير من رجال الدين على مذهبهم) فمن يعارضهم ويقول لهم «**لا**»؟

المنطق العقلي يقول إنَّ على كل جماعة تطالب بالحماية لأعضائها أن تثبت لإحدى محاكم اتفاقية الإبادة الجماعية، تحت أي العناوين من الاتفاقية تقع: القومية أم الإثنية أم العرقية أو الدينية؟ لقد حكم مجلس اللوردات البريطاني أن اليهود ليس لهم وضع خاص كجماعة بل «**كملة دينية معارضة**»، مما يعني أنه ليس لهم أن يطالبوا بوضع منفصل مستقل ببريطانيا أكثر من أتباع أية ملة أخرى، عدا الأنجليكانية التي هيَ الملة الرسمية للدولة. فالدكتور ناحوم غولدمان، الذي جمع ذات مرة رئاسة المؤتمر اليهودي العالمي ورئاسة المنظمة الصهيونية العالمية، يحكي لنا في كتابه «**التناقض اليهودي**» أنه أعطى في إحدى محاضراته كطالب أكثر من عشرين تعريفاً لليهودية «**لم يكن فيها واحد صحيح**». فإذا كان الدكتور غولدمان، اليهودي الأول في العالم، لم يستطع وضع تعريف صحيح لجماعته، فكيف سيستطيع باقي البشر في العالم أن يعرّفوا كلمة «**جماعة**»؟ ولعله أمر مقنع للعقل إلى حد كبير، أن تكون جماعة

---

[*] هذه كلها أسماء جماعات تحمل عقائد غير شائعة لأقليات فالــ Doukhobors مثلاً أصحاب فرقة مسيحية نشأت في القرن الثامن عشر في روسيا تؤمن بالإشراق الداخلي والطاعة وترفض سلطة الكنيسة، أما الــ Mennonites فهي حركة بروتستانتية نشأت في هولندا في أواخر القرن السادس عشر وأفراد جماعتها مستقلون لا يخدمون الخدمة العسكرية. **المترجم**

ما، مازالت حية منذ أكثر من ألفي عام وهي الآن من أكبر الجماعات ثروة ونفوذاً على سطح الأرض، هي المعنية المستحقة لحماية خاصة من النوع الذي تقدمه اتفاقية الإبادة الجماعية.

من الأمور غير القابلة للتعريف القانوني، هي الكلمات والتعابير المستخدمة في قائمة الأعمال المؤذية التي تعرض فاعلها للعقوبة. فمثلاً، لا مجال هناك للشك في معنى كلمة «**القتل**». ولكن، كيف يمكن للقتل أن يكون أكثر خطورة في منظور الإبادة الجماعية؟ وكيف يمكن إثبات أن قتل «**قسم من الجماعة**» ـــ الذي قد يكون فرداً واحداً من أفرادها ـــ يشكل قسماً من نية تستهدف القضاء على الجماعة بأكملها؟ إن كلمة «**غريب بشع Grotesque**» ـــ من وجهة النظر القانونية ـــ تعبّر عن «**الضرر المعنوي الفكري**»، فكيف يمكن وضع تعريف، بطريقة لا تترك مجالاً للشك لدى أية محكمة من المحاكم، يحدد ما هو واقع تحت عنوان «**الضرر المعنوي الفكري**» وما هو ليس كذلك؟

إن الكلمة أو التعبير الذي يعني أي شيء، إنما هو ـــ في المصطلح القانوني ـــ لا يعني شيئاً على الإطلاق.

والتصنيف الفنوي للأضرار المجدولة في قائمة المادة الثالثة لا يقل إشكالية، عند مقارنتها بالأضرار المعرّفة بوضوح في القانون العام، كجريمة القتل، وإحراق المباني عمداً، واختطاف وسائط النقل، واختطاف الأشخاص، وغيرها. فالإضافات الوصفية الملحقة بهذه الأضرار كما وردت في المادة الثانية تخلق «**إرباكاً وتشويشاً أكثر بشاعة**» يحرم اتفاقية الإبادة الجماعية من كل رأي يشير إلى خطورة اعتمادها من قبل العقول القانونية المدربة في أي بلد مازال يتمتع بمعيار «**الحكم في ظل القانون**» ويطبقه. إن جميع المواد الأخرى في الاتفاقية هي بالمثل قابلة للنقد والنقض تحت مجهر الفحص.

وما يستنتج من ذلك، هو أن واضعي مسودة الاتفاقية لم يشعروا بالحاجة إلى تعريف الكلمات والتعابير المستخدمة فيها. إنهم مثل «**هامبتي دامبتي**» الأبله في مسلسل لويس كارول «**أليس عبر الكرة الزجاجية السحرية**» يقولون: «**لا تزعجوا أنفسكم بالبحث عن معاني كلماتنا، فهي تعني ما نقول نحن أنها تعنيه، لا أكثر ولا أقل**». أو بعبارة أخرى مختلفة، إن اتفاقية الإبادة الجماعية

يمكن تطبيقها دون إشكاليات في الدول الاستبدادية، حيث الكلمات تعني ما يقول الجلادون والشرطة أنها تعنيه، لا أكثر ولا أقل. وحيث المحاكم ـ كذراع تنفيذية للذين يحكمون ـ ليست أكثر من ساحة عامة تنفذ فيها أحكام العقوبات المفروضة على مرأى من الجماهير.

إذا كانت اتفاقية الإبادة الجماعية لا تعني حماية الجماعات المعرضة للخطر، وإذا كانت كل الخلافات تتم تسويتها وفق الإجراءات القضائية في الغرب، فما معنى أن يستمر البعض بكل حماس بالضغط من أجل قبول تطبيق الاتفاقية على كل الدول؟

الإجابة عن هذا السؤال ستكون أسهل فهماً، بعد معالجة سؤالين آخرين: كيف، ولماذا واجهت الاتفاقية معارضة قوية في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من أي مكان آخر في العالم؟ كيف أمكن للأمريكيين أن يقضوا 35 عاماً وهم يتصارعون مع المشكلة دون الوصول إلى قرار نهائي؟

الجواب باختصار عن السؤال الأول، هو أن الاتفاقيات الدولية ـ حسب مفهوم دستور الولايات المتحدة ـ تأخذ آلياً قوة نفاذ القوانين المعمول بها في البلاد، وتلغي آلياً كل قانون نافذ يقف في طريق تطبيقها. ومن هنا، فإن تطبيق اتفاقية الإبادة الجماعية فوراً في الولايات المتحدة كقانون، سيكون تثويراً للنظام القانوني القضائي، بينما سيعتبر في معظم الدول الأخرى مجرد بيان سياسي لا يتضمن بالضرورة نية تحويلها إلى قانون نافذ. أضف إلى ذلك بشكل خاص، أن الاتفاقية قد ينظر إليها كتهديد للقوى التي تحكم جميع الولايات في الاتحاد، وهي قوى ذات استقلال محلي وحكم ذاتي محدود، المهمة الرئيسية لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة هي حمايتها والدفاع عنها. لقد استمر الصراع حول الاتفاقية طوال تلك السنين بسبب ضخامة مؤيديها، الذين يأملون بأن يستطيعوا عاجلاً أم آجلاً التغلب على كل مقاومة.

من هاري ترومان عام 1948 إلى رونالد ريغان عام 1984، سبعة رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية أعطوا موافقتهم على الاتفاقية، واحد منهم فقط أو اثنان ـ كجيمي كارتر مثلاً ـ كان أبلهَ إلى حد لم ير فيه ضرراً بالاتفاقية. ومع ذلك، فثمة حقيقة ثبتت هي أن أي طامح لمنصب مرموق بمكتب الرئاسة، وأي رئيس يأمل بأن يعاد انتخابه، فإن من الانتحار السياسي بالنسبة له أن

يتحدى تلك القوى التي يعتمد عليها كلا الحزبين في التمويل المالي، والتي تسيطر على الإعلام والاتصالات بشكل شبه كامل. ولذلك ــ وكما هو متوقع ــ قام رونالد ريغان قبل أيام من انتخابات الرئاسة عام 1984، ومنافسه الرئيسي والتر مونديل، بالمثول شخصياً أمام المنظمة اليهودية القومية بناي بريت، وعلى رأسيهما Yarmulka الطاقية اليهودية المعروفة، ليتعهدوا بدعم وتأييد اتفاقية الإبادة الجماعية.

إلا أن الأمر يحتاج إلى أكثر من موافقة الرئيس لعقد الاتفاقيات الدولية، فأغلبية ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ مطلوبة أيضاً. ومن هنا، فإن لدى الرئيس ــ حتى لو كان يعارض الاتفاقية شخصياً ــ دائماً مخرجاً سهلاً، بأن يترك لمجلس الشيوخ أن يعالج المسألة بالطريقة التعويقية المعتادة، دون أن يزعجه القلق من تصديقها.

ولكن، كيف لأعضاء مجلس الشيوخ ــ وكثير منهم مقعده غير مضمون ــ أن يقاوموا الضغط الخطير المماثل لإعطاء موافقتهم على الاتفاقية ؟ والجواب: بالمماطلة الباعثة على السأم وبالتأجيل وبالتأخير. وهي عملية لاقت الكثير من التسهيلات، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، بعد تورط أمريكا في سلسلة من الاضطرابات الرئيسية العالمية، من بينها الحرب الفيتنامية. ومع ذلك، كان على أعضاء مجلس الشيوخ أن يستخدموا دهاءهم وحنكتهم إلى أقصى حدودها لمنع الاتفاقية من الوصول إلى مرحلة التصويت النهائي في المجلس، مع إظهار موافقتهم ــ من باب الإحساس بالواجب ــ على «**مبدأ**» الاتفاقية، وفي الوقت ذاته عدم التدخل لتخليصها من مخاطر الارتماء في متاهات «**التعديلات**» و «**الشروط**» وغيرها.

الأمر البارز الآخر، هو أن المضامين الثورية الملحوظة بوضوح في اتفاقية الإبادة الجماعية، وتعويق القوى الدستورية في مجلس الشيوخ، هي التي أتاحت المزيد من الفحص التحليلي التخصصي للاتفاقية في الولايات المتحدة أكثر من أي مكان آخر في العالم.

ثمة الكثير مما يقال، بالنسبة لنفوذ ووحدة الهدف لدى مؤيدي الاتفاقية، من أن أية اتفاقية مقيدة شكلياً باحترام القانون من قبل لجنتين فرعيتين تابعتين للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ (هما لجنة عام 1949 ولجنة

عام 1970) يمكن إعادة صياغتها بعناية، لعرضها على مجلس الشيوخ في عام 1984 مرة أخرى، حين أخفق مزيج لا يقاوم من الإقناع والإرهاب في رفع الروح الهامدة، وتحريك الأرجل المتوقفة عن الحركة، في دوامة التأجيل والتأخير. الفقرة التالية مقتبسة من تقرير نشرته في واشنطن جريدة «سبوت لايت» الأسبوعية بتاريخ 22 تشرين الأول من عام 1984، أعطى دفعة من القوة للأمل لدى كثير من الأمريكيين بأن الموضوع الراسخ الصامد قد زاد صموداً:

إن هزيمة اتفاقية الإبادة الجماعية لم تأت، على كل حال، دون ثمن. فبعد أن هدد الخصوم المعارضون بسلاح تعديل مشروع القانون، اقترح هاوارد بيكر رئيس الأكثرية في مجلس الشيوخ حلا غير ملزم بتأييد «مبادئ» الاتفاقية، موضحاً مصلحة المجلس في العمل بالدورة القادمة على إصدار قرار سريع حول الاتفاقية ... أحد عشر عضواً من المجلس لم يكلفوا أنفسهم مشقة الحضور للتصويت الذي جاء كلقمة سريعة تهدئ جوع أولئك الذين يؤيدون الاتفاقية.

جرى أول رفض هام لاتفاقية الإبادة الجماعية في عام 1949، قبل بدء جلسات لجنة ماكماهون الفرعية التابعة للجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، وقبل أن تصبح قادرة على القضاء على مجموعة من الاقتراحات الأقل دعماً من ناحية النفوذ والتماسك. كان هذا هو الرفض الصريح للاتفاقية من قبل جمعية التصديق الأمريكية، رفض تكرر مرة أخرى بكل حزم بعد عشرين عاماً.

في عام 1954، أعلن فرانك إي. هولمان رئيس جمعية التصديق الأمريكية (ABA)، في خطاب له أمام المنظمة الوطنية المشهورة «**بنات الثورة الأمريكية**»، أن الاتفاقية «**اتفاقية خداع واحتيال**»، أما ليندر بيريز من لويزيانا، فوصفها بأنها «**مرعبة**» وأنها «**كاذبة**». إلا أنها عند عرضها للنقاش في الولايات المتحدة تحول ناقدوها إلى مؤيدين، وإلى مدافعين عن الأدب المتعارف عليه بعدم التشكيك في صدق ونقاء نواياهم.

ظلت اتفاقية الإبادة الجماعية في حال سبات مؤقت حتى عام 1970، حين تم إحياؤها من قبل الرئيس ريتشارد نيكسون، وتم الطلب من مجلس الشيوخ مرة أخرى أن يمنحها بركاته، فأحالها المجلس بدوره مرة أحرى لمزيد من التدقيق إلى لجنة فرعية تابعة للجنة العلاقات الخارجية، إنما هذه المرة برئاسة

السيناتور فرانك تشيرتش وعضوية السيناتور جاكوب جافيتس من نيويورك أكبر المؤيدين حماساً للاتفاقية.

لم تكن «**اللاواقعية الغريبة**» للاتفاقية أكثر وضوحاً وجلاء عما كانت عليه عند الذين انبروا للدفاع عنها أمام لجنة تشيرتش، وخصوصاً الذين أرسلتهم وزارة الخارجية. تساءل السيناتور تشيرتش ذات مرة قائلاً:

هل بإمكان أحد منكم أن يضع مثالاً واحداً في بلد من البلدان السبعين الأعضاء في هذه الاتفاقية، تم فيه تطبيق بنودها قضائياً على مواطنين بتهمة الإبادة الجماعية، وحوكموا وجرى الحكم عليهم ؟ وهل هناك حالة واحدة تم فيها تنفيذ بنود هذه الاتفاقية من جانب أي من الدول الـــ 75 التي أقرتها ؟

فانبرى تشارلز و. يوست ــ وكان وقتها سفيراً للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة ــ للجواب نيابة عن الباقين، وأقر بأنه «لم يسمع ولم يعلم» بحصول أي من الأمرين المذكورين في السؤال، لكنه استمر في الإصرار على أن تصديق الاتفاقية من قبل الولايات المتحدة أمر يستحق العناء. إلا أن السيناتور تشيرتش ظل صامداً:

أرى من الصعب أن نتصور أن أية حكومة ــ حتى لو وقعت على هذه الاتفاقية ــ تقبل أن تورط نفسها في ممارسة من هذا النوع، فهي إما ماضية في طريق الاعتراف بارتكابها الجريمة، أو في سبيلها لاتخاذ إجراء ما لمعاقبة نفسها، وفي كلا الحالين تجاوز لحدود الواقع. الأكثر من ذلك، أن من الصعب الاعتقاد بأن أية حكومة ــ مهما بلغ انحرافها ــ يمكن أن تدين قضائياً مواطنين أفراد بتهمة الإبادة الجماعية.

هل حصل شيء منذ عام 1949 يمكن تصنيفه تحت عنوان الإبادة الجماعية ؟ ماذا عن اضطرابات بيافرا في نيجيريا، والمذبحة الأندونيسية لمئتي ألف أطلقوا عليهم اسم «**شيوعيين**»، وجرائم القتل المتبادلة بين الهند وباكستان ؟ كان التفسير الوحيد الذي استطاع السفير يوست أن يقدمه، أن ثمة «**جدل خطير**» يقف في وجه وصف مثل هذه الأحداث بالإبادة الجماعية، منع الأمم المتحدة من القيام بأي عمل تجاهها.

جيمس مارتن، في كتابه «**الرجل الذي اخترع الإبادة الجماعية**» الصادر عام 1984، يجرنا إلى العصر الحاضر قائلاً:

رغم أن هناك العديد من الاتهامات بالإبادة الجماعية تم توجيهها إلى تشكيلة من الدول خلال الـ 35 سنة الأخيرة، فلم يسبق في الأمم المتحدة أن تم توجيه تهمة، أو جرت محاكمة، أو صدرت إدانة، على جريمة من هذا النوع، لا أمام هذه الهيئة الدولية ولا أمام غيرها في أي مكان آخر.

ثمة وجه طريف آخر للدليل الذي قدمه المحترفون في وزارة الخارجية، حين تم لفت انتباههم إلى المضامين الخطيرة لبعض الالتزامات التي ستترتب على الولايات المتحدة باعتبارها أحد الموقعين على الاتفاقية، فاحتجوا بأن هذه الالتزامات يمكن تجاهلها وإسقاطها من الاعتبار. ولقد علق السيناتور سام إيرفين، أحد الشهود الرئيسيين أمام لجنة فرانك تشيرتش الفرعية، قائلاً:

لقد حيرتني وزارة الخارجية. لماذا تريد لمثل هذه الاتفاقية أن تصدق، ثم تحاول ابتكار أساليب مريبة تبين أننا لسنا مجبرين على القيام بما تلزمنا به. هذا أمر لا أستطيع أن أفهمه.

السيناتور جون كوبر، عضو اللجنة الفرعية، كان بدوره حائراً. قال:

إحدى المشاكل التي تقلقني حول مسألة تصديق الاتفاقية، تتعلق بالالتزامات التي أخذنا على عاتقنا تنفيذها. لكن الحوارات الجدالية التي سمعناها تتعلق بأساليب التهرب من هذه الالتزامات.

المعالجة الاحترافية المتخصصة التي لقيتها اتفاقية الإبادة الجماعية على يد السيناتور سام إيرفين، أمام اللجنة الفرعية التابعة لمجلس الشيوخ، بتاريخ 22 أيار من عام 1970، لم تترك قولاً لقائل أو لكاتب، بالطريقة التي أظهر فيها أن الاتفاقية لا معنى لها على الإطلاق كمستند قانوني يهدف إلى قمع ومعاقبة أعمال الإبادة الجماعية من قبل الأفراد والدول على حد سواء.

فقبل البدء بتحليل مواد الاتفاقية واحدة بعد الأخرى، قام بتقديم حكاية تظهر فيها كامل الحقيقة مضغوطة داخل عشرات الوثائق والسجلات المطبوعة. قال:

خلال الأربعينيات من القرن العشرين تركزت الأنشطة المتصلة بالأمم المتحدة حول جهود شاقة عسيرة لتأسيس هذه الهيئة على اتفاقيات وقوانين تحل محل القوانين المحلية للدول في كل أنحاء الأرض، واتفاقية الإبادة الجماعية تمثل أحد هذه المساعي والجهود. إذ نشأت بالأصل من قرار صادر عن الأمم المتحدة يدين الإبادة الجماعية باعتبارها جريمة، سواء

مورست على الصعيد الديني أو السياسي أو أي صعيد آخر. لكنها تقلصت في شكلها النهائي حين تم استبعاد الإبادة الجماعية على الصعيد السياسي، لأن بعض المشاركين في صياغتها لم يشاؤوا أن يتخلوا ــ ولو شكلياً ــ عن حقهم في إبادة المجموعات السياسية المعادية لحكامهم.

والحجة الوحيدة المقدمة الآن لتصديق هذه الاتفاقية هي تحسين صورة الولايات المتحدة في عيون روسيا والجهات الاستبدادية الأخرى بخصوص هذه الاتفاقية التي من الغريب القول بأنها رفضت بعد أن طالت التحفظات العديد من بنودها وموادها.

إن تعليقات السيناتور إيرفين على قسم واحد من الاتفاقية، تعتبر خير مثال على تحليلاته التدميرية القاتلة لكل فقرات الاتفاقية تقريباً. يقول:

*لو تم تصديق الاتفاقية، فستفرض الفقرة جـ من المادة الثانية على الولايات المتحدة واجب منع وإدانة ومعاقبة أي شخص يعتدي عامداً «**على الشروط المعيشية للجماعة، بما في ذلك التخريب المادي كلياً أو جزئياً**». وهذا ما لا يستطيع العقل أن يفهمه. هل يعني هذا أن الدولة أو المسؤول الإقليمي في إحدى مناطقها، الذي يرفض أن يمنح أي عضو من أعضاء الجماعات الأربع المذكورة في الاتفاقية ما هو بأمسّ الحاجة إليه من خدمات اجتماعية ومنافع، يجب معاقبته أو إدانته بتهمة الإبادة الجماعية ؟ هل يعني هذا أن محكمة العدل الدولية ستكون لديها السلطة بموجب المادة التاسعة من الاتفاقية لأن تحكم بأن أي مجلس نيابي أو تشريعي لا يقدم ما هو متاح من خدمات اجتماعية ومنافع لأحد أفراد الجماعات الأربع، والتي تراها المحكمة ضرورية، يعتبر منتهكاً للاتفاقية ؟.*

كان من جملة ما قرأه السيناتور إيرفين من وثائق، تحليل شامل للاتفاقية على شكل مقال بقلم أوري ل. فيليبس، رئيس الدائرة العاشرة في محكمة الاستئناف بالولايات المتحدة، نشرته جريدة جمعية النقض الأمريكية في شهر آب 1949.

هذا النقد الخبير لاتفاقية الإبادة الجماعية أخذ يقوى بدلاً من أن يضعف، أمام الأسئلة التي تم توجيهها إلى السيناتور إيرفين من قبل الأعضاء الثلاثة في اللجنة الفرعية، فقد جاء السيناتور جاكوب جافيتس بشيء لا سابقة له حين طالب وضمن السماح بإقرار ما سمي فيما بعد «**دفاع النقطة بعد النقطة**».

هذا «**الدفاع**» يقر بعدم إمكانية وجود رد واضح على دفاع النقطة بعد النقطة، لأنه يسحب موضوع اتفاقية الإبادة الجماعية بأكمله إلى عالم مشكالي(*) عقلي، كل المعاني التي تشكل فيه جزءاً من عملية التفكير قابلة للتحريف والانعكاس بشكل لا يستطيع أن يقاربه ويتحكم به سوى الممارس المدرب على أشكال الفكر العدواني، الذي أطلق عليه جورج أورويل اسم «**الفكر المزدوج**». وهو شكل من أشكال البلاغة اللفظية يوصف به أصحاب النوايا العدوانية الذين يؤيدون إخضاع الحقيقة للسياسة. بعبارة أخرى، هو شكل من أشكال الحرب ــ كما ينظر إليه عالمياً ــ يتم فيه استبدال القوة المادية ــ التي ظلت لزمن طويل هي الحكم في كل صراعات المصالح بين الجماعات الإنسانية ــ بتطبيق «**سلمي**» لعنف أخلاقي.

من هنا، لا جدوى من محاولة تلخيص «**دفاع**» السيناتور جافيتس. فقد ورد حرفياً في كتاب جيمس مارتن نقلاً عن وثيقة مطبوعة من وثائق اللجنة الفرعية، وهو متاح لكل من يرغب في صقل مواهبه بدراسته[1].

فما هو إذن المعنى الحقيقي لاتفاقية إبادة جماعية، من الواضح أنها تعني الكثير عند مخترعيها وعند المتحمسين دائماً في تأييدها ؟

لقد تمت الإجابة للتو جزئياً عن هذا السؤال: فالاتفاقية ممارسة يهودية خالصة مغطاة بقناع رقيق من التعاطف مع جماعات أخرى لا تحصى أغفلت الاتفاقية ذكر أسمائها، إلا أنها مصممة فقط لدعم وحماية مصالح جماعة واحدة، هي بالتحديد الأمة اليهودية صاحبة النفوذ القوي والتنظيم العالي، والمبعثرة بين الأمم الأخرى، وأكثر أعدادها متواجد في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

ولكن ، لماذا يعلق اليهود مثل هذه الأهمية على أداة قانونية دولية مهلهلة، في الوقت الذي تصل فيه سلطتهم إلى ذروتها، وفي الوقت الذي يبدون

(*) المشكال Kaleidoscope، منظار يحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون، ما إن تتغير أوضاعها بالارتجاج حتى تتعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية.
المترجم

(1) هل هناك كلمة هي عند السيناتور جافيتس نوع من أنواع البلاغة اللفظية ؟ نعم، هناك. إنها كلمة «الإفتاء pilpulism» التي لا نجدها في المعاجم المختصرة، لكن معجم ويبستر يعرفها بأنها «الجدل الإفتائي»، وخاصة بين الدارسين اليهود في المواضيع التلمودية.

فيه ـ كجماعة ـ أقل عرضة للتهديد والأخطار من أي وقت مضى خلال تاريخهم الطويل الحافل بالإشكالات والمصاعب ؟

الجواب عن هذا السؤال باختصار، هو أن لدى اليهود ـ رغم ثرائهم الحالي الهائل وسلطانهم القوي ـ هواجس خوف دائم من إشكالات مزعجة أمامهم. ويعرفون أنهم يكشفون عن أنفسهم أكثر كجماعة فأكثر مترابطة لها مصالحها المستقلة. كما يعرفون أن المناهج السياسية التي يؤيدونها الآن، بهدف وضع أنفسهم في وضع نافذ قوي لا يمكن مهاجمته، لا بد أن تخضع ـ عاجلاً أم آجلاً ـ لارتفاع على سلم التنبه للخطر وللتناقض بين الشعوب الأخرى.

لقد تظاهر اليهود دائماً ـ لأسباب نفعية ذرائعية ـ بأنهم غير قادرين على فهم الظاهرة التي يصنفونها من باب التضليل تحت عنوان «**معاداة السامية**». لكن خبرة أكثر من ألفي عام علَّمتهم دون أي لمحة شك أن التناقض مع الشعوب التي يعيشون بينها هو جزء من الثمن المتوجب عليهم دفعه مقابل فوائد إحساس متنام بتماسك الجماعة بعضها إلى جانب بعض، ومقابل الثمار المادية التي يجنونها من معيار أخلاقي مزدوج. إنهم يعرفون أيضاً أن تزايد العولمة في الموقف والفعالية اليهودية خلال القرن العشرين، تواكب بالمقابل مع عولمة في معاداة السامية، حاملة معها احتمال وقوع كارثة للشعب اليهودي غير مسبوقة من قبل من حيث ضخامتها وخطورتها.

اتفاقية الإبادة الجماعية، إذن، ممارسة تهدف إلى إرساء أساسات قانون عقوبات دولي، تكمله محكمة إبادة جماعية دولية في ظل المادة السادسة من الاتفاقية، وتدعمه موافقة جميع الدول، وجاهز لوضعه موضع التنفيذ حين الطلب.

وهذا يفسر الاتساع غير المحدود لمعنى كلمة «**الإبادة الجماعية**» في الاتفاقية، طالما أن اليهود سيشعرون أنهم مهددون ومعرضون للخطر لدى أية علامة لعمل سلبي هم الذين يثيرونه حين يضغطون في مخططاتهم لحيازة كامل القدرة على التحكم بنظام شمولي عالمي هو الآن في طور النشوء.

المعنى الحقيقي لاتفاقية الإبادة الجماعية يقدم أيضاً تفسيراً لسلسلة من الظواهر الأخرى، من بينها تراخي الجهود لضمان موافقة الولايات المتحدة على الاتفاقية. إذ ما فائدة جميع الموافقات إذا كانت هذه الموافقة ما تزال ناقصة؟

سؤال آخر: كيف نفسر أن نجد، بين الدول التي صادقت على الاتفاقية، العديد من دول العالم الثالث التي لم يتوقف قادتها عن ارتكاب الإبادة الجماعية ضد الأقليات ذات الثقافة المعارضة ؟ الواقع أن الاتفاقية يمكن قبولها بسهولة عن طيب خاطر، ضمن حد أدنى من الشروط، من قبل الدول الشمولية المعروفة بظلمها واضطهادها ــ مثل الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية ــ كما يمكن وصفها كأداة إرهاب للتحكم بالسكان، أي كنقيض تام لما صنعت من أجله.

الدكتور ناحوم غولدمان، في كتابه «**التناقض اليهودي**»، يصف الشعب اليهودي بأنه «**الأكثر تناقضاً في العالم**»، وهو وصف ينسجم تماماً مع اتفاقية الإبادة الجماعية، كقانون دولي مصمم لإبعاد الخطر عن السياسات والأعمال اليهودية الخطرة، وللتوليف بين خوفين متناقضين تماماً: الخوف من الرفض والإدانة، والخوف من القبول والاستيعاب.

* * * *

سيكون تضليلاً وتشويهاً بالجملة أن نفترض أن القوة المترابطة الآن تؤيد مخططاً يسعى إلى تمركز كل القدرة السياسية في نظام عالمي جديد باليهود حصراً. فكما أوضحنا سابقاً في هذا الكتاب، فإن التخطيط لحكومة عالمية في شكلها الحالي، أخذ شكله الأول في القرن العشرين كممارسة «أنغلو ــ أمريكية»، بتشجيعٍ على جانبٍ من جوانب الأطلسي من قبل سيسيل جون رودس ورفاقه، ومن بينهم اللورد ميلنر، وعلى الجانب الآخر من قبل العائلات الغنية البروتستانتية للرواد البيض الأنغلوساكسون برئاسة المصرفي ج. ب. مورغان. وحين فقدت هذه النخبة المالية غير اليهودية مركزها مع ذروة ازدهار الرأسمالية العالمية (حسبما هو مسجل عند البروفيسور كيغلي) لم يتم محوها وإزالتها نهائياً، بل جرى سحبها إلى مدار في فلك سلطة مالية لم يبق لها عليه سلطان، لتبقى بعد ذلك في مكانها تحت تأثير الدوافع القوية والمصالح العالمية المشتركة.

كما تم بالمثل سحب أجيال متلاحقة من المفكرين، إلى مدار في فلك السلطة القوية للقرن العشرين، الذين وجدوا في فكر العولمة والنظام العالمي الجديد مكسباً مزدوجاً في ملء الهوة الناتجة عن إيمان ديني ضائع، وفي جني الثروة من ظروف دنيوية.

الفصل 18

جورج أورويل والعامل الصهيوني

لقد تم إعطاء فصل وأكثر لموضوع التغيرات الثورية في مجال التمويل المالي خلال القرن العشرين، ويجب توجيه الاهتمام الآن إلى النصف الآخر من ذلك التحالف بين المال والفكر الذي أعطى العالم عصراً من النزاع ليس له سابق في التاريخ المكتوب، والذي ـ تحديداً ـ له أثر على التغيرات في مجال العقل.

كيف أمكن للفكر الجمعي الغربي ـ صاحب السيرة العطرة المدهشة في العلوم والتكنولوجيا ـ أن يصبح قاحلاً موحشاً في المجال السياسي، وأن يحتضن بحماس متعصب تفسيراً ماركسياً للتاريخ ؟

سؤال آخر يعادل سابقه في الأهمية: بأية عملية عقلية روحية استطاع يهود العالم ـ المبعثرين شراذم صغيرة في بلاد الغرب ـ أن يحوزوا هيمنتهم الحالية الهائلة في مجالي الثروة والنفوذ السياسي ؟

لا بد، إذن، من النظر إلى ما حققه اليهود في القرن العشرين على أرض معركة العقل ضمن منظورين مستقلين منفصلين:

1 ـ فشل الفكر الغربي في قياس وتقدير تحديات الظروف التاريخية المتغيرة بشكل حاد متطرف.

2 ـ توظيف اليهود للمهارات العقلية بشكل يمنحهم أفضلية في التنافس لا تقهر.

بعبارة أخرى، لا يمكن عزو التباين بمجمله إلى ممارسة اليهود لمهارات عقلية خارقة لديهم، في وقت كانت فيه حالة من العجز الروحي والفكري تسيطر على الغرب.

يأتي التفسير جزئياً في حقيقة أن الفكر الغربي كان يبحث حصراً باتجاه الخارج، ولذلك كان بالمقابل يتضور جوعاً إلى نفاذ البصيرة والإحساس بالقيم، وإلى مواهب خصوصية يحتاج إليها كل شعب يريد أن يتهيأ ويصبح مناسباً للنضال.

ولقد سهّل جورج أورويل، في كتابيه الصغيرين «**مزرعة الحيوانات**» و«**ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون**»، على أهل الغرب فهم ما يحدث على أرض معركة العقل. فهذان الكتابان يحويان كمية كبيرة من تجاربه الخاصة الروحية والفكرية .. ما حدث له شخصياً، وما استطاع اكتشافه، في قالب قصصي حديث.

كان ــ مثل معظم المفكرين الغربيين في عصره ــ واحداً من الحيوانات في مزرعة للحيوانات، يمكن خداعه وتضليله بسهولة، وجاهز دائماً لتضليل وخداع نفسه. كتاب «**مزرعة الحيوانات**» ليس فقط مجرد صورة بيانية مطبوعة لفضح الاشتراكية الماركسية، فهي تفضح أيضاً الصفة المخادعة الخطيرة «**للمثالية**»، وتفضح الأفكار المجردة عن مستقبلٍ مخطط لبني البشر، التي لها تأثير السراب على عقول أولئك العاملين الرازحين تحت إحساس ضياع الهدف والاتجاه.

إن خبرة أورويل كنصير إشتراكي في الحرب الأهلية الاسبانية، فتحت عينيه تماماً وحولته إلى إنسانٍ غير مخدوع، إنسانٍ ذي موهبة طبيعية وجد نفسه فجأة متحرراً من جميع قيود الأفكار والمعتقدات الخاطئة.

لا يحاول أورويل شرح هذه المثالية التي يبحث فيها المفكرون عن ملجأ يهربون إليه من واقع قاس. كل ما يفعله في كتاب «**مزرعة الحيوانات**»، هو أن يقدم صورة حية يعرض فيها المثالية ومتوالياتها الناشئة عنها في قالب ممتع ومسلّ.

الجانب البارز من القصة، الذي يمكن تمييزه بسهولة، هو أن اللوردات والأسياد في مزرعة الحيوانات كلهم من نوع واحد، كلهم خنازير يتكاتفون معاً ويحكمون البقية، مع الخنزير المتمرد سنوبول الذي يشبه نظيره المعارض ليون تروتسكي إلى حد كبير في الدراما البولشيفية.

في الربع الأخير من عام 1983، حسب تعبير مجلة «**تايم**»:

... عظمة السنة الأورويلية أثارت جيشاً صغيراً من الأساتذة والنقاد والكتّاب وعلماء الاجتماع والسياسيين والقضاة المحترمين، وكل من يفكر بصوت عال ويستطيع مقاومة إغراء اللعب بأرقام أورويل.

لم تكن هناك حاجة للتأمل والتخمين حول «1984»، لأن أورويل لا يقدم نظرة خاطفة في المستقبل. إنها مجرد استبصار شفاف لما كان وما زال يجري بالفعل، حين استمرت الثورة العالمية في القرن العشرين بالاتساع لتهيمن على الجنس البشري.

الأمر الذي لم يدركه العديد من علماء الاجتماع وغيرهم، هو الأسلحة العقلية التي تفتق عنها ذهن جورج أورويل المستنير وتجربته المضيئة، لمحاكاة كل تلك الأسلحة التي أعطت الشعب اليهودي خلال القرن العشرين هامشاً تنافسياً وأفضلية على بقية البشر.

ما فعله هو أنه عزل وسمَّى المعاني، التي ــ حتى اليوم ــ لم تدخل في تركيبة العمليات الفكرية لدى أهل الغرب، وجعلها سهلة التداول وقابلة للتفكير فيها. فمعظم تلك الأسماء والكلمات هي الآن جزء من اللغة الانكليزية وتعابيرها، مثل «**الأخ الكبير**»، «**المفكر الطيب**»، «**الفكر المزدوج**»، «**الكلام الجديد**»، «**وقف الجريمة**»، «**ثقب الذاكرة**»، وغيرها.

إنها تأخذنا في جولة عبر العالم الأشبه بمصح للمجانين أخلاقياً، الذي تنتمي إليه كل تلك المفاهيم، وعلينا أن نتصلب في داخلنا ضد الإقياء، ونحن ــ مع أورويل المرشد الناصح المخلص ــ نحاول أن نتآلف مع «**الفكر المزدوج**»، وأن نكتشف ماذا يعني «**أن نعرف ولا نعرف**» و«**كن داعياً للحقيقة الكاملة وأنت تنسج الأكاذيب بعناية**» و«**تمسَّك بالآراء المتناقضة وصدِّقها جميعاً**» و«**إمض إلى الحد الذي تستخدم فيه المنطق ضد المنطق**». إنها أدوات لا يمكن ممارستها بمهارة وأمان إلا من قبل أولئك المتمرسين على استخدامها بشكل أصبحت عندهم طبيعة ثانية.

كل الناس ــ بالطبع ــ قادرون بدرجة أو بأخرى على «**التفكير المزدوج**»، إنما ليس هناك أحد بلغ به درجة الكمال، ومارسه كطبيعة ثانية، إلا أولئك الذين عاشوا منذ صغرهم في عالمين فكريين. إن الموقف الفكري والمهارات الفكرية ــ بالنسبة لليهود ــ هي التي أتاحت توظيف وتطبيق ما أطلق عليه البروفيسور السيرآرثركيث اسم «**المعيار الأخلاقي المزدوج**»، الذي هو معيار أخلاقي يميز، عند اليهود، بوضوح بين «**نحن**» و«**هم**»، وبين«**مصالحنا**» و«**مصالحهم**».

هذا التفكير المزدوج يمارسه اليهود بسهولة واطمئنان أكبر، لأنهم ــ كما قال يونغ ــ يملكون مساحة أوسع من الوعي، ويسهل عليهم ربط القيم السلبية

باللاوعي. إلا أن هناك ـــ حتى بالنسبة لليهود ـــ ثمناً وضريبة مفروضة، هي الانسلاخ الجزئي عن الطبيعة، وانعدام الاهتمام بالأشياء لذاتها، وفقدان الإبداع، هذا كله مضافاً إلى عقم ثقافي حضاري. أما غير اليهودي في الجهة الأخرى، فهو يمارس مجازفاً علوم الرياء التي تعتمد بالكامل على رغبة بالإمساك بالواقع، ثم محاولة استعادته بعد أن يحقق اللاواقع هدفه الاستدراكي. إن ضريبة الفشل في إنجاز هذه الحيلة بشكل كامل هي إضعاف القدرة لأمد طويل مزمن على الإمساك بالواقع، وهذا اضطراب نفساني ذو مضامين شخصية تنذر بالخطر.

ما نراه في تطبيق «**التفكير المزدوج**» سواء على الصعيد التجاري أو السياسي، هو استبدال عدوان جسدي مادي بعدوان أخلاقي. أما على صعيد الشؤون العامة فهو إحلال الإرهاب محل التهديد الجسدي المادي.

ثمة منظوران للتفكير المزدوج: منظور إيجابي وآخر سلبي، يتجسدان ـــ من جهة أولى ـــ بأولئك الذين يستخدمونه، ومن جهة ثانية بأُولئك الذين يعارضون استخدامه. أي بالمعتدين والضحايا. الحالة الأولى لهذه القاعدة ـــ كما يعبر عنها أورويل ـــ التي يمكن تعليمها حتى للأطفال، هي ما يسمى بـ «**الكلام الجديد**» و«**وقف الجريمة**». فالمقصود بوقف الجريمة، مثلاً، القدرة على التوقف غريزياً على عتبة أية فكرة خطرة، ويتضمن ذلك القدرة على عدم التمسك بالتشبيهات، وعدم الفشل في إدراك الأخطاء المنطقية، وعدم فهم الحجج البسيطة إن كانت تعارض الأصول الحاكمة. هذه الأخيرة يطلق عليها أورويل اسم «**الغباء الذي يحمي**».

إن ما يسميه أورويل «**وقف الجريمة**» هو وسيلة إرهاب أخلاقي مصممة لرسم حدود منطقة الحوار والمتطلبات المسموح بها، تشبه سياجاً كهربائياً يحيط بالعقل.

منطقة الحوار هذه والمتطلبات التي ترسم حدودها أداة «**وقف الجريمة**» اليوم بشكل صارم قاس، لها علاقة بالسلطة وبالدور السياسي وبالتاريخ وبالأعمال التجارية التي يمارسها الشعب اليهودي. إذ ليس هناك في الواقع منطقة أخرى يتم تحديد وتحريم الحوار والمتطلبات فيها. رجال الكنيسة ذوو المناصب العالية أحرار بأن يتساءلوا في مقالات طويلة عن الأصولية. ومحررو الصحف والسياسيون يمكنهم أن يناقشوا ويثيروا الرأي العام حول

مسألة إلغاء الملكية دون خوف من تبعات شخصية. لم يسبق أن كان هناك حرية تعبير علني شاملة، فهناك دائماً منطقة مستثناة، منطقة فيها أي شيء يشير إلى الدور اليهودي في التاريخ الحديث.

من هنا، عمد أورويل ــ بدلاً من الهزء بـ «**وقف الجريمة**» السائدة هذه، وإفزاع الآلاف من قراء كتابه ــ إلى المراوغة فيها، مستعملاً حيلة ذكية من حيل «**التفكير المزدوج**»، فقام بعرض الحقيقة الممنوعة المحرمة في قالب معكوس، داخلها إلى الخارج وأعلاها إلى الأسفل. فكما أن الطاغية «**أوشينيا**» تم تصويره في قالب «**الأخ الأكبر**» الحنون، وكما صدرت الأخبار اليومية المزورة عن «**وزير الحق والصدق**»، وأسندت قيادة الشرطة السرية لــ «**وزير المحبة**»، فقد قدَّم أورويل بكل ذكاء وحنكة اليهودي إيمانويل غولدشتاين كمحرر مأمول للشعب المضطهد، ثم يبدأ غولدشتاين بعدها بفضح تقنية نظام السيطرة على الجماهير. ونقرأ عن هذا «**المحرر**» في كتاب «**1984**» مايلي:

> *لم يمر يوم واحد حتى كانت «**الشرطة الفكرية**» تنزع الأقنعة عن الجواسيس والمخربين العاملين تحت إمرة توجيهاته. كان قائد جيش واسع من الأشباح، وشبكة سرية من المتآمرين مكرسة للإطاحة بالدولة، وكان المفروض أن يطلق عليها اسم «**الأخوية**». كما كان هناك أيضاً شائعات وحكايا يتم تداولها همساً عن كتاب مخيف، فيه خلاصة جميع الهرطقات التجديفية، من تأليف غولدشتاين يتم تداوله بشكل سري هنا وهناك. كان كتاباً بلا عنوان، يشير إليه الناس ــ إن أشاروا ــ بكلمة «**ذاك الكتاب**». ولكن لا أحد يعرف مثل هذه الأشياء إلا عن طريق الإشاعات الغامضة.*

لا ريب في أن هذا «**الكتاب**» الذي كتبه ــ حسبما هو مزعوم ــ اليهودي غولدشتاين، هو الذي وقع في يد بطل الحكاية وينستون سميث، كاشفاً سر «**التفكير المزدوج**» كمفتاح للسلطة الهائلة للاشتراكيين الشموليين.

على هذا الشكل جعل أورويل كتابه يمر من نظام مراقبة المطبوعات في أنحاء العالم، الذي يمنع ويحرم بحث الدور اليهودي في التاريخ ماضياً وحاضراً. كل ما كان عليه أن يفعله، هو أن ينسب هذه التعرية الرائعة للحقيقة المحرمة إلى «**محرر**» يهودي. لم يتم انتزاع وتغيير «**وقف الجريمة**» من كامل الكتاب لأغراض الرواج التجاري فقط، بل من أجل آلاف لا تحصى من القراء

قد تخيفهم فكرة أن يقرأوا فضحاً تفصيلياً لنظام حرب نفسانية يبحث مسألة أفضلية لا تقهر لدى الأمة اليهودية في القرن العشرين.

وكما هو متوقع، فإن كثيراً من أولئك الذين يفهمون ويقدرون هذا التحليل الرائع للسيطرة على الجماهير ــ كما هو ممارس في العالم الحديث ــ يعجبون من قدرته على جعل خطأ الاختيار ميزة واضحة خاصة باليهود في كتابه، وأن يظهرها بشكل جلي.

هناك على سبيل المثال ناقد في جريدة «**رابطة الدفاع عن المسيحية في أمريكا**» كتب في عدد شباط 1984 تعليقاً يقول:

ثمة خطأ كبير في كتاب «1984» ــ من وجهة نظرنا كوطنيين ــ هو رسم صورة اليهودي إيمانويل غولدشتاين «كمخلص للشعب». حتى أن المرء يتأمل متسائلا ما إذا كان أورويل يعرف شيئاً عما ثبت وثائقياً في الأربعينيات من أن اليهود هم المنبع الأول للثورة والشعب في العالم. وجعل أحدهم منارة ضوء ضد الطغيان ــ كما فعل أورويل ــ أمر أكثر من سخيف وأكثر من مضحك. إنه أمر ينتقص بشكل ملحوظ من مصداقية الكاتب.

أما الكاتب اليهودي ت. ر. فايفيل، فيبدو أنه شك في وجود دافع خفي عند أورويل لاختياره بشكل مكشوف وقح ممجوج اسماً يهودياً «**للمحرر**» الذي يكشف الحقيقة كاملة عن «**التفكير المزدوج**».

لا ريب في أن المفتاح إلى الأحجية الأورويلية ضائع، شأن كل معالجة تستخدم المجاز والاستعارة في فكرة عالية التجريد. إنما يمكن العثور عليه على ص267، حيث المتمرد الثائر وينستون سميث ــ الذي يميل إلى الإصرار على الحقيقة حفاظاً على سلامة عقله ــ يتم استجوابه من قبل المحقق أوبراين:

قال أوبراين: حين كنت قابعاً هناك أخذك العجب حتى أنك سألتني، ما الذي يجبر وزير المحبة على تضييع كل هذا الوقت لإزعاجك. وحين كنت حراً مطلق السراح استولت عليك الحيرة بسبب السؤال ذاته. لقد استطعت أن تضع يدك على آليات المجتمع الذي تعيش فيه، إنما ليس على دوافعه التحتانية الأساسية. هل تتذكر وأنت تكتب في مذكراتك اليومية [إنني أفهم «كيف»، لكنني لا أفهم «لماذا»] ؟ إن تفكيرك وقتها في هذه الـ «لماذا» هو الذي جعلك تشك في سلامة عقلك. لقد قرأت

الكتاب، كتاب غولدشتاين، أو قسماً منه على الأقل، فهل حكى لك شيئاً لم تكن تعرفه؟ قال وينستون: هل قرأته أنت؟

أجاب أوبراين: لقد كتبته. فليس هناك ــ كما تعلم ــ كتاب من تأليف فرد واحد.

ما يكشف عنه أورويل هنا، هو أن إيمانويل غولدشتاين ــ رغم ما يراه فيه وزير الحق والصدق «**مينيترو**» عدواً دائماً لدولة أوشينيا الاشتراكية ــ عبارة عن تجسيد تشخيصي للداخل الجواني للحزب الحاكم. بعبارة أخرى، «**الأخ الكبير**» و«**غولدشتاين**» مصطلحان مترادفان، يحل أحدهما محل الآخر.

لم يبحث أورويل مسألة الصهيونية في كتاباته على الإطلاق، لكن مؤلفاته المعاصرة لا تترك لدينا شكاً في أنه ضدها. يقول فايفيل، الذي هو نفسه من الصهاينة المتحمسين:

إنني أعرف أن أورويل لا يتفق معي مطلقاً. فعرب فلسطين ــ بالنسبة إليه ــ آسيويون ملونون، ويهود فلسطين مثل الحكام البيض في الهند وبورما. وهذا إفراط في تبسيط الأشياء إلى حد التشويه لا يريد أن يتزحزح عنه...

لقد اتهم أورويل بمعاداة السامية، شأن كل من يعلنون أنهم ضد الصهيونية. وها هو فايفيل يكتب قائلاً:

اختلافاتنا حول القضايا اليهودية تمتد إلى أبعد من فلسطين وإسرائيل. فقد قال أورويل في إحدى رسائله إلى جوليان سيمونز: «لا شك عندي في أن فايفيل يظنني معادياً للسامية». كلا. أنا لم يخطر لي مطلقاً أن أقول ذلك، لكن مالكولم موغيريدج صديق أورويل قالها. فحول انطباعاته عن جنازة أورويل كتب يقول: «من المثير حسب ظني أن يجتنب أورويل إعجاب اليهود بهذا القدر، لأنه كان في أعماقه معادياً بقوة للسامية».

والواقع أن جميع مؤيدي أورويل القدامى كانوا من اليهود، وليس في ذلك ما يدهش، لأن الحركة الاشتراكية في بريطانيا ــ على المستوى القيادي ــ كانت مشروعاً يهودياً، يضم في واجهته مشاهير من أمثال فيكتور غوللانتز صاحب «**منتدى الكتاب اليساري**»، والبروفيسور هارولد لاسكي، الذي سرعان ما أدرك قيمة أورويل العظيمة كمعتنق للاشتراكية المثالية.

ولكن هل كان أورويل معادياً للسامية، بمعنى أنه معاد لليهود؟ يكشف لنا فايفيل عن ذلك ـ دون أن يقصد ـ في حوار جدلي حامي الوطيس مع أورويل، على شكل مقال بعنوان «**الانتقام مر**»، نشرته جريدة تريبيون بتاريخ 9 تشرين الثاني 1945:

إنه بهذا وصف كيف ـ بعد فترة قصيرة من انتهاء القتال ـ طاف في معسكر لأسرى الحرب في جنوب ألمانيا، بصحبة ضابط يهودي شاب من فيينا يرتدي لباس كابتن في جيش الولايات المتحدة، حاول أورويل كثيراً أن يستلطفه لكنه فشل تماماً. ثم روى لنا كيف راقب هذا الضابط وهو يصيح ويركل ضابطاً سجيناً من الـ SS، كان ذات مرة يعذب الآخرين، رغم أنه يبدو الآن لأورويل مخلوقاً يثير الشفقة بحاجة إلى علاج نفساني.

إن ما أزعج فايفيل هو هذه العبارة المقتضبة في مقال أورويل التي يقول فيها «**من السخف أن نلوم أي يهودي ألماني أو أسترالي على تحوله إلى نازي**»، ولهذا فهو يتابع قائلاً:

كان هذا كل ما كتبه عن الخلفية، الذي أعتبره خروجاً عن السياق. لقد قلت لأورويل أن المرء، في ضوء ما يسميه هتلر «الحل النهائي للمسألة اليهودية»، أمام أكبر جريمة مدبرة متعمدة تم ارتكابها في تاريخ البشرية. ومع ذلك، فكل ما فعله أورويل هو أنه ذكرها عرضاً في جملة مقتضبة مرفوضة من مقال طويل، حكى لنا فيه كيف ركل ضابط يهودي رجلاً من الـ SS، ثم اعتبر هذا العمل «تحولاً وارتداداً»، شأن من يجعل التاريخ يقف على رأسه. كيف يعقل أن يرتد أقارب الملايين الستة الذين اغتيلوا؟!

ويقر فايفيل بأن احتجاجه واعتراضه لم يحدث أثراً من أي نوع كان على آراء أورويل. والواقع أن أورويل ـ بدلاً من أن يشاطر فايفيل سخطه على «**جرائم الحرب**» الألمانية ـ طالب في المقال ذاته الحكومة البريطانية أن تحتج على الطرد السوفييتي للألمان من شرق بروسيا، واعتبار ذلك جريمة بحق الإنسانية.

ثمة نتيجة واحدة فقط يمكن استخلاصها من هذا كله، هي أن أورويل لم يصدق أبداً حكاية قتل ستة ملايين يهودي بأفران الغاز، وأن تجربته في الحرب الأهلية الإسبانية، التي سجلها بكل إخلاص في كتابه «**تحية إجلال وتقدير إلى**

كاتالونيا»، لم تترك شيئاً عليه أن يتعلمه عن الدور اليهودي في الحروب والثورات.

الأكثر من ذلك، أن إشارة أورويل إلى الضابط الذي «**حاول أن يستلطفه لكنه فشل**»، تظهر انطباعه الممتعض من الأعداد التي لا تحصى من الشباب اليهود الذين يرتدون ملابس الجيش الأمريكي، ويجيد معظمهم الألمانية أكثر من الإنكليزية، وتوافدوا كالنحل من كل أنحاء ألمانيا بمجرد أن توقف إطلاق النار.

فهل كان جورج أورويل معادياً للسامية؟ إنه يعلن في مقالة له بعنوان «**معاداة السامية في بريطانيا**» نشرت في شباط 1945، أن معاداة السامية لا يجوز أن تصاغ كتهمة لا منطق فيها توجه إلى الآخرين من غير اليهود، بل يجب أن توجه تهمة معاداة السامية إلى اليهود أنفسهم.

إن مقاربة أورويل لموضوع «**الباطنية اليهودية**»، هي ذات المقاربة لدى ويليام شكسبير، فهو يدرك وجود تجاوب سلبي عالمي ضد التواجد اليهودي والممارسة اليهودية، إلا أنه بريء من أي حقد عدواني تجاه اليهود كإخوة في الإنسانية. وكلا الرجلين مهتم فقط بالتوضيح والكشف عن قومية تتم ممارستها ــ خلافاً لكل القوميات الأخرى ــ في تشتت جغرافي، وتضع اليهود في علاقة عدوانية مستمرة مع الشعوب التي يعيشون بينها، عدوانية لا يمكن إخفاؤها بالكامل.

إن شكسبير في مسرحيته «**تاجر البندقية**» ــ وهو يزوج جيسيكا ابنة شايلوك من صديق أنطونيو المسيحي، ويدعو شايلوك إلى الهداية ــ يدافع عن جريمة الذوبان في الآخرين، ويعتبرها الحل الوحيد الملائم لمشكلة طاعونية عاني منها اليهود وغير اليهود على حد سواء طوال قرون عديدة.

ما هو أكثر من ذلك، أنه يوضح ــ بكلمات حاسمة ــ عدم وجود شيء اسمه «**معاداة السامية**»، طالما أنها بالأساس تمييز متعصب يمارسه اليهود لا ينتج إلا العدوانية. لقد عارضت المؤسسة اليهودية عرض مسرحية «**تاجر البندقية**»

على المسارح، أو تحويلها إلى فيلم سينمائي أو تلفزيوني، ليس خوفاً من احتمال إثارة العداوة تجاه اليهود، بل لأنها فقط تشجع روح الذوبان في الآخرين.

كان جورج أورويل أكثر اهتماماً بالدراما الكبرى للسلطة السياسية الحديثة، وخصوصاً، بالدور اليهودي في عملية تمركز السلطة بالمنظور الاشتراكي. وإذا كان هذا صحيحاً ـ كما يعتقد مالكولم موغيريدج ـ في اجتذاب استحسان واهتمام اليهود، فلأن أورويل نفسه كان يهتم بهم، ولأن موقفه منهم لم يصل إلى حد العداوة الشخصية. لقد أثارت كتابات أورويل، وخصوصاً كتابه «**1984**»، رنيناً متعاطفاً في عقول القراء اليهود، لأنها ـ في الواقع ـ تساعد على وصف اليهودي لليهود.

والرسالة الموجهة إلى شعوب الغرب، التي يمكن استخلاصها من كتابي أورويل «1984» و«**مزرعة الحيوانات**»، والتي كرس لها جميع كتاباته الأخرى، هي أن اختلال التوازن الحالي لعلاقات اليهود مع غير اليهود يمكن إصلاحه بطريقة واحدة: هي أن على الشعوب المضيفة أن تتعلم كيف تغفر. والطريقة الوحيدة ليتعلموا ذلك، هي أن يزودوا عقولهم بأسلحة وتقنيات «**العدوانية غير العنيفة**» التي تحقق الآن أفضلية تنافسية هائلة للشعب اليهودي. إنما الشعوب غير اليهودية ليست بحاجة لاستخدام أسلحة عقلية من هذا النوع. الدفاع الوحيد الذي يحتاجونه إليه هو معرفة خصومهم وفهمهم، لتجريدهم من القدرة على استغلالهم.

هذا الكتاب

- عالج فيه المؤلف، موضوعاً معقداً متعدد الجوانب عبر تقديم مجموعة من دراسات منفصلة مستقلة، لكل منها ميزاتها، تم رسمها من أجل فهم أعمق وأشمل للعلاقة المضطربة القلقة منذ زمن بعيد بين اليهودي وغيره.
- فالتطورات في الشرق الأوسط، التي تهدد بجر البشرية إلى حرب عالمية أخرى، جعلت الحاجة ماسة أكثر من ذي قبل لسبر غور الصهيونية، كعامل رئيسي في تشكيل وصياغة تاريخ القرن العشرين.
- يحمل الكتاب هذه الرسالة الهامة: إن كامل المسؤولية عن «أفول الغرب» في زمننا يقع على الشعوب الغربية، التي خلقت مناخات وظروفاً غير صحية على الصعيدين الأخلاقي والسياسي انحرفت فيها بفعل مؤثرات الإضعاف والتوهين لتصبح اليوم هشة ضعيفة المقاومة.
- الهدف الرئيس للمؤلف هو جمع المعلومات المعروفة بعضها مع بعض، وتفسيرها على وجهها الصحيح، وليس الكشف عن معلومات مازالت مجهولة حتى اليوم. فجميع الحقائق عنده متوفرة وقابلة للبحث، لاينقصها سوى الرغبة الصادقة بالبحث والقدرة عليه.



